مكتبة نوميديا 175
Telegram: @Numidia_Library

الحبيب السائح

رواية

أنا وحاييم

ميم للنشر
Mim Edition

الحبيب السائح

أنا وحاييم

رواية

أنا وحاييم

اسم الكاتب: الحبيب السائح

سنة الإصدار: الطبعة الأولى سنة 2018

حقوق الطبع محفوظة

دار ميم للنشر، الجزائر

الهاتف: 656043784(213+) أو 791891088(213+)

E-mail : mim_edition@hotmail.fr

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

All rights reserved: No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ردمك: 978-9931-585-51-0

الايداع القانوني: السداسي الأول، 2018

إلى وليام سپورتيس William Sportisse
مواطني الذي عرفته في
« جْنان الزيتون Le camp des oliviers »

تنويــــه.

الرمزان (ڤـ) و (گـ) الواردان في النص ينطقان على التوالي (v) و(g).

1

1944. من سعيدة إلى معسكر

لنهاية عطلتي الصيفية الوشيكة، وقبل أيام قليلة من استئناف عملي بدار المعلمين، بدايةَ الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر، طمأنتُ زوجتي زليخة النضْري على أننا لن نتأخر يوما آخر؛ لأنها تشكّت لي من أن لها أشغالا كثيرة تنتظرها بشقتنا في وهران. وطلبت منها أن تستعدّ للسفر غدا. ثم خرجتُ. وعلى بعد أمتار -كانت ثلاثين عدّاً بخطواتي الصغيرة قبل سنين- وقفت، على الرصيف المقابل، وقفة لم أقفها من قبل، محزون الخاطر، أمام دار حاييم بنميمون تبدو ساكنة مثل كائنٍ تَحجّر، ملتفّة على فراغ بات يسكنها منذ أن أطاح الدهر، قبل ثلاثة أشهر، بآخر أهلها الغابرين.

تقدمتُ. وعند الباب الصامت، ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاما كي نتوجه معا لأول مرة إلى مدرسة جول فيرّي، فكَكت كفي عن قطعة المعدن الباردة المعلَّقة في حلْق صغير بملصق مكتوب عليه بخط اليد «مفتاح الدار»؛ المفتاح الذي أولجتُه عينَ القفل وأدرته دورتين. ثم دخلت فانتابني مرة أخرى شعور، لم يتنبني حتى في يوم عودتي إلى دار جدتي بعد وفاتها، بأنّ السكون قد يكون بهذا الثقل الذي ينوء به الرواقُ، غير الطويل غير الواسع كثيرا، ذو البلاط الأحمر والجدارين المطليين بالبني الفاتح جدا؛ بهذا الصمت الذي ما برح يُخرس أبوابَ الغرف

الثلاث والمطبخ متقابلةً اثنين اثنيْن مفتوحةً كلها إلا الباب المفضي إلى الحوش الخلفي كان مغلقا.

كل شيء، كل الأثاث، ظهر لي في مكانه على الحال التي غادره عليها حاييم آخر مرة، وكما أردت له أن يبقى منذ أن أوصيت الخادمة عَونية بأن لا تزحزح شيئا منه، عند تنظيف البيت مرة كل نصف شهر وسقْي ما يحتاج سقيا من نباتات جنينة الحوش كل أسبوع.

فكم بدا لي، وكأن هذا يحدث لأول مرة، أنّ الرواق أطول، كما ساعته الحائطية أكبر، مما رأيته عليه عندما كنت أعبُره وأنا طفل! وأن غرفة نوم حاييم أوسع، بنافذتها المطلة على الشارع، وكانت ذات ستار أبيض مزين بموتيف لطاووس - إنها الآن مكتبة بكرسي من الخيزران وطاولة مستطيلة من خشب السنديان لا يزال عليها قلم ريشة من نوع پاركر وقارورة حبر أسود من ماركة وترْمان بينهما مذكّرة حين كنت دخلت قبل شهرين فرأيتها انشددت إليها كما لو أني ألبّي نداءَ صوتٍ ملتبس يقول لي عنها إنما حُطت على تلك الوضعية لأنتبه إليها وإلا لكان حاييم قد دسّها في مكان آخر لا تُرى منه أو أدمجها في رف من رفوف المكتبة فترددت بالرغم من ذلك لحظات قبل فتحها!

وها هي غرفة أبويْه، وقد صارت غرفةَ نومه بعد وفاتهما، هي الأخرى بنافذة ذات ستار مرفوف تطلّ على الشارع مغلقةً. لا تزال بخزانتها على جانبيها أفرشتها وأغطيتها منضّدة على طاولتين؛ بسريرها الكبير بصوانيه؛ على أحدهما أباجورة وعلى الآخر شمعدان المينوراه سباعي المواسير وكتاب التوراة بتجليد بني غامق.

مثلُها كانت غرفة الجلوس بنافذتها الكبيرة وستارها الشفاف بموتيفات نبات الشوفان المطلة على الحوش؛ بأريكتيها وكرسييها الخشبيين بمسندين وطاولتها البيْنية فوق سجاد - هنا كنت قبل ثلاثة أعوام شربت مع زليخة قهوة كان حاييم قدمها لنا بعد نجاته من السحل صباح يوم الاستقلال - على جدارها الأول، إلى اليمين، ثلاث لوحات زيتية. وعلى الثاني المقابل صور نصفية مكبرة في براويز: الأولى لموشي والد حاييم بعمامة من الجوخ. والثانية لوالدته زَهيرة سِماح. كم وجدتها، في نظرتها الطيبة المسالمة وحلي أذنيها ورقبتها وشَدة عصابة رأسها، تشبه جدتي ربيعة! وهذه الثالثة لحاييم نفسه، وهي تعود إلى السنة الأولى من دخوله مدرسة جول فيرّي، أثارت حنيني إلى جلوسي معه على طاولة واحدة؛ إلى رائحة المداد وطقطقة حطب المدفأة ورنة الجرس، إلى زنقة الدرب وساحة البلدية أيام الثلج نترامى بكريّاته، إلى الوادي، أيام القيظ، حيث سبحنا مرة عاريين فتكشّف لنا ختْننا.

«منذ ذلك العمر، لملامحك اللطيفة وسحنتك الهادئة وعينيك الحالمتين، كنت ذا جاذبية خفية»، قلت بهمس.

وإذ توهّمته تبسم، أضفت:

«هل تذكر آخر عفرتاتنا؟» - تلك التي ارتعبنا خلالها من صرخة ألفونسو باتيست فينا عالقين بشجرة إجاص في بستان مزرعته قرب ضفة الوادي الغربية بالضاحية الجنوبية فقفزنا إلى الأرض وانسربنا مثل ثعلبين ماكرين بين أسلاك السياج فأطلقنا سيقاننا ركضًا في شورت وتريكو وصندل مطاطيّ لكل منا لا نلوي على شيء إلى أن

ظهرت لنا القنطرة الفوقانية التي سمعنا قريبا منها شخير محرك سيارة راحت كما رأيتها حين التفت التفاتة خاطفة تلتهم خلفنا الطريق المتربة مقتربة من حانة سيگورَا مثيرة عجاجا بكثافة حنق ألفونسو باتيست وهو يضغط على دواسة السرعة بدرجة إمساكه على المقود متخيلا وكان ذلك إحساسي كيف سيفعل بابن العربي وابن اليهودية.

«لأنه كان عرفنا!»، كذلك ذكر لي حاييم بعد سنين في مطعم فندق الشرق حيث تناولنا غداءنا إذ تجاذبنا الواقعة وتحدثنا عن معلمنا السابق، في مدرسة جول فيرّي، مسْيو خايمي سانشيز الذي كنا شيعناه، قبل أيام إلى مثواه بمقبرة النصارى في ضاحية المدينة الشرقية، مستعيدين صرامته وعدالته تُجاه التلاميذ بلا تمييز؛ ولم نكن عرفنا، إلا خلال تأبينه، أنه كان من الشيوعيين في صف الجمهوريين ضد فرانكو.

كنا، لا أشك اليوم في ذلك، نبدو لألفونسو باتيست، وهو خلْفنا مستشيط يحوّل السرعة أو يدير المقود يمينا أو شِمالا، ألْعَنَ من عفريتين صغيرين في أوج تلك القيلولة. وكان ألفونسو باتيست - وذلك ما صوّره لي حاييم خلال غدائنا ذاك - رأى نفسه وقد أدركنَا، بعد أن أنهكنا فخارت قوانا واستسلمنا، رمانا كطريدتين في صندوق سيارته وعاد بنا فقيدنا، ظهرا لظهر، إلى شجرة الإجاص نفسها. ثم كسر مجموعة من أغصان أشجار البرقوق والتفاح الأخرى، رافعا منزّلا مبلغ التعويض الذي سيطالب به عائلتي السارقيْن الصغيرين، كما سمّاهما، وإلا قدم شكوى ضدهما.

ولا تزال رعشة الرعب تلك تهزني كلما تذكرت أن سيارة ألفونسو باتيست كانت ستدركنا بين حانة سيگورَا والقنطرة التي يمر تحتها الوادي،

لأن الخور كان قد بدأ يدب في ركبتي، ولهاث حاييم خلفي يزيدني خوفا عليه أن يسقط. فلمعت في ذهني فكرة رمي نفسينا في الماء. فأشرت إليه بيدي أن يتبعني وانحرفنا، في لحظة خاطفة، يمينا مائلين بذراعينا، كطائرين، جهة الوادي حيث تزحلقنا في المنحدر وارتمينا في الماء فرحنا مثل قندسين نسبح بالعرض في اتجاه الضفة الأخرى التي إذ بلغناها التفتنا مرتعبين فرأينا ألفونسو باتيست، وكان قد خرج من سيارته وركض في إثرنا، واقفا على الحافة يربرب محركا يده نحونا بتهديد، فولّيناه ظهرينا ضاحكين لنتوارى وسط بستان الزيتون الكثيف.

في طريق عودتنا إلى الدرب، وقد عبَرنا السكة الحديدية، دخلنا في شارع جيريفيلْ الذي كان، كبقية الشوارع الأخرى، يكاد يخلو من الحركة في تلك الظهيرة القائظة؛ إلا سيارة تمر بأزيز محركها وسحسحة عجلاتها على الإسفلت، أو تلك المرأة بقبعتها الاستوائية البيضاء تعبُر، أو ذاك الرجل الواقف على الرصيف الآخر في ظل شجرة دلب يدخن سيجارة.

«كنت سأسقط فيلتقطني مثل أرنب»، قال حاييم.

فضحكت.

«وكنت أعرف أن لسانك خرج مثل جرو.

– صح. ولكن من أين نزلت عليك الفكرة؟».

ردَدت بأني لا أدري؛ فلم أكن خمنتُ سوى في اختصار الطريق.

«من حظنا أن الصيف يجعل الوادي سلسا وإلا كنا غرقنا!»، أضاف حاييم وهو يفصل بقرصات متتالية ثيابه اللاصقة من بطنه حينا ومن فخذيه حينا آخر.

«ما كان لذلك أن يحدث لأن الخوف كان يمنحنا قوة نقطع بها بحرا!»، قلت وأنا أنفض عن شعري بقايا الماء.

فرفع حاييم قبضتيه، تعبيرا عن انتصار، ضاحكا ضحكة فرحٍ رافقتُه فيها.

حتى إذا تجاوزنا دارة الساعة، مارّيْن قرب المزْولة ذات الشكل المكعب، من غير أن تربك خطواتِنا نظرةُ الشرطي المتريِّبة فينا، ظهرت لنا، عن شِمالنا، مدرسة جول فيرّي. فتوقفنا، موليين وجهينا إليها صامتين؛ كما لأصوات كانت، لستة أعوام، تملأها ابتهاجا وأسفا ومكرا.

ثم، يدًا في يد، انعطفنا نحو الدرب، شرق دار البلدية ذات السطح الأردوازي الأسود؛ عن يميننا فندق الشرق في نهاية شارع إيزْلي. وغير بعيد عن داريْ عائلتينا، التجأنا إلى كوخ مهجور بلا سقف في منتهى الدرب حيث جلسنا على حجرتين، تحت حرارة الشمس. وفي انتظار أن تجفّ ملابسنا، استعدنا ما كنا نتآمر به على ماكس باتيست، زميلنا في المدرسة؛ الأمر الذي بسببه شكانا إلى أبيه ألفونسو، مدعيا أننا استهزأنا به مرة في ساحة المدرسة، لأنه بلّل سرواله لما أخرجه المعلم إلى السبورة لحل عملية قسمة عشرية، وأننا ضحكنا منه مرة أخرى، لما استظهر محفوظة الغراب والثعلب ففشل. وقال لأبيه إن المعلم مسْيو سانشيز غالبا مّا تظاهر بأنه لا يرى شيئا ولا يسمع.

«أعرف يا بني. لأنّ السيد سانشيز متعاطف مع الأنديجان* من اليهود والمسلمين»، قال أبو ماكس يومها.

* وصف وضيع أطلقه المحتلون الفرنسيون على سكان الجزائر الأصليين.

فما لبث أن تردد ذلك كصدى، وحين بلغ مسْيو سانشيز خصص درس التربية المدنية لأخلاق النزاهة. وكتب على السبورة ما أمرنا بنقله على الكراريس: «المعلم في المدرسة لا يفرق بين تلاميذه. ولا يحابي بعضهم على بعض على أساس الدين أو العرق».

لكن ما أخفاه ماكس عن أبيه هو أننا ردَدنا إغراءاته إيّانا بما كان يحمله في جيوبه من حلوى وشوكولا لمساعدته على حل واجباته حينا وفي إنجاز تمارينه أحيانا، عند باب المدرسة قبل الدخول وعند الخروج.

يوم زار السيد ألفونسو باتيست مدير المدرسة وطلب منه توضيحا، استُدعي المعلم مسْيو سانشيز، وسئل عن الأمر فنفى بحزم. غير أن السيد ألفونسو باتيست لم يقتنع. وهدد بأنه سيقطع عن المدرسة مساهماته الخيرية إن لم يُتخذ إجراءٌ ردعي في حق التلميذين المذنبين، أرسلان ابن القايد وحاييم ابن اليهودي - لم أعلم إلا لاحقا أن السيد ألفونسو باتيست كان من مناصري الماريشال پيتان - فعرض عليه المدير أن يقابل بيننا وبين ابنه بمكتبه، في الحين، لمعرفة ما حدث. فتراجع، متوعدا بأنه سيسكت هذه المرة على أن يقدم شكوى إلى رئيس البلدية نفسه إن تكرر خدْش شخصِ ابنه.

كنا، نحن العفريتين الصغيرين، نظرا إلى النتائج الضعيفة التي يحصل عليها زميلنا ماكس مقارنة بالنتائج الممتازة التي نحققها، ندرك أنه لا أحد سيتجرأ على معاقبتنا بالفصل أو التحويل أو الإيقاف لمدة محدودة؛ أو حتى على حرماننا من وجبة الغذاء في المطعم المدرسي أو من حصة السينما الشهرية في قاعة المدرسة الكبرى. ولكننا تلقينا، في مقابل ذلك، توبيخا شفويا من المدير أمام معلمنا.

وأنا أقف، لتلك اللحظة، أمام صورة حاييم، استغربت كيف سكنت رأسينا فكرةُ الانتقام بذلك الشكل من أبي زميلنا ماكس. فما كنت أعرفه، شأني شأن حاييم، وكنّا مطمئنين إليه، أن ألفونسو باتيست لن يشكونا مرة أخرى إلى مدير مدرسة جول فيرّي، لأننا ما كنّا سنعود إليها نهائيا، مثل ابنه ماكس لإعادة سنته، بعد أن فزنا في مسابقة الدخول إلى السنة السادسة.

عامذاك، كنا سنبلغ الثانية عشرة. وعامها، كانت الحرب العالمية الثانية ستضع أوزارها بعد سنة.

وإذ توليت عن صورة حاييم لأغادر، وقفت مرة أخرى، أمام المذكرة بين القلم وقارورة الحبر، لحظات لا أستقر على حال، قبل أن أرمي خطوتي في الرواق نحو باب الخروج.

إثر عودتي إلى وهران، وقد أنهيت الفصل الدراسي الأول بدار المعلمين، أمسيت، بدءا من نهاية عطلة الشتاء وحتى عشية عطلة الصيف، بعد تحضير الدروس أو تقويم أعمال طلبتي أو إعداد الفروض والاختبارات وتصحيحها، أتناول العشاء مع زوجتي زليخة في غرفة الأكل. ثم أنعزل في المكتبة لمدة ساعتين بين العاشرة ومنتصف الليل. فأستحضر، على دفتر لولبي كبير، أياما أخرى من تلك التي تركتْ أثرا لها في وجداني، في حياتي وفي علاقاتي؛ على إحساسٍ بمرارة، وبغيظ غالبا، على بداية سرقة تاريخية لِما أثمرته تضحيات سبعة أعوام بالدم سرعان ما تلاها منْع للصحافة غير صحيفتين تابعتين للحكومة وحظْر للأحزاب إلا واحدا أنشئ ليكون هو الحاكم، بعد ثلاثة أعوام فقط من إعلان الاستقلال.

فقد شعرت، كما الآن، أنّي دخلت، منذ ليلتي الأولى، في فترة نقاهة؛ فرحت أعوض عن رضوض الخيبة بما أستعيده من أعوام طفولتي مع حاييم وفي ما تلا تلك الطفولة منذ أن كنا، بحلول الدخول المدرسي المصادف لبداية الخريف، انتقلنا إلى ثانوية مدينة معسكر البعيدة بحوالي ثمانين كيلومترا إلى الشمال على طريق وهران؛ فمدينة سعيدة، بوابة الصحراء كما تسمى، لم يكن متاحًا فيها خلال تلك السنين تعليم إكمالي وثانوي.

وعليه، فأنا لا أشعر اليوم بفخر أو بعزة نفس، لأنّي ابن قايد، إذ أذكر أني ركبت بمفردي، مثل بالغٍ، الحافلةَ من محطة الدرب للمسافرين، جنبا إلى جنب مع حاييم، راضيين عن أننا أفلحنا في عنادنا؛ حتى وأنا أرى جدتي تتحدث مع السائق الذي لم يكن من الأهالي، ووضعت في يده شيئا؛ كان إكرامية طيّبتْ بها خاطره. ولم يفت حاييم أنْ يشاهد والدته تتظاهر بأنها كانت تمر بالصدفة غير بعيد عن الحافلة لما أقلعت. فتشاغل عنها، مثلما تشاغلت عن جدتي، بتفقد محفظته فوق ركبتيه. فحقيبتانا كانتا قد وُضعتا مع بقية الحقائب والأكياس على ظهر الحافلة في حاملة الأمتعة المحكومة بشبكة حبال.

والغريب في الأمر، أنّ السيدين حنيفي، والدي، وبنميمون والد حاييم، لم يعترضا كلاهما على قرارنا الذي كنا اتخذاه أسبوعا من قبل، وكان يقضي بأن لا يتم اصطحابنا في الحافلة مثل طفلين سينهاران بكاء. على أننا إذ وصلنا، على اعتدادنا الظاهري، وجدنا أحد معارف والدي، وهو الذي سيكون مراسلنا، فرافقنا حتى باب الثانوية التي ما إن دخلناها حتى ملأت بصري فخامة بنايتها التي في شكل مستطيل مفتوح من أحد عرضيه، وهي مكونة من طابق أرضي وطابقين علويين. وأدهشني ما بداخلها؛ من الساحة بأشجارها الموزعة عبْرها بتناسق، إلى المرافق المعيّنة بلافتات في أعلى الأبواب: الإدارة، الحراسة العامة، قاعة الأساتذة، قاعات الدروس، المكتبة، المطعم، دورة المياه، المراقد، سكنات المدير ومساعديه.

ومنذ تلك اللحظة، سكنت حاسةَ شمي رائحةٌ مركّبة مما كان يأتي من المطبخ ومن الطلاء الجديد ومن الأشجار ومن مربع الحديقة الصغيرة؛

ولا شكّ أنّها كانت من أنفاس ذاك الخريف أيضا. كانت رائحة لم يسبق لي أن شممتها في أي مكان. وظلت تحيا كلما أثارني منبه إلى ذلك اليوم، كما في هذه اللحظة. فقد استرعى انتباهي، مثلي مثل حاييم، أن حركة التلاميذ المنضبطة المتزنة وأحيانا المتعالية، ممن هم أكبر منا سنا من الأقسام العليا، كانت تنمّ عما ينتظرنا من تقييد. وغشيتني، لا أنكر ذلك، رهبة الموظفين والموظفات، لصرامة نظراتهم وصلابة لغتهم التي كانت بمقدار، طيلة الوقت الذي استغرقته إجراءات التسجيل؛ مرورا بمكاتب القسم التربوي وقسم الغسيل وقسم الداخلية.

ثم ها أنا في الاصطفاف، مثل حاييم وجميع التلاميذ الجدد، لم أحرم نفسي من استراق نظرات إعجاب حينا إلى أستاذات على أناقة جذّابة؛ ونظرات تهيّبٍ حينا آخر من أساتذة لا يقلون أناقة، وهم يخرجون تباعا من قاعتهم. ومن غير هؤلاء وأولئك جميعا، ظهر من باب الحراسة العامة مَن تقدم نحو صفنا، نحن الجدد، بخطوات متأنية ثقيلة ومستقيمة، رافعا رأسه بكبرياء، مرسلا إلينا نظرات لا تنزل إلى ما تحت عيوننا تُعلن أننا سنكون تحت سلطته. وذلك ما تجاذبته مع حاييم همسا بمرقد تلاميذ الطور الإكمالي جنب بعضنا بعد انطفاء الأنوار في العاشرة ليلا.

توقعتُ، لِما كان يرسمه لي خيالي عن نظام داخلي في ثانوية، أن أحظى بشيء من سراح جدتي لي ومن أمي نفسها، إلا والدي؛ فهو، لقسوته الظاهرية، كان لا يختلف عن بعض الأرباب من الكولون. لكن ما وقع هو أني منذ ليلتي الأولى وجدت نفسي، مثل حاييم وبقية التلاميذ، خاضعا لصرامة النظام الداخلي الذي يحدد النوم

والاستيقاظ والغسل والإفطار والغداء والعشاء بميقات إلزامي. فلا لباس في الصف الدراسي أو في المرقد ولا استعمال للمناشف والمناديل إلا ما هو مقرر في الجهاز الذي حملته معي في حقيبتي يوم ركبت مع حاييم الحافلة أول مرة.

وما إن انقضت فترة التكيف تلك حتى وجدتني أشعر أني أتعرض، أكثر من غيري من التلاميذ، لمراقبة الحارس مسْيو ويلْ لومْباردو الدائمة؛ فقد راح، لأمر أجهله، يتحيّن لي أي إخلال بالنظام الداخلي، لتعريضي لعقاب؛ ولم يحدث ذلك مني إلا غداة رفضي تناول عشائي مع بقية التلاميذ. فقدّمني، مثل مقبوض عليه أمام قاضي تحقيق، إلى مدير الثانوية - حين أسترجع وجه ذلك المدير الجذاب أتذكّر وصية والدي عشية سفري إلى ثانوية معسكر: «في الفرنسيس رجال أحرار وعادلون. لا تنس هذا!».

وكان المدير لما سألني السبب فأجبت بثقة، أغاظت مسْيو ويلْ الواقف بجنبي شابكا يديه إلى الخلف مثلي، أني أفضّل أن أتناول وجبتي الغداء والعشاء مع حاييم بنميمون، لمعت في عينيه الزرقاوين أمارة تعجب. وارتسمت على شفتيه الرقيقتين ابتسامة عابرة، خففت عني خوفي؛ فقد كنت أمام سلطة فرنسية لها الحق علي في معاقبتي بالتوقيف أو الطرد. ثم سألني لماذا؟ ولا شك أن غلالة اكفهرار كانت قد انتشرت على وجه مسْيو ويلْ، وهو ينطق عبارة «هاهْ، لاراب!*» بصوت خفيض، لمّا أجبت أن عائلتي مثل عائلة حاييم لا تأكلان من تلك اللحوم. ولكن لماذا كنت سأشعر بالغثيان لو أن المدير طلب

* العربي.

منّي أن أخصص له بعض تلك اللحوم بأسمائها، كما كنت أراها أحيانا في دكاكين الجزارين غير المسلمين واليهود مسلوخة ملعلقة من قوائمها في معاقف أو مقطعة على طاولة العرض، ولم يتوجه، بدل ذلك، إلى مسْيو ويلْ فيأمره!

«إنهم ستة، إذاً. خصصوا لهم طاولة!».

تلك الحادثة، إن جاز لي أن أعتبرها كذلك، كانت أولى مواجهة لي مع مسْيو ويلْ، في بداية سنتي الأولى، حول طبيعة اللحوم التي أحجمت عن تناولها، حتى لا أقول أضربت عنها.

كم وقتا مرّ علي؟ لا بد أنه كان أسابيع، قبل أن أتغلب على ارتباكي؛ لطبيعةِ المواد الجديدة، غير تلك التي كنا نتلقاها في المدرسة الابتدائية؛ إضافة إلى تعدد الأساتذة الذي بقدر ما بَهرني، لأنّهم لم يكونوا كالمعلمين في هيئتهم وهيبتهم، أدخلَ إلى نفسي شيئا من ذلك الارتباك؛ ولأن بعضهم -أدركت ذلك لاحقا- كان لا ينظر إلى التلاميذ الأهالي، على قلتهم في الفصل الدراسي، النظرة نفسَها إلى غيرهم. فحاييم ذاته، في ملامحه وفي هيئته وحتى في لكنته، برغم فرنسيته المتقنة، لم يكن هو أيضا مثلي مستثنًى. فأنا وإياه كنا من مدينة موغلة في الجنوب نحو الصحراء؛ وكان ذلك يعني لهم أننا نأتي من قفر الدنيا. وفي المرقد، تجاذبت مع حاييم ذلك كله. وانتهينا أخيرا إلى أنه في وسعنا، برغم كل شيء، أن نكون أفضل مما كنّاه في مدرسة جول فيرّي.

في ثانوية فرنسية يدخلها واحد من الأهالي، مثلي، تحاصرك، وأنت في سن المراهقة، متطلبات يبدو لك، لأول وهلة، أنّه لا قبل لك بها. ثم ها أنت بعد وقت تكْسر حصارها شيئا فشيئا؛ لأنك،

مع كل مادة، وفي كل درس تكتشف أن لك استعدادات، تعدل أو تفوق تلك التي يُظهرها زملاؤك من غير الأهالي، وأنّ لك إرادةً على إبدائها، بشعورٍ بالغربة يدفعك إلى التعويض الإيجابي؛ غربة غالبا مّا كان لها في نفسي طعم شهي من التحدي.

لعله هو ذاك الشعور الذي أدخلني، كما حاييم، في تنافسٍ، كلُّ شيء فيه كان شديدا، مع ثلاثة وعشرين زميلا لنا من الأوروبيين والأقدام السوداء*، الذين كانوا في غالبيتهم، خاصة المحظيين منهم بالنظام الخارجي، ينظرون إلينا، أنا وحاييم، نظرة أهل المدينة إلى الريفيين. وكانوا، لاسْمَيْنا، قد رتبونا بقوة أحكامهم المسبقة، ضمن خانة الأنديجان -تلك كانت نظرة الأقدام السوداء والأوروبيين جميعا إلى غيرهم من الأهالي في البلد كله- فدليلهم، بالنسبة إلى حاييم بنميمون، أنه لا يزال يستعمل اسما كان يجب على عائلته أن تغيره باسم أوروبي، كما فعلت ذلك عائلات من اليهود المستفيدين من قانون التجنيس. أما اسمٌ مثل أرسلان حنيفي فيحمل في أصوات حروفه دلالته على صفته الاجتماعية.

كحلزونين لاصقين بغرائنا في دفاترنا، تارة، ومثل عثتين في ظلمة كتبنا طورا، وأخرى كفارسين لا نسقط في استجواب فجائي، مازح أحدنا الآخر راضيين. وتساءلت أمام حاييم، مرة في تلك الأيام التي تسبق الاختبارات، ونحن بالمرقد في غمرة المراجعات، عما حدث ليرتفع نسق أدائنا بتلك الدرجة مع تسارع وتيرة الدروس بحجم

* يُقصد بالأولين الفرنسيون. وبالثانيين باقي الذين دخلوا أرض الجزائر خلال الاحتلال؛ خاصة ذوي الأصول المالطية والإيطالية والإسبانية، لأنهم كانوا يلبسون جزمات سوداء.

ساعاتها المكثف وموضوعاتها الصعبة والمعقدة. فأسرّ لي بأنه ليس لديه متسع من الوقت ليهدره في الهذر لأن الأنوار ستطفأ بعد حين. ثم ابتسم، ونظر إلي، واضعا محددا من ريشة حمام بين صفحتين من كتاب العلوم الطبيعية بين يديه.

«لأننا لا نحب أن نعود إلى أهلنا منكسين رأسينا!».

كان ذاك هو إحساسي. غير أن بديهتي لم تحضر لأعبر عنه كما فعل حاييم. وبنهاية سنتنا الأولى، وقد سبقتْ ذلك نتائجُ الفروض الفجائية والاختبارات الفصلية، كنا من الأوائل في الترتيب. فكان طبيعيا أن تثور غيرة زملائنا، خاصة أنطوان لونورموند الذي رفع صوته، ونحن أمام سبورة التنشير نقرأ أسماء المهنّئين الذين كنا منهم.

«الأنديجان لا همّ لهم غير الدروس ينكبّون عليها، كما الجياع على طعام. وبمجرد أن يشبعوا شبعتهم الأولى سينامون».

ولكن أنْ تُدهش نتائجنا أساتذتَنا أنفسهم فأمر لم نكن ننتظره أنا وحاييم – الآن يقابلني في مكتبتي كتاب حكايات لافونتانْ وقصصه الذي أهدتني إياه أستاذة اللغة الفرنسية ماري تريتان الجميلة التي كنت مفتونا بها فتنة المراهق بنموذج يعبده لأنها كانت تنوّه بموضوعات إنشائي الحرة منها خاصة إذ تجدها مبنية على حكاية من غير أن تعرف أنها مستوحاة غالبا مما ترويه لي جدتي أو تدرك أني أستعير أوصافي من سحر وجهها وحسن قوامها وتناغم هذا وذاك بألبستها الأنيقة في الفصول الثلاثة أو أن تنتبه أخيرا إلى تنهيدتي الحارقة عندما أعادت لنا أوراقنا ذات مرة ثم ابتسمت مثل زهرة وأعلمتنا أن الحرب العالمية الثانية وضعت أوزارها فتخيلتُ فرحتها يبعثها فيها أن خطيبها سيعود إليها من الجبهة سالما ولكنها لم تخبرنا أبدا

أن فصول أعمال عنف دامية كانت تجري في اليوم نفسه بين الأهالي من جهة وقوات الأمن والأقدام السوداء والأوربيين من جهة ثانية في مدينة سطيف مطالَبة بالحرية.

«يبدو أننا سنزداد شراهة ونهما»، كذلك تلطّف لي حاييم في السنة التالية.

فردَدت أننا سنكون مثل نملة لافونتانْ. وضحكنا، مثل كل مرة يكون فيها مزاجنا رائقا. وصرنا، للسنتين الثانية والثالثة، على التوالي، إضافة إلى قضاء وقت فراغنا خلال تلك العطل القصيرة في المراجعات وحل التمارين، لا نعود إلى مدينتنا في بداية العطلة الصيفية، إلا محملين بدفاترنا وبكتب علمية وأدبية استباقا للسنة اللاحقة. وبكتب أخرى من سلسلة المغامرات نشتريها من مكتبة گارْصونْ، الواقعة في ساحة گمْبيطة بقلب مدينة معسكر.

مثل حاييم، كنت لا أشعر غالبا بالزمن يمر إلا حينما تُعلق، على سبورة التنشير، روزنامة عطلة الشتاء أو الربيع أو الصيف. فحلول تلك العطل كان يقْلب مزاجي وحواسي كلها إلى مدينتي، إلى جدتي ووالدتي ومزرعتنا. ويا لها من عودات كنت أجدها ترميني، لأيام، إلى فراغ ناعم لذيذ!

أذكر، قبل أن ألتحق بزليخة في السرير بعد ساعة -إنها الحادية عشرة ليلا كما تشير إليه الآن بندولة الحائط- أني قضيت أيام عطلتي الصيفية الثالثة بين جزيرة الكنز ومتمردي السفينة بونتي والبؤساء وقصة مدينتين وبين مزرعتنا في فترة الحصاد. فلم يكد يخلو لي وقت آخر في المدينة إلا تلك اللحظات التي قضيتها مع جدتي في الحوش غالبا أستمع إليها

تروي لي قصص الجن والغيلان والأرواح والسحرة، كاشفة عن ساقها تدير عليها مغزل الصوف، أو تحمص القهوة وتدقها في المهراس المعدني، أو تحضر لي أكْلة الرُّقَاق.

حتى إذا رجعت إلى الثانوية، مع حاييم، كما في نهايات عطلنا السابقة، شعرت أني أعود إلى مكان مألوف أعرف زواياه ورائحته وألوانه. وسرعان ما انضبطتُ على إيقاع حركته. وكنت، في تلك السنة الرابعة، اعتقدت أني تخلصت، ولو جزئيا، من عين مسْيو ويلْ عليّ؛ فيما كانت وتيرة الدروس قد ازدادت ارتفاعا وكثافة تحضيرا لنهاية الطور الإكمالي.

غير أن مسْيو ويلْ فاجأني مرة بأنْ ناداني من بين تلاميذ الداخلية، قبل ولوجنا قاعة المذاكرة المحروسة. فوقفت أمامه على ما يوجبه الاحترام، وقد شبكت يدي إلى الخلف. ولشعورٍ بطاقة داخلية استثنائية، وجدتني، أنا المراهق، حزمت أمري على أن لا يصدر مني تعبير يَظهر عليّ يوحي إلى مسْيو ويلْ أني على حالِ خوفٍ حدًّ أن أدكّ رأسي بين كتفي أو أنكس ذقني أو أشيح بعيني؛ وكنت، في مقابل ذلك، لا أبغي أن أُظهر أي صلف. فمسْيو ويلْ لم يكن، في تعامله معي على الأقل، شخصا عاديا؛ حتى لا أقول غير سوي. ذلك ما كنت اكتشفته في تلك السنة.

مثل حارس سجن يستعرض هيبته على محبوس جديد، نظر إليّ مسْيو ويلْ نظرة صارمة انقبضت لها عضلات وجهه. ومسّحني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، بعينين لا هما زرقاوان ولا هما خضراوان - بعد أعوام كنت قلت لحاييم عنهما خلال غدائنا في

مطعم فندق الشرق إننا كنا نراهما كذلك ولا نستطيع أن نجد لهما وصفا فردّ مبتسما أنه يمكننا أن نعتبرهما خلاصة التهجين الناجح!

توقعتُ من مسْيو ويلْ أن يمطرني بزخة من نصائحه التربوية التي لا تخلو من تهديد، لا أن يُصدر من أنفه هنْهنة.

«من تظن نفسك!»، قال رافعا ذقنه كأنّه يستعدّ لنطحي.

أكنتُ أثرت حنقه إلى تلك الدرجة أني قابلته من غير ارتباك؟ ولم يكن مر بذهني أن ورائي قوة والد تستطيع أن تردع حارسا مثله عن تجاسره علي باعتباري واحدا من التلاميذ غير الأوروبيين. والدي، كما يعلم حاييم، كان يستطيع أن يتدخل شخصيا لدى مدير الثانوية نفسه لأي طارئ. ولكنه كان يحدس أن ذلك لن يعجبني، بل يحرجني. وأنا أدرك من جانبي أنه يثق بي في مواجهة مترتِّبات دراستي بمفردي - أشعر الآن أن طيف والدي خرق علي عزلتي ثم ها هو يختفي.

على بعد المسافة الزمنية، أستطيع اليوم أن أزعم أن مسْيو ويلْ ارتبك، لرؤيتي على تلك الحال من الثقة. فلا بد أنه فكر كيف سيتصرف معي لو أني، أنا لاراب الذي يصطف خلفي أربعة وعشرون تلميذا، تجرأت عليه بما يضحكهم. أو نطقت بما يمكن أن يدفعه إلى التصرف معي بما يعرّضه إلى عاقبة غير محمودة؛ لأنه يعرف أن مدير الثانوية نفسه يعلم سلوكي ونتائجي.

ومهما يكن من أمر، فإن مسْيو ويلْ كان يعرف، بينه وبين نفسه أيضا، أن التحاق أرابْ مثلي، يواجهه بلا تهيّب، وهذا بلا شك ما أقرّ به لنفسه، لا يكون إلا استثنائيا؛ إما لجاه كبير تتمتع به أسرتي ولمالها بالتأكيد! وإما لقربها من الإدارة الفرنسية لخدماتها التي لا تزال تقدمها لها. فوالدي، بصفة القايد التي يتمتع بها، كان بين هذا وذاك.

أما أن أكون التحقت، أنا لاراب، بالثانوية، باعتباري مجرد أنديجان، فأمْر لا بد أنّ مسْيو ويلْ استبعده! فهو نفسه في تعليمه الابتدائي، كما كان وصلنا عنه، نحن بعضَ التلاميذ، عرف أطفالا من الأهالي متفوقين عليه، من السنة الأولى حتى السادسة، لم يستطيعوا، لفقرهم وبقائهم أنديجان، الالتحاق بالتعليم الإكمالي والثانوي، مكتفين بالشهادة الابتدائية ليدخلوا مراكز تكوين الحرفيين في البناء والطلاء والنجارة – إني أتذكر زليخة تتوقف عند حد ذلك المستوى.

«اسمك ولقبك كاملان!»، قال بأمر عسكري.

نطقتهما له.

«أعِدْ!».

أعدتُ. وقبل أن يصرفني لأعود إلى الصف رماني بنظرة منذرة بتأديب؛ لا لشيء، فإنه سبق لمسْيو ويلْ أن نطق اسميّ بتدويره حرف الراء بدل نطقه حرف غين كما يفعله هجين الأقدام السوداء، إلا لأنه، كما أدركت، أراد أن يلفت أنظار بقية التلاميذ إلى أن زميلهم لاراب ليس دخيلا عليهم فحسْب، ولكن لأنه أيضا ما كان له أن يكون بينهم في هذه الثانوية، وهو لا يستطيع أن ينطق أصوات حروف اسمه كما تقتضيه اللغة الفرنسية.

ولأن مسْيو ويلْ نفسه من الأقدام السوداء، كان يستطيع نطق كلمة حنيفي، من غير أن يتحول حرف الحاء على لسانه إلى حرف هاء أو خاء. وكان ذلك هو النطق السائد عند الأوروبيين لحرف الحاء؛ إلا اليهود؛ فإن عائلة بنميمون التي نزحت من مدينة الأغواط بعد احتلالها في بداية المنتصف الثاني من القرن الماضي، كما حدّثني حاييم عنها ذات مرة، كان

لسان أفرادها مستقيما وسليما في نطقهم الأصوات العربية، مثلهم مثل بقية اليهود الأهالي في جهات ومدن أخرى.

كنا، بعد خروجنا، ونحن في الساحة متوجهون نحو المراقد، نتحدث عن تصرف مسْيو ويلْ لما قرّب حاييم فمه من أذني، هامسا لي.

«ونطقتَ له اسمك كما هو!

– كما تناديني به جدتي أو أمك!»، قلت بغبطة التشفّي.

وأضفت أنه لا ريب في أنّ ذلك هو الذي أغاظ مسْيو ويلْ، لأنه كشّر في وجهي. ولم ينطق ما كان بلا شك حبَسه في صدره.

لكن حاييم عاود مهامستي، بمكر.

«حرمتَ المسكين من كلمة أنديجان التي يتلذذ بنطقها!».

ذات يوم، لأننا كنا انغمسنا لأسبوع خلال أوقات فراغنا أيضا في مراجعات للمواد كلها درسا درسًا من التاريخ والجغرافيا إلى النحو والصرف فالفيزياء والرياضيات والعلوم تأهبًا لامتحان آخر السنة، ونحن واقفون في الساحة انتظارًا لدقة جرس الالتحاق بقاعة المذاكرة المحروسة، أحسست بشيء مثل حشرة طائرة دخلت أذني فارتعشتُ هاشا بيدي لطردها فإذا هي تعاود أذني الأخرى فالتفت؛ فإذا حاييم يضحك، وقد عاد من دورة المياه وبين أصابع يده ريشة حَمام يتخذها محددا للكتب التي يقرأها.

«أجزم أنك تبدو من الخلف مثل جندي على استعداد للتوجه إلى الجبهة.

– أي جبهة يا ملعون! وقد أُلقيت القنبلة الذرية وانتهت كل حرب!

– حربنا! يا من يتظاهر بأنه لا يدري وهو بطل كل الحروب في هذه الثانوية!».

كان خيالنا، أنا وحاييم، يأخذنا أحيانا إلى ما هو أبعد من حدود مراهقتنا. ضحكنا. ورحنا، بتوطؤ، لأننا نظرنا إلى بعضنا كما لو أنه إيعاز بالبدء، نتسارق نظرات إلى زملائنا الداخليين من حولنا. فأخذنا هذا بغيْبة في ما يلبسه مثل ساعي بريد، وذاك كيف يغسل كقطة، وآخر كيف يمشط مثل صبية، وغيره كيف يتلوّع كرضيع تحت المرشّات في يوم الحمّام الإجباري إنْ نقص تدفق الماء الساخن، وخامس كيف يمشي كبطة، وسادس كيف يتشمم كخنّوص، حين يغضب. وأخير كيف يبحث، في قلق فأرة، عن بقية أدواته. ولم يسْلم من لساننا بعضُ أساتذتنا الجدد؛ أولئك الذين يدخلون قاعة الدرس ويغادرونها ظرفاء لطيفين كجنتلمانات الروايات، ومن يقفون ويتكلمون بصرامة ضباط هتلر، ومن يظاهرون اكفهرارا كحراس السجون.

وصادف أنّ جرس وقت المذاكرة المحروسة كان قد دق لما مر رئيس المطبخ في طاقيته ولباسه الأبيضين. فهمزني حاييم بمرفقه، قائلا:

«انظر! يشبه تمثال مدرسة جول فيرّي!»، وقد وضع راحته على فمه ليكتم ضحكته.

«ولكني لا أراه عاريا!»، قلت وأنا لا أسيطر على قهقهة حجبتها بمحفظتي.

فحصة المذاكرة المحروسة المسائية وحدها ظلت تُطْبق على الجو صمتا كليا؛ لا تُوجبه قدسيتُها فحسْب ولكن تفرضه، بقوة قاهرة، شخصية مسْيو وِيلْ، المشهور باسمه الشخصي بدل لقبه العائلي – اسم أوّلَه لي حاييم بخبث إلى وَيل لمعرفته اللهجة العربية لأن أمه زَهيرة كانت لا تكاد تتكلم غيرها عكس والده موشي الذي علّمه العبرية وبها صار يقرأ التلمود والتوراة مثلما تعلمت أنا العربية

في الكُتّاب منذ أن بلغت الرابعة وبها حفظت سورا قصيرة من القرآن إلى سن السادسة.

كبقية التلاميذ الداخليين جميعا، كنت أجد مسْيو ويلْ ويلا حقيقيا. يكاد، كرقيب عتيد، لا تعزب عنه همسة من همساتنا عن رسالة تلقاها أحدنا من عائلته، أو عن موضة رائجة، أو كتاب مغامرات أو فيلم جديدين سمعنا عنهما، أو عن تندر، خلسة، على زميل لنا في القاعة. وبرغم توجُّسنا الخيفةَ من مسْيو ويلْ، كان، في أي حصة يحرس خلالها، لا ينجو، إلا نادرا، من لساننا السليطين. فشبهناه ببعض الحيوانات حينا؛ فهمست لحاييم: «أتخيله مثل خنزير داجن.» فرد: «بل عظاية بيضاء!»، وأحيانا أخرى بشخصيات شريرة قرأنا عنها في مطالعاتنا الأدبية. قلت: «يشبه تيناردييه الجشع». فاستدرك: «بل بيلي بونز المتهتك»، حتى إذا تنبّه لنا، كما كان في آخر مرة، زجرَنا بصوت مرتفع.

«كُفا أيها العفريتان الأسودان!».

فسَرت على شفاه التلاميذ بسمات خبيثة، رقيقة وخاطفة، وقد عم الصمت وانغرست العيون في الكتب أو الكراريس؛ فلم يحرِّك، لدقائق، أي رأس في أي اتجاه؛ خشية مقاطعة نظرات مسْيو ويلْ الجالس على كرسي خلف مكتب صغير فوق المصطبة مثل إمبراطور، كما تفكهت به لحاييم، حاملا بين يديه كتابا مغلفا يغرق فيه. وبين حين وآخر يرفع رأسه فيمشط القاعة بتينك العينين الدوارتين القاسيتين، أو يقوم فينبه هذا إلى أمر ما. أو يطلب إلى ذاك أن يريه ما أنجزه.

وفي تلك المرة، وقد عاد الإمبراطور ويلْ إلى كرسيه فغرق للحظات طويلة في ما يقرأه ثم رفع رأسه ناظرا إلى خارج القاعة عبر

النافذة المطلة على السور المظلم، وعلى وجهه آثار انفعال ينقبض لها وينبسط، همست لحاييم:

«بم تشبهه الآن؟

– سجين مونت كريستو يرنو إلى البحر الهائج؟»، أجاب.

«لا يمكن. إنه يشبه تمثال مدرستنا!»، قلت معترضا.

فذكّرني:

«ولكنْ قبل أن يخلع ملابسه، ويدخل في حال خشوع أبدية!».

فهمست له يا خبيث، كاتمين كهكهتنا – قبل سنتين كما أذكر في هذه الليلة كنت إذ دخلت مدرسة جول فيرّي لأتفقد حاجاتها من الحطب للشتاء القادم من السنة الدراسية الثانية بعد الاستقلال وجدت ذلك التمثال الأبيض قد فُكك من قاعدته الدائرية الشكل التي كان منصوبا عليها في مدخل ساحة المدرسة يجسد رجلا يرفع يديه ووجهه إلى السماء في اتجاه الجنوب ثانيا ركبتيه إلى الخلف كأنّه في صلاة كاشفا عن جهازه التناسلي تماما باديا كذلك لمن يمر في الشارع على الرصيف المترب أو لمن يطل من إحدى نوافذ فندق رِيو الكبير المقابل غير بعيد عن دارة الساعة إلى الغرب بين شارعي گمْبيطة وشارْييه إذ تتعرى على رصيفيْ هذا الأخير الأشجارُ النفضية في فصل الخريف.

فاتحيْن أمامنا نسختين من رواية نداء الغابة، أخذت القلم وكتبت على كراسي شيئا ثم أدرته، في حذر، نحو حاييم. فقرأ «لا أعتقد أن في دينك كما في ديني عريا بهذا الذي كان عليه تمثال مدرستنا!» تبسم. ثم كتب بدوره على كراسه وأداره، بالحذر نفسه، إلي فقرأت «لذلك يصفوننا

بأهل الحرام! العري حرام. والخنزير حرام. وأكل اللحم من غير ذبح حرام!» وبالحركتين نفسيهما مني «هل تتخيل ما يقرأه الإمبراطور؟» ومنه «فصل فوز الأمير بحبيبته!».

كم ظل يغريني، مثل حاييم، من مسْيو ويلْ، أن أعرف سر ما يطالعه! فغالبا ما تهامسنا بما كنا نتخيله يغرقه في تلك اللذة التي تطفو آثارها على وجهه أحيانا وعبّرنا عنه بإيماءات غير مرة فانتبه إلينا في إحداها؛ وكان ليؤدب حاييم، ولم أدر لماذا تجنبني، استبقاه بعد الخروج ربع ساعة في قاعة المذاكرة المحروسة، من غير أن يذكر له سببا – كان حاييم سيخبرني أن مسْيو ويلْ حذّره في البداية من أن يسمعه مرة أخرى يتحدث معي باللهجة العربية في أي مكان من الثانوية لأننا كنا نتلكم بها أحيانا على انفراد في الساحة أو في المرقد كأي مراهقين من أبناء الأهالي أو حينما نتناول الغداء يوم الأحد في بيت مراسلنا السيد بنْيطّو تاجر الصوف والأغطية في مدينة معسكر وحينما نخرج إلى المدينة للتنزه أو ندخل السينما قبل أن نعود إلى الداخلية في المساء.

ثم طلب منه ألاّ يجيبه عن أي سؤال يلقيه عليه إلا بالفرنسية من غير أخطاء. ففعل حاييم كل مرة من غير هفوة، محوّلا لسانه فرنسيا بلا لكنة، كما أعرفه حتى قبل أن يعيد علي ذلك في المرقد. فاستغرب له مسْيو ويلْ، على دهشة أخفاها بصعوبة.

«ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي! أنت حاييم بنميمون مواطن فرنسي أعلى من أرسلان حنيفي درجة! فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك!».

وانتظر من حاييم نفيا أو وعدا غير أنّه ردّ عليه، ببداهة:

«لا أشعر أني فرنسي. وأرسلان مثل أخي».

خلال غياب مسْيو ويلْ لمدة أسبوع، في أواخر سنتنا تلك، طلبنا، أنا وحاييم، مرة من الحارس الذي خلَفه -وكان لطيفا من طلبة الثالثة ثانوياً ينشغل بمراجعاته أكثر من انشغاله بالانضباط شبه العسكري المفروض علينا نحن تلاميذ الداخلية من الطور الإكمالي خاصة- أن يسمح لنا بالخروج لقضاء حاجة اضطراريا؛ وقد تعللت له بمغص يجبرني على التقيؤ. بينما افتعل حاييم أنه مصاب بإسهال، كما اتفقنا على ذلك، لنأخذ وقتا كافيا من أجل دخول مكتب مسْيو ويلْ في مهمة واحدة -تخيلتني هولمز وحاييم مساعدي واتسون- أن نعرف طبيعة الكتب التي يطالعها مسْيو ويلْ.

حدث أنه ما إن أطفئت أنوار المرقد حتى سرت بين التلاميذ حكاية القصص الغرامية الغريبة التي يطالعها الإمبراطور ويلْ في تلك الأوقات؛ خاصة رواية جوستين التي كانت آخر ما حمله إلى قاعة المذاكرة المحروسة في غلافها الوردي.

غير أن امتحان شهادة التعليم للدرجة الثانية من الطور الأول*، المتوِّجة لسنوات التعليم الإكمالي، سرعان ما زَحزح فكَّ لغزِ الإمپراطور مع كتبه إلى أرذل اهتمامنا. فقد خضت، مثل حاييم، المواد واحدةً واحدة، بثقة خالصة من أي ارتباك أصاب كثيرا من زملائنا الذين أذهلتهم أسئلة الرياضيات فأغمي على أحدهم. وتقيأ ثان. وحرن ثالث.

* المعروفة اختصارا بالـBEPC

في الأسبوع الذي تلا الامتحان، تأكدنا، أنا وحاييم، بناء على تصحيحات الأساتذة التي أجرَوها داخل القسم الدراسي في مواد الرياضيات والعلوم واللغة، من أننا سننال الشهادة بتفوق. وبعد أسبوع آخر، من حلول العطلة الصيفية، كنا قد عدنا إلى مدينتنا عودة ألهمتنا بتصور أنواع التراخي والكسل والانفكاك كلها. فقضينا، مطمئنين، أسبوعا في الأكل التقليدي والنوم، قبل أن تنشر صحيفة «صدى سعيدة» الأسبوعية*، التي تصدر كل خميس، اسمينا من بين المتفوقين بامتياز.

كان ذلك مدهشا لنا! فقد قرأنا اسمينا، لأول مرة، في صحيفة اشترينا نسخة منها من كشك ساحة ريموند پوانْكاري. وتناوبنا على تصفحها أكثر من مرة، متوقفين عند المساحة المؤطرة في صفحتها الأخيرة. وتبادلنا نظرات الإعجاب إلى بعضنا. ثم اشترينا نسخة ثانية من مقر صاحبها فاڤْييه في شارع گمْبيطة. وبهما، كهديتين ثمينتين، عدنا إلى عائلتينا.

يومئذ، تغدّى حاييم معي في بيت جدتي ربيعة. وكان الغداء طبقيْن من دجاج محمّر ببطاطا مقلية وكسكس بالزبيب والرايب حضّرتهما بيديها خصيصا لنا بالمناسبة. وتعشيت مع حاييم في بيتهم عشاء من طبق زيتون بلحم الأرنب حضّرته أمه زَهيرة.

ولأول مرة دخلنا سينما ڤوكس، في شارع فيكتور هوگو، للحصة الليلية التي تبدأ في التاسعة، لمشاهدة تارزان الذي وجدناه خالبا، قبل كل شيء، برشاقته وسكينه وصرخته؛ وكأننا اكتشفنا أننا لم نعد المراهقين اللذين كنّاهما قبل يوم فقط من ظهور نتائج الامتحان.

* L'Echo de Saida

«أخيرا، كسبنا ثقة عائلتينا!»، قلت لحاييم ببهو قاعة السينما نحو باب الخروج.

فدفعني بكتفه لكتفي، غامزا:

«وغدا سنصبح رجلين!».

بعد أيام، إذ التقينا كما العادة في الزنقة صباحا، أخبرنا بعضنا بوجهة سفر كل منا، على رعشة. ثم افترقنا من غير أن يصدر عن أي منا تجاه الآخر تعبير عن أي تمنيات. فقد ذهب حاييم جنوبا إلى مدينة جيريفيلْ* مع أمه في الحافلة لزيارة أقارب لها. فيما توجهت، شرقا، رفقة والدي في سيارته، إلى مزرعتنا.

* مدينة البيّض، حاليا.

صباح بداية خريف لها، لنزول المطر ليلا، رائحةُ التراب والروث أيضا والبول والعطن المنبعثةُ من إسطبلات المدينة ومرابضها وزرائبها، كنا، أنا وحاييم، ركبنا من محطة الدرب حافلة من نوع شوصونْ، عائدين إلى الثانوية، وسط مسافرين غالبيتهم من الأوربيين والأقدام السوداء الذين لم يكن بينهم امرأة واحدة أو أطفال.

لهندامي الخريفي العصري، مثلما هو الذوق في نهاية الأربعينيات: كنزة من الكتان سوداء دون أكمام ذات ياقة بشكل v تحتها قميص أبيض وسروال رمادي من الفْلانيل وحذاء جلدي بني ذي سيور، بدوت بينهم، كما كنت أشعر، ليس متميزا فحسْب ولكنْ معتدّا بأني أحسن حالا حتى ممن هم في بدلات كلاسيكية بربطات العنق التي تفرض ارتداءها مهنةُ التعليم أو الوظيفة الإدارية؛ إذ أذكر هذا فلأني لم أشاهد معلما أو أستاذا ولا مسئولا في مكتب لا يحملها.

ولم يكن حاييم مختلفا عني في اللباس إلا بالألوان تقريبا. ذلك لأنه بقدر ما لازمتنا رغبة، لدواعٍ لم يُثرها يوما أحدنا للآخر، في أن تكون ملابسنا متقاربة في النوع، لِما يتطلبه ذوق فصول السنة ويفرضه جوها، تجنّبنا، من غير أن يخبر أحدنا الآخر، أن نخرج أو نسافر بالألوان نفسها.

عجباً لنا في ذلك العمر!

حاييم، برغم ما يظهر عليه من تحفظ، لدى من لم يعرفه عن قرب كما عرفته، اختزن، مثل كنز، روحا ظريفة ومليحة. فقد ظل سبّاقا إلى إثارة ما يُدخل عليَّ سرورا. في ذلك اليوم، وقد أخذنا مكانينا في نصف الصف الثاني إلى يمين السائق، لكزني بمرفقه ليلفت انتباهي إلى مسافريْن من الأهالي الموسرين قعدا في الأمام إلى شِمالنا في الصف الأول بعمامتيهما وبرنوسيهما وحذاءيهما الجلديين من النوع المشرّط، وهمس:

«كأنهما من الأغوات!».

ولم يقل من القِياد، لأن ذلك كان سيسبب له معي حرجا؛ على علمه أني لا أفاخر بأنّ والدي، السيد المنوّر، من القياد.

«وإلا ما كانا صعدا إلى هذه الحافلة!»، قلت في أذنه.

وقد سبق أن شاهدت أحد الأهالي في شُباك المحطة رُفض له أن يقتطع تذكرة سفر لأن هندامه رث. كما رأى حاييم آخر، إذ نبهني، رُد من باب الحافلة في أوّل نقطة توقفٍ لأنه كان يحمل متاعا مصرورا وقفّة فيها دجاجتان.

وعلى غير عادتنا في تلك الرحلة، لم يُخرج أحدنا كتابا ليقرأه. بدل ذلك، ومثل الركاب المنشغلين بأحاديث تنقطع وتعود عن العمل والبطالة والفلاحة والجفاف وعن الضرائب المرتفعة وعن حملة قطف العنب وتجديد مخزون معاصر أنواع النبيذ الأحمر والأبيض والزهري وعن آخِر فيلم گريتا گاربو وعن موسم الصيد الذي يبشر بوفرة غير مسبوقة من الحجل والخنزير البري وعن تنفيذ حكم إعدام بالمقصلة في حق أحد صعاليك الشرف من منطقة معسكر، تبادلنا

أحاديث عما عاشه كل منا أثناء العطلة التي قال لي حاييم عنها إنه وجدها طويلة على غير العادة. وأخبرني أنه كتب لي رسالة، ضاعت منه لا يدري أين، وصف لي فيها أوقات فراغه وسأمه خلال القيلولات التي تتمطط لساعات قبل حلول وقت قهوة العشية مع هبوب نسمات الشمال المحملة بشذى الشيح. ثم أخرج من محفظته ظرفا أراني إياه عليه اسمي بالعنوان في الدرب.

«هذه كنت سأرسلها لو لم تقرر أمي تقليص مدة إقامتنا هناك»، قال. وسحب ما بداخل الظرف.

«تحب أن تسمع ما خربشْته لك؟

– حاييم يخربش؟ أنت تتواضع! كنت ولا تزال في الإنشاء أقدر مني على الوصف.

– أقبل إطراءك هذه المرة، فحسْب»، رد مبتسما.

وبصوت رخيم ونبرة موقَّعة، كأني أسمعه الآن في عمق هذا الليل في مكتبتي، راح حاييم، على هدير محرك الحافلة وتداخل أصوات المسافرين، يصف لي، كأنه رحّالة، مرتفعاتِ جيريفيلْ التي تبدو فيها السماء أقرب إلى الأرض من غيرها في أي مكان آخر، والسهوبَ ومساحاتها الشاسعة، غير المحدودة بنظر، ذات الغطاء النباتي المدهش الممتد شيحا وحَلْفاء كأنه محيط أخضر! وقطعانَ الضأن في السهول لدى غدوها ورواحها مثل كتائب متراصة، وعوائدَ الأعراس عند عائلات اليهود والمسلمين وتشابهها كما في مراسم موكب العروس يوم زفّها إلى بيت العريس مشيا أو في هودج أو على ظهر دابة! وألبسةَ الرجال، في تلك الأعراس التي تصفف وحدها لهذا وذاك

منزلته الاجتماعية، من غير تمويه ولا ذر لأي رماد لأن الناس هناك يعرف بعضهم بعضا في ما يكسبونه؛ ولأن لنوع الأحذية، أيضا، دلالةً أخرى على مكانة، كما نوعية البرنوس وما تحته والعمامة ولونها؛ مما يرفع بعضهم فوق بعض درجات ويمنح التفضيل والتميز. وكذا وصف زينةَ النساء بالكحل والمسواك والمسك، وعلاماتِ أوشامهن في وجوههن العامرة البيضاء وحليهن الفضية في آذانهن وصدورهن ومعاصمهن، والزرابي الحمراءَ المبثوثة في المناسبات في أي دار أو خيمة عند الموسرين، وأطباقَ الرفيس بالشاي والمشوي على الجمر والكسكس بالرايب.

ولولا أني تذوقت مثل تلك الأطباق في مزرعتنا وعند جدتي، ولكن بنكهة أخرى بلا ريب، لشككت في وصف حاييم لها بما يسيل له اللعاب. والحقّ أنّي أُخذت أخذا، متصورا كيف يظهر ذلك كله وكيف يحدث وكيف يجري؛ أحس نفسي انبعثتُ في ذلك البعد الجغرافي الإنساني أسمع وأرى وأشم، تملأني غبطة طفل.

«ألم أقل لك؟ أنت بارع! لصوتك الذي أضفى عليها روحا، لم تعد رسالة فحسْب. إنها الآن قطعة تذكارية»، قلت آخذا إياها منه.

وتأملت خطه.

«جميل بالحبر الأسود، أيضا!

- احتفظ بها!»، قال حاييم ناظرا إلي بطرف عين ونصف ابتسامة.

«شكرا. شوقتني إلى زيارة المنطقة»، قلت.

وأدخلتها محفظتي - كل ما كان بيني وبين حاييم من تبادلات كتابية غير ما تلف هو الآن في حافظة ملفات في المكتبة أمامي.

من جانبي، لم أجد ما أُحدّث به حاييم غير أيامي في المزرعة؛ إذ أستيقظ فجرا. فمع عثمان، بقميصي المفتوح على صدري ومظلّي على رأسي، قُدت حينا الجرار بمقطورته وحينا الحاصدة. وذرعت المساحات المحصودة مشيا؛ فأحصيت، وأنا أتصبب عرقا، أكياس القمح والحنطة والشعير وربطات التبن قبل أن يشحنها الْخدَم. ورويت ظمئي من القربة المعلقة إلى أحد فروع خرّوبة الحقل التي تناولت تحت ظلها طعامي مفترشا التراب. فما عدت إلى البيت العائلي إلا متعبا تعبا لذيذا سرعان ما كان يأخذني، بعد العَشاء، إلى نوم عميق في الحوش.

ولكني كنت أيضا أخبرت حاييم عن حفل نهاية موسم الحصاد. وقلت له إني تمنيت لو أنه كان حاضرا معي ليشاهد فانتازيا الخيالة ويأكل مشْوينًا وسفّة الكسكس بالعسل، كما يشتهيها.

«من يد خالتي ربيعة خاصة!»، قال بابتهاج أعرفه له حين يقابل جدتي في بيتها لغرضٍ ما.

«تعرف؟ سألتني عنك. فأخبرتها أنك غائب وإلا كانت أمرتني أن أنزل إلى المدينة لأعود بك!

- أعرف أنها تحبني.

- لأنها تثق في صداقتك لي.

- مثل أمي زَهيرة بالنسبة إليك تجاهي».

وعلى تقلص الأحاديث بين المسافرين الذين نزل بعضهم في نقطة التوقف هذه أو تلك، وشخير محرك الحافلة متنازلا متصاعدا، يشبه غطاؤه عن يمين السائق ناووسا تنبعث منه رائحة الشحوم واحتراق المازوت، أثار لي حاييم ما كان ينتظرنا خلال السنوات الثلاث من

الطور الثانوي، مع أساتذة أكثر صرامة، كما كنا نسمع عنهم. ومواد جديدة تزداد صعوبة وتعقيدا.

«وسنزداد نحن انضباطا ومنافسة. إنها مسألة شرف أن نكون متفوقين»، قلت.

تلك كانت قناعة سكنتني منذ السنة الإكمالية الأولى لم أجد لها تفسيرا ولا حاولت تسويغها لاحقا.

ثم، وقد نزلنا:

«أرسلان! أنت تبهرني بعنادك.

- وأنت أيضا تبهرني بإصرارك!».

كانت لحظةً ذات وقْع حرك مشاعري ولو بدرجة أقل تأثيرا مما أحسسته أول مرة إذ عبرت باب الثانوية، تلك التي أدينا خلالها، أنا وحاييم والتلاميذ العشرون المتنقلون معنا، إجراءات التسجيل. والتحقنا، مثل جنديين من الأشبال، بالمراقد الجديدة، في الجناح المخصص لتلاميذ الطور الثانوي. فشعرنا جميعا ببداية التغير الذي طالما انتظرناه. فلأربع سنين، ظللت ألاحظ ما يحظى به تلاميذ الطور الثانوي من تعامل مختلف.

إني أضحك في نفسي كلما أعادني الحديث، كما الآن، إلى تلك السنة الأولى من الطور الثانوي؛ السّنة التي ما إن انقضت أسابيعها الأولى علي حتى صرت أنظر إلى غيري، في الطور الإكمالي، بالعين نفسها التي كان يَنظر بها إلينا، أنا وحاييم وزملائنا، من كانوا يسبقوننا! فقد أضحينا مثلهم نرتدي من الملابس ما صار يُظهرنا قريبين من الرجال. وفوق هذا، حظْوتنا بكميات أكل وافرة، واستفادتنا، كما وصفته لحاييم ضاحكين،

من الأحكام المخففة؛ ولم تكن سوى نوع من رفع الرقابة الصارمة علينا - بحكم أن الإدارة دجّنتنا وكان ذلك غير بعيد عن الحقيقة لِما يمارَس علينا نحن الداخليين من قمع لنزواتنا خاصة - في المطعم، كما في الساحة، في المكتبة وفي قاعة المذاكرة المحروسة. فمسْيو ويلْ ذاته ابتعد عني مسافة. وقد أمسيت أشعر، حين تتقاطع نظراتنا أو تلاقي بيننا متطلبات الدراسة في الثانوية، بأنّه استسلم لأمر واقعي أنا لاراب العنيد الذي أصبح أحد التلاميذ الممتازين في نظره.

ما الذي جعل سنتي الثانية، بما تطلّبتْه مني ومن حاييم من حفر إلى أعمق قدراتنا العصبية أمام الأساتذة ومن عناد لا يفل تجاه التلاميذ من قسمنا، أن تكون اختبارا لي على رفع تحدي الرد على استفزازات تلاميذ آخرين عنصريين، من الطور الثانوي نفسه تجاهي؛ وعلى تحرشات أولئك الشبان الجانحين الذين ينتظرون خروج التلاميذ لابتزازهم في أرجاء الثانوية؟

ففي الحالين، مثلما تفكّه علي حاييم، بدوتُ معاركا شرسا. فقد كنت طرحت أرضا زميلنا أنطوان لونورموند بنطحة عند الجدار الخلفي للثانوية، على رؤوس أشهاد من زملائنا، صباح يوم أحد، كما تواعدنا لأنه سبق أن وصفني، في الساحة، بابن الأنديجان خادم أسياده الفرنسيين فتحديته في مبارزة. وكان عقاب إتيان أي فعل مخلٍّ بالحياء أو أي اعتداء أو شجار داخل أحد مرافق الثانوية، حسب النظام الداخلي، قاسيا جدا يصل إلى حدّ الطرد. وذلك ما حصل لأنطوان لونورموند الذي اعتدى جنسيا على تلميذ من السنة الأولى إكمالي في دورة المياه بعد الخروج من حصة المذاكرة الإلزامية.

ثم ذات مرة، وأنا وحاييم عائدان مساء أحد إلى الثانوية، اعترض سبيلنا شابان من الأهالي وطلب أحدهما من حاييم نزع معطفه الشتوي، فيما انتصب الثاني أمامي ليمنعني من الدّخول لأنه عرف أني لست أوروبيا. فجذبته إلي بيدي على طرفي سترته، ووجهت له نطحة خاطفة قوية. فتهاوى إلى الخلف، مرتطم الرأس بالأرض. فيما وجه حاييم لكمة إلى وجه الآخر أتبعها بركلة في حجره. فأنَّ مثل جرو. وكبطّة، رمى خطواته نحو صاحبه لينهضه - إني أضحك لذلك وكأنه يحدث الآن!

على أن الذي كان قد ازداد عندي عنادا، كما حاييم، هو التنافس خلال الدروس، حتى ودّ بعض التلاميذ من قسمنا لو أن أستاذا أو آخر وجد السبيل إلى قهقرتي بالتشديد علي في العلامات. كان ذلك يظهر من ردود أفعالهم حين تُرجَع إلينا أوراق الفروض والاختبارات أو موضوعات الإنشاء. ولكن شيئا من ذلك لم يحصل، بالنظر إلى سيرتي المنضبطة ونتائجي الجيدة في الرياضيات والعلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء واللغة؛ وقد بدا كل ذلك واضحا في امتحان الجزء الأول من البكالوريا، كما كانت نتائج حاييم بالمثل.

أيكون همّ الأسئلة التي بدأت في ذلك العمر تغزو ذهني وتثيره بما يسبب لي قلقا مؤلما عن فك لغز الكون ووجود الله والبدء وعن سبب كل تلك الحروب هو الذي حدد مساري؛ وكان ما أرقني أكثر هو سؤال الموت قبل أن أشفى منه يوم التحقت بالجبل فرأيت كيف يموت بالقرب مني من لم يكن سأل يوما مثلي لماذا الموت ولماذا هو يموت؛ ولذلك، مثلا، انتقلت، مثل حاييم في سنتنا الثالثة والأخيرة،

إلى قسم الفلسفة؛ وكان يمكننا التوجه إلى قسم الرياضيات لولا أن كلينًا لم يرغب في أن يصبح مهندسا؟

«لا أحب أن تصير حياتي حجرا وحديدا وتعدينا وخرسانة وقياسات وحسابات واحتمالات لا تنتهي»، قلت لحاييم بلا نية مسبقة في أنني قد أكون، نظرا إلى وضعي العائلي، في غنى عن اختصاص مماثل.

«تعرف يا أرسلان؟ حلمي أن أصير يوما طبيبا أو صيدليا!

- ستكون أحدهما»، قلت بوثوق.

كنت أجد كل شيء في حاييم يدعو إلى ذلك؛ ذكاؤه المتوقد وهيئته السميحة، رزانته الوطيدة وطيبة نفسه.

ولكن بأي قدرة عجيبة وثقة نفس عالية كنا، أنا وحاييم، اتخذنا سنتنا الأخيرة، في قسم الفلسفة، جسرَ عبور ورديا نحو الجامعة! إنّنا، في خلال أوقات استراحاتنا من إنجاز الواجبات والمطالعات الإلزامية والمراجعات، تحضيرا لآخر امتحان في الطور، لم نُعدم شيئا من روح مرحنا؛ ننكت، نضحك ونتذكر. ولكننا كنا، برغم ما يظهر علينا من رخاء دراسي، كما تفكهت لحاييم، لم ننزل درجةً واحدة عن العتبة التي وضعناها لنفسينا في النجاح؛ تحديا لذاتينا قبل محيطنا الذي لم يكن وديا كله، إن لم يكن معاديا أحيانا.

ففي بداية شهر جوان، وكان ذلك مثيرا لنا بما كان سينتهي به مسارنا، استلمنا الاستدعاء الرسمي. وفي منتصفه دخلنا امتحان الجزء الثاني من البكالوريا، مع بقية تلاميذ القسم النهائي، تحت عيون حراس يقظين.

«لا شيء أخطر من الاستسلام للارتباك!» قال لي صوت من داخلي. وإذ أتذكر ذلك، كما الآن، أجده ظل ينسحب على المواجهة

المسلحة في الجبل؛ تلك المواجهة التي كان خلالها نوع آخر من الارتباك قاضيا قبل الرصاصة أو القذيفة أو السكين أو الحربة.

ما الذي زرع في نفسي الثقة بأني سأجيب بما تتطلبه أسئلة الموضوع، مهما تكن صعبة؟ إني إلى اليوم لا أدري. كل ما أحسسته هو أن في أعماقي إرادة وجهتني. فبعد قراءة الموضوع مرة أولى فثانية، وكذا أسئلتَه، كنت أغمض عينيّ للحظات، متناسيا أني في امتحان، مستعيدا وجوه الأساتذة وأصواتهم وحركاتهم وإيماءاتهم والسبورات ودفاتري والكتب المقررة،؛ فإذا عناصر الأجوبة تتداعى. وإذا أنا أفتح على ورقة مزدوجة بيضاء لا أرفع عنها رأسي وقلمي إلا مسوّدة على الأوجه الأربعة.

حاييم العفريت! لأنه كان مثلي شعر بارتياح، غداة اليوم الأخير من الامتحان الذي دام ثلاثة أيام، لم يخطر له من ممازحة في المرقد غير أن يلطم وجهي بوسادته، قائلا.

«ارتباكنا لم يكن سوى ذكرى ها نحن نسِيناها!».

فردَدتها عليه. وأتبعتها بوسادتي، ونحن نقهقه.

«وها نحن سندخل في حلم فانتاستيكي»، قلت.

واسترجعت وسادتي، على انطفاء الأنوار. وفيما هجعت الضوضاء الخفيفة، السائدة بين بقية التلاميذ، همس لي حاييم.

«مثل طائرين أرانا ننشر ذراعينا جناحين محلقين فوق هذه الثانوية النائمة!
- يا لَخيالك! ليلة سعيدة».

كانت ثلاثة أسابيع من الانتظار قد انقضت لما تم الإعلان عن نتائج البكالوريا؛ فتسابقنا، من أركان الساحة كلها، نحو سبورة نشر قوائم

الفائزين. وتزاحمنا. فتعالت بيننا أصوات الابتهاج، داخلتْها زفرات الإحباط. وسطها، نطقتُ:

«بنميمون حاييم!».

وبالمثل، فعل حاييم.

«حنيفي أرسلان!».

كأنما حصل ذلك باتفاق مسبق بيننا.

ثم انسحبنا فتعانقنا، مطلقين ضحكة فرحٍ. وتواجهنا فضرب أحدنا الآخر على صدره براحتيه.

«نجحنا!»، قلت.

«أخيرا!»، رد حاييم رافعا عينيه نحو السماء.

ثم ألقى بنفسه بين ذراعي، عاقفا ركبتيه إلى الخلف، مطوقا رقبتي، كطفل. فغالبت أن لا أفقد توازني. وصاح، هذه المرة:

«الحرية!».

وانفك عني. فهززته من كتفيه.

«تصور! سبع سنين في هذه الداخلية!

– التي تشبه الثكنة!

– بل مصحة أمراض عقلية!

– آن لنا أن نحرق قمصانها الكابحة!».

وحدق أحدنا في الآخر بمكر إذ ألفينا مسْيو ويلْ واقفا غير بعيد عن سبورة نشر القوائم –لا أزال أرى صورته في انقباضه من فرحتنا– تغامزنا واستقمنا. ثم جذبنا، في حركات تسوية، هندامينا الصيفيين من قميص نصف كم ذي جيب وسروال ترگال مكوي. ورمينا

خطواتنا، كجنديين حقيقيين هذه المرة، نوقّع مارشة فخرية، مارين أمام الإمبراطور رافعين ذراعي شرف أرسلناهما في الهواء.

كيف أخذْنا، من غير حساب لأي عواقب، فسحة تلك اللحظة فعبّرنا ليس فقط عن ابتهاج غامر لروحينا ولكن أيضا عن تحرر من قبضة كنا، في جانب مِن داخِلنا، نبغي لها أن تكون بتلك الشدة؟

ومثل عسكريين مسرَّحين أخيرا، خرجنا، أنا وحاييم، إلى المدينة بلا انشغال بساعة العودة إلى الداخلية ولا بأي درس كان -إني لن أنسى عشية ذلك اليوم- ودخلنا أول حانة في طريق صعلكتنا الأولى وشربنا أقداحا. ولكننا كسرنا كأسينا إذ نقرناهما بقوة، نخبَ نجاحنا. تبعاً لذلك، وبكل انشراح، اقترحت على صاحب الحانة أن أشتري له الكأسين أو أعوضهما له نقدا. فسألنا ماذا نعمل. أجاب حاييم، بابتسامة، أننا نخرج للتوّ من سجن الثانوية. فنظر إلينا، مفتعلا ارتيابا فينا. ثم ضحك وأمر النادل.

«دورة من الدار لهذين الشقيين!».

وللتخلص أخيرا مما كنا نكبته، منذ أن صرنا نحس جسدينا يطلبان منّا ما لا نستطيع تلبيته إلا باليد سرا، قصدنا بيت التسامح، كما يسمى تجنبا لخدش الحياء، واثقين من عبورنا لأننا أصبحنا بالغين. وكان ذلك ما حدث. فوجدناه أمرا استثنائيا، عظيما وباهرا أنْ لمسنا بشرة امرأتين حقيقيتين. للرعشة الأولى، تحس جسدك أفلت منك، كما لو كان ذلك بجاذبية قاهرة، إلى جسد آخر طالما بحث عنه بكل العناء الذي سببه له كبْتك. ولنشوة الرهْز، تدرك أنك تخرج أخيرا من عالم أحلامٍ يقْظتك المعذِّبة إلى الحقيقة العذْبة.

كذلك عبرت لحاييم خلال تناولنا عشاءنا في مطعم اليهودي بكار فأعاد علي ما أحسه، من المتعة نفسها، مع قرينته. وإذ قلت له «أخيرا فقدنا عذريتنا في دار ريمونة الكبيرة»، انفجر ضاحكا.

وقال:

«وماذا لو نكملها بسينما لُوكوليزي؟ يبدو أن الفيلم من نوع الگونْگستير.

– ليكن!»، قلت ضاربا بقبضتي على الطاولة، غبطة.

غير أنه لا أحد منا تذكر شيئا من الفيلم. فقد أخذتنا غفوة خلال العرض. ولم نُفق إلا على اشتعال الأضواء وطقطقة الكراسي.

كنا نشعر، لأن أحدنا عبّر عن هذا للآخر، بأنْ لو قُدر لنا أن نكون ليلتها ضابطين راجعين إلى ثكنة، كما رجعنا إلى الثانوية متأخرين، لقرقع لنا الحارس كعبيه مقدما لنا التحية. ولكنه بدل ذلك، ولأول مرة، تمنى لنا ليلة سعيدة. فالتحقنا بمرقدينا، على إحساس بأن للإنهاك عذوبتَه أيضا.

تلك الأوقات الحميمة التي قضيتها مع جدتي في بيتها بالدرب، بعد عودتي متوجا بالنجاح، كانت من أمتع ما رسخ في ذاكرتي من نهاية دراستي في ثانوية معسكر. فمثل حفيدها الصغير الذي كنتُه، وهي مثلما ظللتُ أشعر به لم تكن تراني إلا كذلك إلى آخر يوم من حياتها، أسبلتْ علي كل ما في قلبها وجوارحها من عطف وما في هيئتها من دلال.

إنّها، كما أسجله في سكون هذه الليلة، لبستْ أجمل عباءة لها. ووضعت حليها الذهبية الخفيفة في أذنيها وجيدها ومعصميها. وكحّلت عينيها. ومضغت المسواك. ومشطت شعرها - جدتي لا تكشف عن شعرها لغيري ولو كان والدي إلا والدتي فإنها هي التي غالبا ما رأيتها في بيت مزرعتنا تطليه لها بالحناء وبالغاسول تغسله ثم تمشطه بمشط عاجي ذي حدّين في طقَسية مُبهجة لي أنا قبلهما.

وأخرجت مواعين الفخار والملاعق الفضية من خزنة الأواني في المطبخ، وكانت لا تخرجها إلا للخاصة من الضيوف أو في مناسبة مهمة تجتمع العائلة خلالها. وحضرت لي، للفطور والضحوية والغداء والعشْوية والعَشاء، مأكولاتي الحلوة اللذيذة الحارة والدسمة، من بغْرير ومْسمّن ومْبسّس ومقروض بالعسل وشربة أو حريرة براس الحانوت ومطلوع بالزبدة وكبدة مشوية على الجمر

وبيض بلدي مقلي بالكمون ورفيس بالشاي وكسكس بمرق لحم الحجل، كما أشتهيها من يديها اللتين تغسلهما في صحن قبل كل تحضير وبعده. وتجففهما بمنشفة قطنية تعلقها بحزامها. على أنه إن كان فاتني أن أراقب وزني كم زاد فإن أثر ذلك كان لا يخفى على وجهي كلما وقفت أمام المرآة عند نهوضي مرتين في اليوم من فراشي وعند خروجي وعودتي.

وكنت، مع حاييم، بعثرت بقية أوقاتي، لأيام كانت طليقة وجميلة، بين المقاهي والسينما قبل أن أرجع إلى مزرعتنا رفقة والدي في سيارته التي سلمني قيادتها، لأول مرة، راكبا إلى الخلف؛ كما تقتضيه منزلته! بينما بقي سائقه عثمان في المقعد الأمامي بجانبي.

عليّ أن أقول إني انتظرت طويلا كيما أحوز ثقة والدي فِيّ. فرجل مثل القايد حنيفي، لصرامته وصلابته، حتى مع نفسه في لباسه وحديثه ومشيته وأكله، ظل يتمتع بصبر ثقيل ونافذ على غيره حين يضعه موضع اختبار. كنت، أنا النجل، أحدس ذلك منذ أن التحقت بالثانوية. فحتى رسائلي إليه، ذات العلاقة بحاجاتي، ظلت لا تصله إلا عبر قناة والدتي.

أجده الآن أمرا غريبا أن يكون ما ميز العلاقة بيني وبين والدي هو أني لم أفاتحه يوما في شأن من شؤون حياتي الخاصة؛ إن حدثني، من جانبه، في أمر ما، وهو نادر، فلم يكن يعدو حدود شؤون المزرعة. ولو أنه ظل، في خصوص دراستي، يثق ثقة مطلقة بأني لن أخيبه. كنت أعلم، حتى قبل أن تسرب لي والدتي بعض ذلك، أنه ما انفكّ يتباهى بي في هذا المجلس أو ذاك. وكان –وأنا أعرف هذا أيضا– يبغي أن يثبت لغيره من الأقدام

السوداء والأوروبيين أنفسهم، قبل الميسورين من الأهالي والمتقربين من الإدارة الفرنسية والقياد مثله، أن منزلته يُعليها أيضا أنّ له من دمه نجلا لم تلده أزواجهم.

ولِما تفرضه سطوةُ أبوةٍ إقطاعية لا تبغي أن تسمع سوى صوتها، غالبا ما ناب الصمت بيني وبين والدي عن اللغة التي ظلت تصل هذا أو ذاك منا في شكل علامات وإيماءات أو عبر وسيط؛ إلا نادرا وباقتضاب، ولكن بفيض عواطف مكنونة؛ وكانت تلك حالا شبيهة بحاله مع والدته ربيعة، جدتي، لا تكلمه كثيرا. يحيّيها ويقبّل رأسها. ولا يكلمها هو إلا ليطمئنّ على أنْ لا شيء ينقصها فلا تسأله حاجة - لم أر دمعه إلا يوم وفاتها «وبعد؟ إنه من دمك وأخلاطك!».

حين وصلنا المزرعة دخلت على أمي في حجرتها فقامت لي في عباءتها الحريرية البيضاء، ممسكة إلى الخلف شعرها الأسود بعصابة مذهّبة، مشرقة الوجه الأبيض الندي؛ ولك لذلك أن تتصور أنك فتحت نافذتك بعد ليلة هادئة على صباح رائق! وزغردتْ. أجلْ زغردت! كان ذلك أقوى من أي شيء آخر تعبيرا عن الفرح الأسمى. فأحسست كأنّ جسدي تخلص من ثقله فطاف في هيئة نورانية. وفتحت لي الحضن، على بهاء جمالها الطبيعي المحفوظ مثل سر لا يدرَك كنهه. وأخذت وجهي بين راحتيها اللدنتين المحنأتين وقبّلت جبهتي. فأغمضتُ، واضعا راحتَيّ على كتفيها، وأنا أراها أمسكت بيدي خلفها راكضة في عباءتها البيضاء متحررة الشعر في حقل من شقائق النعمان بأرضنا.

«أنت، بهذا الوجه المنحوت من مرمر، أجمل نعمة رزقني بها ربي!»، نطقتْ بأثر الدمع في صوتها. ومسّدت على كتفي «وهذه

القامة العامرة!» وعلى رأسي «وهذا الشعر الأكحل مثل سبيب حصان!» ثم قبلتني على أنفي. فحومتني أنفاسها إلى أول يوم زرّرتْ لي فيه مئزري المدرسي في بيت جدتي.

جاءت الخادمة، زوجة عثمان، حين كنت أهمّ بالخروج. وقبّلت يدي، كما تقتضيه العادة التي أرساها والدي. واستمعتُ لسيدتها تملي عليها ما ستحضّره للمناسبة. وما إن حل المساء حتى وجدتني محاطا بعناية أميرية – وإذ أذكر هذا أتذكّر البؤس الأسود الذي كان ينهش الأطفال من أبناء الأهالي في تلك السنين.

استمرت العناية الفائقة بي لأيام الاحتفال الثلاثة التي كان كل شيء فيها، من الطعام إلى السهر إلى الغناء والنقر في جناح النساء، بهيجا مدويا، دوي بارود الخيّالة في ميدان المزرعة، واستثنائيا؛ تناقلته ألسنة الكولون أنفسهم؛ لكوني، أنا ولد القايد حنيفي، أول الأهالي في المنطقة التحاقاً بالجامعة.

حقا. كان احتفالا أفخم من ذاك الذي نُظم لنجاحي في شهادة التعليم للدرجة الثانية من الطور الأول. وقبله مسابقة السنة السادسة. وبالتأكيد لختاني الذي لا أذكر منه سوى العباية والشاشية والبلْغة وقطعة كتان معقودة على جلدة الحشفة المتيبسة، وهي محفوظة كلها في دولاب ملابسي، حتى الصغيرة منها، مطوية ومطيّبة بالمسك، كما أرادت والدتي أن تبقى. ويوم رأتها زليخة ضحكتْ فحدستُ ما دار في ذهنها ليس بشأني ولكن بما كانت تنتظره في بطنها.

عشية عودتي إلى دار جدتي في المدينة، على بعد أيام من نهاية العطلة الصيفية، تحضيرا لسفري أنا وحاييم إلى مدينة الجزائر، دعتني

والدتي عن طريق زوجة عثمان إلى قاعة الضيوف التي وجدتها إذ دخلتها مضاءة بثلاثة مصابيح من نوع الكانْكي. كانت جالسة على الزربية إلى جانب والدي الذي أومأ إلي بعينيه أن أجلس قبالتهما – هو الآخر لم أر يوما رأسه عاريا من واحدة من عمائمه المختلفة الأشكال والألوان المستعملة في الخروج والمناسبات عدا عمامة البيت التي ظلت دائما خفيفة.

لقد غمرني بهالة من الغبطة لم يسبق لي أن رأيتها على وجهه الصارم. ودفع نحوي حقيبة من الجلد البني الغامق؛ كانت أكبر من كلّ الحقائب الأخرى التي حملتها من قبل إلى ثانوية معسكر. وأشار إلي أنِ افتحْها! ففعلت.

للحظات، ثبّت عينَيّ على ما رأيت. ثم رفعتهما نحو والدتي، وهي تنظر إلي، على ضوء الكانْكي الثالث عن شِمالها على مائدة، نظرة أنس مخملية – ألا تأتي عليك لحظة من شبابك تحس خلالها أن في عيني امرأة مثل أمك ما يُشعرك حين تلقي إليك لأول مرة نظرة ملتبسة أنك بلغت رجولتك وها أنت تستيقظ بفعلها لتخرج نهائيا من أحلام يقظتك المتأخرة إلى واقعك الحقيقي!

وأنا أقلب ما في الحقيبة ثم أنشره قطعة قطعة، رافقني شعور بأن والدتي كانت تراني ازددت فتنة. إنها غريزة الأم. لا أدّعي شيئا. فلا شكّ أنّها كانت قبل أيام قليلة قد راقبتْني مرات من الأبواب ومن خلف النوافذ في أرجاء المزرعة بالعمامة والعباية أمشي مرحا. ومرة على صهوة الحصان غاديا. وأخرى راجعا من الغابة، على كتفي اليمنى بندقية الصيد، متمنطقا بحزام الخراطيش؛ وعلى اليسرى زوادة من الجلد ملآى حجلا وأرانب.

ثم ها أنا، بين حركة وأخرى، أرفع عيني، مبتسما لها فتحسبني، لملامحي التي لا تراها إلا نضرة ولشاربي الفتي، مثل أمير نبيل. ألم تحدثني مرة عن سيدها عبد القادر؟ لا أشك الآن في أنها طفقت تراني، حينا، في برنوس العريس الأبيض ليلة دخْلتي فزغردت زغردة قصوى أعقبتها طلقات البارود من حول الدار. وحينا، على أناقة أمشي في الجزائر- مدينة الأنوار والبذخ واللذة ببناياتها وشوارعها وساحاتها وحدائقها وقاعاتها ومتاجرها والحياة الصاخبة فيها كما أذكرها يوم حللت بها في ذلك العام قبل خمس عشرة سنة خلت الآن.

بل إني ألفيتها أكثر من مرة مشدودة، كما لو كان ذلك بجاذبية ناعمة، إلى أصابعي التي طالما أخذتْها في بعض أيام عطلي المدرسية إذ أعود إلى المزرعة فراقبتها وقارنتْها، مغتبطة، بأصابعها الطويلة البيضاء العامرة مثل الشموع؛ وأنا أعيد إلى الحقيبة ما كان فيها قطعة قطعةً: زوجان من الأحذية ومن كل لباس داخلي وخارجي ومن المناشف، التي طُرز على أطرافها بالأحمر اسمي ولقبي، وقطع صابون معطر، ومناديل جيب وأكل، وقارورة عطر، ومحفظة حمام صغيرة بلوازمها؛ من الكاسة إلى الحبيلة وفرشاة الأسنان والمعجون وحافظة النقود العامرة.

ثم، إذ نظرتُ إلى والدي نظرة امتنان بما في عينَيّ من خشعة الوداع ورجعت نحوها، رفعت بيمناها ما كانت تضعه جنب ركبتها وقدمته لي بيديها معا، مرتعشة الصوت، مقاوِمة دمعتها.

«هذا ستْرك!».

كان مصحفا على طبعة الثعالبية لعام 1935، بخط مغربي لا يقرأ به أهل المشرق؛ هو أول ما كنت حملتُه في حقيبتي الخاصة عشية رحيلي مع زليخة إلى وهران. وهو الآن مرتب في المكتبة أمامي.

2

ما أبعد جامعة الجزائر!

يظل متحكما بي شعورٌ بأن الأوقات التي قضيتها مع حاييم، يومَ أول سفرٍ لنا إلى مدينة الجزائر، كانت أجمل تذكار وأعذبه وأشده إثارة. ليس ذلك لأننا كنا سنلتحق بالجامعة، وهو حظ استثنائي بالنسبة إلينا، ولكن لمغامرة ركوبنا أول مرة قطارَ سعيدة ذا السكة الضيقة. كان القطار، مثل أفعى تزحف بين الصخور، لا يقطع المسافة إلى محطة پيرّيگو*، الرابطة بين خط الجنوب وخط الشمال من الجهة الغربية، إلا في حوالي ست ساعات؛ بعد أن اتفقنا من قبل، إذ التقينا إثر عودة كل منا من عطلته إلى الدرب، على أن لا نتنقل بالحافلة إلى وهران لنركب من محطتها القطار المباشر إلى الجزائر. وكان يمكننا أن نربح أكثر من نصف الوقت إضافة إلى الاقتصاد في الجهد.

والحقيقة أن فكرة السفر بالقطار استهوتنا منذ أن كنا قرأنا رواية الوحش البشري** وشاهدناها فيلما في سينما ڤوكس؛ من غير أن يكون أحدنا قد بيّت في داخله نيّة القتل لأننا كنا نتمتع بكامل قوانا العقلية وبسلامتنا النفسية، مثلما مازح أحدنا صاحبه.

ولإمكاناتنا المالية الإضافية التي وفرها لنا نجاحنا في البكالوريا قبل أكثر من شهرين، بما أغدقته علينا عائلتانا، حجزنا في الدرجة

* المحمدية، حاليا.
** إميل زولا La bête humaine.

الأولى. وركبنا، في الساعة الثانية بعد منتصف النهار لتأخر القطار، وسط مسافرين من الأقدام السوداء والأوروبيين المختلطين وقلة من الأهالي، كلهم من الذكور متميزون باللباس التقليدي الذي يُظهر فيه نوعُ العمامة والبرنوس والعباية والصدرية والقميص والحذاء المنزلةَ واليسرَ الاجتماعيين. وأخذنا مكانينا، مثل جنتلمانين، بكثير من الخيلاء وبعض الغرور أيضا، متأنقين في بدلتينا الفصليتين من القماش: البيضاء الفاتحة لي بقميص وحذاء أسودين، والزرقاء الغامقة لحاييم بقميص أبيض وحذاء بني.

كان ذلك أمرا استثنائيا! فكيف لنا في ذلك العمر، قُبيل بلوغنا التاسعة عشرة، أنا وحاييم القادمين من لامكان بالنسبة إلى من كان يرانا، من السيدات والسادة الأوروبيين والأقدام السوداء المتميزين بالتعالي، أن نكون مثلهم في الدرجة الأولى. وأن نتحرك في الرواق بلا ارتباك. وأن ندخل دورة المياه نفسها بلا تهيب؛ وباعتداد نتناول غداءنا في مطعم القطار مثلهم أيضا! وكان من بينهم أوانس انشدّ بعضهنّ، برغبة، إلينا من غير أن يجرؤ أحدنا على مغازلة إحداهن. وإن كانت واحدة منهن قد جاذبتني الحديث إذ طلبت مني نارا لسيجارتها فأخبرتها أني نسيت ولاعتي في جيب سترتي الأخرى. وبرغم أنها لم تطل معي الحديث حول وجهة سفري، قبل أن تنصرف إلى غيري، تفاخرتُ على حاييم أعاتبه.

«أجدك كما رِبّي أورثودكسيّا زاهدا بلا نار في قلبه!».

لأن حاييم لم يقترب من أي واحدة من أولئك الأوانس اللائي كانت هذه أو تلك منهن تلقي تجاهنا من وقت إلى آخر التفاتة أو نظرة عابرتين.

«احترق أنت لوحدك في هذه الدنيا وفي الآخرة!»، رد حاييم مفتعلا لي تبرُّؤاً.

فضحكنا. لأننا فشلنا أيضا. ولكننا شربنا أقداحا من البيرة في الحانة التي غصت بجنود في زي الخروج؛ وقد بدوْا، كما تناهت إلينا من حين لآخر أحاديث بعضهم، أنهم من مجندي الخدمة العسكرية في طريقهم إلى المتروبول.

ولكثافة دخان السجائر فإننا أخرجنا رأسينا من النافذة أكثر من مرة؛ فلا أحد منا كان قد وضع يوما بين شفتيه سيجارة. وعدْنا أخيرا فطلبنا قهوة. ومررنا في حديثنا من الديك إلى الحمار، كما يقال. وبرغم ذلك، لم نفلح في كسر الرتابة القاهرة. ولا أن نتخلص من الإحساس بثقل الزمن وتمططه؛ خصوصا خلال التوقفات الإلزامية الكثيرة في محطات كانت تبدو لنا لا حياة فيها.

ولأننا عاينّا أن القطار، الذي كان من نوع نصف مسافرين نصف بضائع ووقود، حين يعبر الوهاد والمنعرجات الموازية للسكة، يخفض سرعته التي لا تتجاوز في حدها الأقصى الخمسين كيلومترا في الساعة، قلت لحاييم، لأن مثانتي أنذرتني بضرورة إفراغها، إن مسافرا بصحة جيدة يستطيع أن ينزل فيقضي حاجته ثم يعود مسرعا خطاه قليلا ليركب. فصور لي، إذ كان القطار يمر بمنطقة غابية، كل الشقاء الذي سيلحق بي إن تغيرت السرعة فجأة عند استواء السكة في الأرض المنبسطة.

وكنا قمنا. ومن النافذة، مرة أخرى، أخرجنا رأسينا. وصامتين مستنشقين هواء بدايات الخريف، رحنا نرنو إلى الجبال الصخرية

أو الطينية حينا. وحينا نتملى الحقول المحصودة، التي تُرى في مساحات بعضها قطعان من الماشية ترعى في سلام، وبساتين الزيتون والتين واللوز والكروم؛ وكذا البرتقال الذي كان موسمه انقضى قبل شهور. ثم عدنا إلى مقعدينا فغفونا قليلا. وإذ أفقنا واصلنا قراءتنا من روايتين، كما هي عادتنا في أغلب أسفارنا، حتى وصول القطار في الثامنة مساء إلى محطة پيرّيگو.

بعد ساعتين قضيناهما بين مقهى المحطة ومطعمها، ركبنا القطار الثاني الرابط بين وهران والجزائر. وعلّق حاييم بأنّ ذلك كان من حظنا. وقلت إنه لمن الصدفة أنْ وجدنا نفسينا وحدنا في المقصورة المتسعة لأربعة، لأن سفرنا صادف ليلة من ليالي وسط الأسبوع. ولكننا لم نمطط في جدالنا حول الحظ والصدفة. كنا متعبين. فقد نمنا على راحتنا حتى محطة آغا الجزائر، التي كانت ساعتُها تشير إلى السابعة صباحا حين نزلنا فيها.

في البهو، وقد جلسنا على مقعد خشبي، خيّلت لحاييم مَن يتحركون أمامنا نملا يخرج من ثقوبه، لرشة ماء. فرد أن من ينظر إلينا من ذاك النمل يحسبنا جنديين راجعين من أحد خنادق الحرب الكونية الأولى. وكذلك اعتقدْنا أنّ من جاء يستقبلنا رآنا، بعد ساعة من الانتظار، إذ تبسم في وجهينا بإشفاق؛ وكان رجلا خمسينيا من معارف والد حاييم بزي أوروبي من القبعة إلى الحذاء. ثم حيانا، مصافحا إيانا، مقدما نفسه باسم رامون بنگيگي. وقال إنه يعرف من نكون ويعرف مدينة سعيدة؛ لأنه أقام فيها، في الدرب بالضبط. وتوقع لنا ألاّ يكون السفر قد شق علينا كثيرا.

«لا. أبدا»، نطق حاييم بلا قناعة.

«الرفقة عوّضتنا»، قلت من غير أن يكون سبق في نيتي تلميح إلى شيء آخر غير ما خرج على لساني.

فلم يظهر على السيد بنگيگي ما شده إلى ذلك. وسأل حاييم عن والده فطمأنه عليه وأبلغه تحياته. ثم نوّه لي:

«القايد حنيفي رجل يمكن الاعتماد عليه».

فاكتفيت بابتسامة، ردا على مجاملته. كنت سأعرف منه خلال الغداء في بيته أن والدي هو الذي أقرضه مبلغا ماليا به أقام تجارة له في مدينة الجزائر. ثم، لا هو شرح ولا أنا استفسرت.

مثل جنديين تماما، حاملَيْن حقيبتينا، خرجنا من المحطة خلف السيد بنگيگي، راميين خطواتنا الأولى، في إيقاع متزامن، على أرض مدينة الجزائر، في يوم كان سيبقى منقوشا في ذاكرتنا؛ وفي سيارته، راكبين إلى الخلف، أدهشنا ما راح يمتد لأعيننا على الجانبين؛ من الميناء الذي بقي وراءنا، إلى البنايات المتراصة والعمارات ذات اللون الأبيض ومصاريع نوافذها الزرقاء، غالبا، وأنواع السيارات والتراموای، والشوارع الكبيرة وحركة الناس فيها؛ خاصة السيدات في ألبستهن الخفيفة الأنيقة، وواجهات المتاجر والدكاكين التي كنا في تلك الساعة نرى أحد ستائرها يُرفع حينا أو زجاج إحداها يُنظف حينا آخر. وأكثر من ذلك كله، بدايات الضجيج غير العادي المتصاعد من كل مكان ولامكان.

بعد مسافة تخللتها انعطافات، لم يرسخ في ذهني شيء كثير منها، توقف السيد بنگيگي أمام مغازة كبيرة، مقابل مكاتب الخطوط الجوية الفرنسية الكائنة في بناية موريتانيا. وشرح لنا أنه لا يمكننا أن نخطئ

العنوان حين نعود كي نتوجه معه إلى بيته من أجل الغداء الذي دعانا إليه بإلحاح لأننا حاولنا أن نعتذر. وطلب منّا أن نُبقي الحقيبتين في السيارة. لذلك لم نأخذ سوى محفظتينا.

كانت الساعة الحائطية -تلك التي تكبر ساعة الدارة في مدينتنا هناك ويتدلّى من تحتها العلم الثلاثي الألوان كأنه حزمة ضوء متدفقة منها- قد أشارت إلى التاسعة صباحا في بهو مكتب التسجيل الوحيد الذي يحتوي بابا داخليا مغلقا يفضي إليه وثلاث خزانات أرشيف وثلاث طاولات أولاها دائرية في الوسط عليها حزم ملفات والثانية بيضوية تحتلها موظفة ذات عمر معين وشابة بجانبها، لما ألقى الموظفُ الآخر الجالس إلى الطاولة المستطيلة الثالثة، نظرةَ ريبة عليّ. فقد حدجني من خلف الحاجز الزجاجي ذي الكوة الدائرية المقام فوق الجدار القصير الفاصل -لا أنسى الساعة ولا المكان ولا الوجوه- كأنّه يريد أن يتأكد من شخص غير عادي، أكانت ملامحي تتطابق مع التي رازها في صورة ملف تسجيلي قبل حين. ثم فصل وثيقة عقد الميلاد، من بين بقية وثائقي الأخرى، وهزها إلى أعلى بيد واحدة. وسألني دون أن يرفع إلي عينا:

«أنت هو أغسلان هنيفي؟»، من غير أن ينطق صفة السيد.

ولم يكن أيضا استعمل صيغة جمع المخاطب، كما تقتضيه اللياقة؛ إضافة إلى نبرته التي لم تخل من استفزاز منذر باشتعال شرارة مواجهة في هذا اليوم الأول من الالتحاق بالجامعة. لم يَفُتني أن الموظفتين تبادلتا نظرة استغراب. وانتهى إلي تهامس الواقفين في الصف خلفي - إني أتذكر مسيو ويلْ.

بكبحي ردة فعلي الآنية، رتبت بداخلي، في لحظة، ما كان علي أن أواجه به تَغطْرس الموظف الذي وضع الوثيقة ثم أومأ إلي برأسه آمرا بالمرور.

«أنا السيد أرسلان حنيفي»، قلت أواجهه.

فعصر وجهه باستهجان مَن يبغض شيئا مقرفا.

«من هنا. تكلم من هنا حتى أسمعك!»، قال مشيرا إلي بيد نحو الكوة.

لم أتحرك. «قصد الموظف أن يكسرني»، أقول الآن في هذه الليلة. لعل آثار الانفعال على وجهي هي التي شدت إلي انتباه الموظفة الشابة إذ قامت نحو زميلها ووقفت عليه فهمست له شيئا في أذنه. فحرك لها رأسه بموافقة. وأومأ إلي بيدٍ، كشرطي مرور، أن أفسح لغيري في الصف. فلم أتحرك، مرة أخرى.

«لا أقبل أن أعامَل بقلة لياقة!»، قلت مغضنا ملامحي.

فرفع الموظف إلى زميلته التي ابتسمت عينَ استغراب. وقام فجأة، رافعا ذراعية، كممثل على خشبة يؤدي حركة استنكار، مصعّرا لي.

«هاهاه! هذا كل ما كان ينقصنا منهم!».

ورمى نحو زميلته الثانية التي تواصل انكبابها على ترتيب ملفات.

«سيدتي! سمعت أنت أيضا؟».

فاكتفت بأن رفعت إليه نظرة فارغة. فتزحزح نصف خطوة يمينا. وركز زميلته الشابة، واقفة بجنبه.

«ماذا يريد هذا الأخرق!».

حتى ولو أقسم ذلك الموظف أمام قس على الكتاب المقدس، إن كان مسيحيا مؤمنا، فإنه كان سيكذب إن ادعى أنه لم يستبدل الأنديجان بكلمة

الأخرق - كذلك كان حاييم سيقول لي إذ التحق بي عند باب الخروج بعد قبول ملف تسجيله هو أيضا.

فقد ارتفعت أصوات من خلفي تعبيرا عن ضجر. فالتفتَ الموظف غير آبه بها. وتقدم خطوة باتجاه الحاجز الزجاجي. ثم انحنى.

«والآن! هل تفسح إلى السادة خلفك؟»، قال معززا نظرته إلي بتهديد.

اكتفيت بأن شققت ابتسامة امتهان؛ فيما نظرت الموظفة الشابة إلي بعين لم تُرِها مني، كما شعرت، غرابةً تميزني بدونية من أولئك الذين كانوا يقفون خلفي من الأقدام السوداء والأوروبيين، في ملابس إذا ما قورنت بملابسي الفصلية لذاك الخريف ظهرت أقل جذبا منها، مثلما قال لي حاييم إذ خرجنا. وكان الموظف، للباسه غير المتزاوج، يبدو كفزّاعة.

«الحمق كله مِن ممثل إدارة مثلك!»، قلت.

تراجع الموظف، كأنّما أصابته صعقة، بينما ابتسمت الموظفة الشابة لزميلتها وانشغلتا بما بين أيديهما. ثم دار، متداخل الحركات. وشد قبضته ليضرب بها على الطاولة فإذا شخص خرج من الباب الداخلي في بدلة وربطة عنق ونظارات طبّيّة. ووقف، مستفسرا عما يجري. فلم ينبس الموظف بكلمة. وجلس، متظاهرا بمواصلة ترتيب أوراقه؛ وكأن شيئا لم يحدث. ثم رفع رأسه.

«السيد هنيفي أرسلان. ملفك مكتمل. هيّا التالي، من فضلكم!»، قال مشيرا إلى حاييم بالتقدم.

في شارع شاراصْ، أسفل الجامعة، وقد غادرْنا منذ وقت مركز التسجيل، لم أُخفِ حاييم أني كنت هيأت أن أشتم الموظف،

المتعنْفِص، كما وصفته له، بما لم يسمعه عن أمه يوما وأخرج لأركب القطار راجعا من حيث جئت، لولا دخول ذاك المسؤول. فمازحني، كي يخفف عني انفعالي، بأنه لذلك اختار التوجه الصيدلي، بدل الفلسفة، حتى يسهل عليه في السنوات التي تنتظره، ولا بد أنها لن تكون أقل صعوبة وشِدة من أعوام الحرب الكونية الماضية، أن يركّب مستحضرات لتهدئة أعصابه، كلما ثارت؛ وأخرى للدفع به، بين وقت وآخر، حين يريد القيام بسفرات خارج جاذبية هذه الأرض التي تخربها حماقات أمثال ذلك الموظف.

وفي أول مقهى دخلناه في شارع ميصّوني، فقدمنا طلبيتنا للنادل الذي ظهر أنه من الأهالي، شعرتُ بانبساط تام. وبدا علي، كما لاحظ لي حاييم، أني نسيت ما حدث بيني وبين ذاك الموظف. وخلال تناولنا قهوة كْريم وخبزا بزبدة أستْرا، بادلت حاييم حديثا عن خيارينا الدراسيين. وعن أسباب ميل كل واحد منا إليه دون غيره من الخيارات المتاحة، بالنظر إلى نتيجتينا الجيدتين في البكالوريا. فتظرف لي، كعادته حين يكون مزاجه رائقا، بأن اختياري الفلسفة ينم عن رفاه فكري أيضا.

«أما أنت فحققت أحد حلميك. فبعد ست سنين ستصبح صيدليا!»، ردَدت.

ثم رفعت في وجهه سبابتي أذكّره:

«ولا تنس أن أغلب الفلاسفة صيادلة وأطباء.

- لأنهم سحرة!

- الفلسفة والصيدلة.. كلاهما سحر!».

ومثل حالمين، ساقَنا حديثنا إلى ما تتيحه الجامعة من انعتاق وانفتاح؛ بما تخلقه من طموح وتنميه من علاقات. وكنت بدوت أكثر حماسا من حاييم إذ قلت له إن الجامعة في عصرنا، لِما يجري فيه من تحولات اجتماعية وثقافية وفلسفية، تغدو الفضاء الوحيد الذي يمكن لنا أن نتحرر فيه من أي رقيب!

«مثلَ مسْيو ويلْ!»، قال يركزني بمكر.

وضحك. فبسطت له كفي فصفق عليها. ولكني تعمدت أن أتمادى.

«ومثلَ هذا القدَر الذي وضع لنا على كتفينا رقيبين على أفعالنا الخيّرة والشريرة يسجلانها للجزاء والعقاب!».

عندها، حرك حاييم رأسه ويديه معا بإيماءة كفى. فقد كان يخشى أن أدحرجه، كعادتي معه غالبا في مثل تلك المجادلات، إلى الإرادة والصدفة والخلق. وكنت أدرك أنه لا يحب أن يخوض معي فيها لأنه يشعر أنها تربك أساسات إيمانه.

«والقدَر هو الذي شاء لنا أن نفترق في اختصاصينا كي يكمّل أحدنا الآخر!»، قال حاييم معاندا.

«اسمع أنت! إلى متى ستظل أسيرا لهذه القناعة؟ هل تعتقد أن قدرك منشغل بك إلى حد أن يوجهك، كما آلة، إلى حيث لا تريد أنت!»، قلت أنكده.

«توقف!»، قال رافعا في وجهي راحته الشِّمالية كأنّه شرطي مرور.

وأغلق وجهه على تضايق مفتعل، محاذرا في الوقت نفسه أن ينفلت منه ما أضمره. ثم أمسك بفنجان القهوة وحركه، كما يفعل طفل بلعبة.

«قطار سعيدة -بيرّيگو- الجزائر، كان هو قدرنا لنكون الآن هنا!».

وتفرسني، مستغربا صمتي؛ أخالُه حارس حدود يرصدني. ثم زم شفتيه، محاولا أن يضغط إلى داخله ضحكته التي أفلتت وانفجرت؛ فترافقنا فيها إلى أن سالت دموعنا.

إثر تناولنا الغداء في بيت السيد بَنْگيگي، كنا حجزنا، بفندق الحديقة الواقع في حي بازْناف، غرفةً بسريرين وطاولة صغيرة وكرسي واحد ومغسل فقط. وكان المرحاض، في نهاية الرواق مشتركا. وكان ذلك أمرا مزعجا لنا. ولولا أن حاييم كان من المبكرين المتظمين جدا الذين تتوفّر أجسامهم على ساعة بيولوجية أكثر دقة من أي ماركة سويسرية، كما مازحته، لتكلّفنا شقاء. فافتعل لي، لينكدني، أنه يشعر بعطب قد يتطلب إصلاحه أسبوعا. وأنه لن يضمن لي أن يوقظني كما هي العادة. وذلك يعني أني قد أتأخر إلى ما بعد السابعة صباحا. وحينها فإما أن أعرّض نفسي إلى انتظار مقيت، مخجل ومؤلم أحيانا وإما أن أضطر، حين أدخل المرحاض، إلى ملء رئتَي بغاز الخردل على نحوٍ لم يستنشقه به غيري في الحرب الكونية الأولى!

كم وجدتُني أغار من حاييم كيف يعادل بين الجد والهزل بالشكل الأكثر طبيعية! فيما شعرت أنا غالبا بتيبّس مزاجي في ما يستدعي الانبساط. فتذكرت وجه والدي في حالاته الأشد جدية وصرامة، فغلّبتُ الجانب الوراثي على المكتسب؛ وأنا أدرك أنه مجرد تعليقٍ لعجْزي، عن بسط نفسي، على مشجب نفسية والدي. ولو أني كنت أجد في والدتي من الانشراح والعطف والإيثار ما يعطي جيناتي أن أكون أفضل مما أحسني عليه.

لكني ما لبثت أن تماثلت إلى أن ذلك الإحساس مني قد لا يعدو توهّما؛ فلم يصدر يوما من حاييم تجاهي ما أشعرني بأنه تضايق مني لكلمة أو إيماءة أو سلوك. حاييم، في مثل هذه الحالات، كان مرآتي وبارومتري.

عندما رجعت إلى نفسي ذات يوم في غياب حاييم الذي كان تواعد مع السيد بَنْكيكي لمراجعة أحد سماسرة كراء السكنات، عزوت سبب إحساسي بالتيبّس إلى انهمامي بما كنت أراه حولي من صور البؤس الأسود ومشاهده التي يظهر عليها الأهالي بين الأقدام السوداء والأوروبيين واليهود أنفسهم من التجار؛ كما عاينت ذلك رفقة حاييم ونحن نكتشف شوارع حي بازناف وسوق ميصّوني المغطاة وما حولها. لا بد من القول إني توقعت، مذ ركبت القطار، أن أجد مدينة الجزائر على مثالية اجتماعية وإنسانية أكثر مما هي عليه مدينتنا سعيدة ومعسكر.

كنا نتناول عشاء غير ساخن مكونا من خبز وجبن وعنب وسمك من نوع السردين المصبّر، حين أخبرني حاييم عن فشل مسعاه مع السيد بَنْكيكي في إقناع السمسار بتنازله عن دفع الكراء المسبق لمدة سنة. لذلك، في الغد، ولمدة أسابيع، رحنا نبحث من جانبنا عن أستوديو، بمطبخ وحمام ومرحاض، قريبٍ من الجامعة حتى نحصر اهتمامنا في دراستنا التي بدأناها ببعض الاضطراب.

لعله لمثاليتي كنت أتصور أن البؤس غير متفشٍ إلى الحد الذي يمس أبناء الأهالي من الطلبة أنفسهم قبل أن أكتشف في خلال تلك الأسابيع، في إقامة لُوكْلوب التي وُجّهنا إليها، حالةَ الإزراء الصادمة

التي عليها؛ لتضعضع أبوابها ومصاريع نوافذها وانبعاث روائح مراحيضها المشتركة الخانقة ورطوبة جدران غرفها المتآكلة وبقايا الأنفاس المثيرة للغثيان.

قبل خروجنا منها، سألَنا القيّم على مكتب الاستقبال، وكان يبدو للكتته من الأقدام السوداء، إن كنا قررنا، لأنه حسِب أننا ترددنا، بعد أن نزلنا من الطابقين العلويين حيث وجدنا طلبة من الأهالي من الطور الثانوي أيضا يتكدسون أربعة أربعةً في غرف لا تكاد الواحدة منها تكفي لشخصين. فاكتفيت بالقول إني سأرى. وكان حاييم جذبني من مرفقي فخرجنا.

غير أن ما سبّب لي وحاييم الصدمة النفسية الأخرى، في اليوم التالي، لما قصدنا إقامة ثانية توَجِّر غُرفها عن طريق لجنة الخدمات المدرسية والجامعية، هو ما واجهنا أعلى مدخلها. كانت اللافتة البيضاء تعلن بالخط الأحمر.

«هنا لا يُقبَل الأنديجان».

كلما تذكرتها، كما في هذه الليلة، أحسست رضوض وجداني ثارت من جديد. فتألمت مرة أخرى. وأرّقني كيف يكره الإنسانُ الإنسانَ، كيف ينَزّله إلى حضيض الاحتقار؛ فلا يسويه، في طعامه وشرابه، حتى مع الحيوانات - سيلين شوڤالييه نفسها كانت حدثتني مرة عن ولع عائلتها بتربية كلاب الحضن والبلدغْ وعن الأطعمة التي تحرص على اختيارها لها من المحلات المتخصصة.

وخلال الشهرين اللذين قضيتهما مع حاييم في حي بازناف، بفندق الحديقة، ظلت تحزنني صور الفقر والحرمان والتشرد التي عليها الأهالي،

بالقدر الذي أغاظتني العنصرية التي كانت غالبية الأقدام السوداء والأوروبيين تظهرها تجاه الأهالي المسلمين. وكان الغلاة منهم لا يزالون لا يخفون ذلك تجاه اليهود المتقيدين بألبسة الأهالي، من المسلمين، ومأكولاتهم ولهجتهم وغنائهم؛ حد أن يصعب التفريق بينهم؛ يشتري هذا وذاك اللحم نفسه من عند الجزار نفسه. ولا يقربون جميعا مطعما يقدم لحم الخنزير؛ ولو أن بعض المسلمين كانوا يرتادون الحانات، مثلي مع حاييم عشية السبت أحيانا.

وكنت لا أجد سوى غيظي أبديه لحاييم مما يظهره الأقدام السوداء والأوروبيون من ازدراء تجاه الأهالي يبلغ حد الإهانة؛ خاصة من يستخدمونهم في الحَمالة وفي التنظيف وكأنهم أقنان! ينهرون طالبي العمل منهم مثل حيوانات جرباء يجب أن تُبعد. ويشتمونهم. كنت أرى ذلك. فقد تذمر أحدهم لنا، أنا وحاييم، يوما لما صادف أنْ كنا مارِيْن أمام مغازته بعد أن صرخ في أحد الأهالي كان ينظف الواجهة بأن يتوقف ويرحل، معتقدا أننا، على الأقل، من الأقدام السوداء.

«هؤلاء الأنديجان الكسالى! لا يتقنون فعل أي شيء!»، قال عاصرا قطرة استهزاء.

فاكتفيت بأنْ هززت رأسي، مرددا في داخلي: «فما الفرق إن كنا جميعا من سلالة القردة!» بينما تظاهر حاييم بأن الأمر لا يعينه. وبعد أمتار، تحسر لي.

«كيف يقبل الضمير الإنساني بأن يستمر هذا.

– لا بد من صعقة عظيمة توقظه»، قلت لا أتصور كيف.

وفي المساء، جالسين متقابلين على سريرينا، نتناول عشاءنا البارد على طاولة الغرفة، لأن كرسيها الوحيد نستعمله بالتناوب في إعداد

العروض وتحضير الدروس التي تتطلب أيضا الاقتباس من الكتب، استعاد لي حاييم، بتأثر، مشهد المنظف الذي نزل من فوق سلّمه القصير، لصرخة صاحب المغازة، فحمله أفقيا على كتفه بيدٍ وبيد الدلوَ الذي رمى فيه الإسفنجة وانصرف، صامتا منكسرا.

وقال:

«لذلك لم أعتبر نفسي يوما فرنسيا!

– برغم أنك تتمتع بما يجعلك فرنسيا كامل الحقوق»، قلت بما في قلبي من صدق.

فاتخذ حاييم من وسادته مسندا لظهره على الجدار. وتراجع شارد النظرة. ليلتها، حدثني بأن والدته ظلت مثله لا تشعر بأنها فرنسية – وأنا طفل كنت لا أجد لها شبها يقرّبها من نساء الأقدام السوداء والأوروبيات.

وروى لي عنها، كأنه يقرأ علي من كتاب:

«ذات يوم حرنتُ كي أرافقها لتشتري لي بدلة الدخول المدرسي. أصرتْ. تقاعستُ. أخذتني من معصمي فتخلصت بما وسعتني قوتي. سكتت لحظة. كنت أعرف أنها تفكر في أمر تجبرني به. ثم ها هي تتوعدني إنْ أنا بقيت على عنادي منعتني لأسبوع من اللّعب معك. تلك كانت نقطة ضعفي. أنت تعرف هذا. لن أنسى ما قاله لها التاجر الذي دخلنا محله، وكان من الأقدام السوداء العنصريين. أنت تعرفه. صاحب دكان ملابس الأطفال في شارع گمبيطة. ولأنها جربت علي أكثر من لباس ولم يعجبها واحد، وهي في ثوبها العادي بالشَّدة على الرأس والشال على الكتفين والعباية الطويلة بالحزام والبلْغة المزركشة في القدمين، قال لها بتهكم: ولِم لا ترسلين ابنك إلى المدرسة في ثيابكم التقليدية أيضا!؟».

ومازحني بشأنها.

«لأن أمي كانت لا تنقصها غير الملحفة مثل جدتك وأمك!».

ونحن نتأهب للنوم، اعتقدت لحاييم أن ما يوهم بالتعايش بين الأقدام السوداء والأوروبيين من جهة وبين الأهالي من جهة ثانية ليس سوى سراب تُبْرِقشه مصالح الأقلية من أولئك؛ لحاجتهم إلى اليد العاملة الرخيصة من الأهالي في الزراعة والرعي وتربية الخنازير أيضا. فحرك رأسه بما دل على أن الأمر كذلك. ثم تبادلنا تمنياتٍ بليلة سعيدة.

عشية مغادرتنا فندق الحديقة، وقد دخلنا الأستوديو المفروش الذي اكتريناه بعمارة الصنوبر في حي تيليمْلي، نزل على قلبيا اطمئنان موسى؛ لأننا كنا حصلنا أخيرا على ما يضمن لنا الاستقرار لتتفرغ كلية للدراسة. كان حاييم أشد صرامة مني في احترام ما خططنا له من وقت للدروس والقراءة والمكتبة وتحضير الاختبارات ومن وقت آخر للراحة والاستعادة، نهايات الأسبوع خاصة.

ففي ظرف وجيز، توازنت حياتنا الدراسية. وظهرت نتائجي الأولية، في العروض والأعمال التوجيهية الإلزامية والتقويمات، جيدة؛ مثلما كانت نتائج حاييم في الصيدلة بكلية الطب. فلم ألبث أن أمسكت خلال السداسي الثاني بقيادي في قسم الفلسفة كما على رسن حصاننا في المزرعة إذ أوجهه في ذروة الركض.

مرة، وأنا واقف أصبّ من الإبريق فنجانَيْ قهوة المساء، تباسط لي حاييم، يوضب في الخزانة ملابسنا التي استرجعناها من البريسينغ، بأني صرت محل اهتمام في قسم الفلسفة. ابتسمت. كنت أحد

الأهالي الخمسة من بين ستين من الأقدام السوداء والأوروبيين في قسم تلك السنة.

«أنا أرى ما يجلب الانتباه إليك أيضا هو لغتك الفرنسية التي أجدها، قبل زملائك، متقنة دقيقة. مثل أسئلتك المنطقية وأجوبتك الواثقة ومجادلاتك الجريئة»، أضاف حاييم بتلك الفخامة التي أعرفها في صوته.

لغبطتي، فعلاً، قعدت على الكرسي وقمت. وحركت ذراعيّ في الهواء، كطفل يلعب.

«كفى يا حاييم! لا أتحمل منك كل هذا الإطراء!».

ذلك، لأن حاييم كان يتابع، كمستمع، محاضرات أساتذة متخصصين في ماركس ونيتشه وسارتر المثيرين للجدال. وكان يجد نفسه من وقت لآخر يتصفح كتبهم التي أعتمدها في قراءاتي وتحضيراتي في الأستوديو. أكثر من ذلك، غالبا ما حضَر إلى جانبي حين أخوض جدالا، في ساحة الجامعة أو في الكافتيريا، مع طلبة متحمسين للنقاش والجدال الساخن عن العنصرية والاستعمار، عن الإمبريالية والصراع الطبقي، والدين والعلمانية، والوجودية والالتزام، وعن الحروب والإبادات الجماعية، وعن السلام والحب، وعن السفلس والعازل الطبي والمضادات الحيوية وحبوب منع الحمل، وعن حرية الإنسان؛ وكنت أُعجَب ببعض زملائي من الشيوعيين في قسم الفلسفة، سيلين شوڤالييه خاصة، إذ يربطونها بحرية الجماعات والشعوب.

كنت مع حاييم، في كافتيريا الجامعة نستمع لأحد أولئك الطلبة واقفا مثل خطيب يتحدث عن الأهمية التاريخية لدحر النازية

والانتقال بالصراع في المستعمرات إلى مواجهة الإمبريالية العالمية لأنها المهمة الأساسية، لَمّا أشهرتُ يد سلام نحوه إذ جلس فانتبه إليّ مثل غيره على طاولات أخرى - لاحقا كان حاييم الذي ظلت سريرته النقية تبهرني نوّه لي في الأستوديو بأني كنت أظهر أيضا على أناقة لافتة.

«أعتقد أن الإمبريالية، بالنسبة إلى الشعوب المستعمرة، هي النظام الاستعماري الذي تدعمه الشركات والبنوك الرأسمالية وكبار الكولون. وتحميه الآلة العسكرية ومنظومة القوانين الردعية ضد أي محاولة لزعزعة أمره الواقع. إنه يكفي لنرى ذلك أن نلتفت من حولنا. فماذا يبقى، إذًا، لتلك الشعوب غير مقاومته بكل الوسائل لتقرير مصيرها وبسط سيادتها على خيرات أراضيها!»، قلت مثل خطيب أنا أيضا.

ولم أكن أنتظر أن يلهب تعقيبي وطيس النقاش. فإن طلبة آخرين دخلوا الكافتيريا كانوا دفعوا بقناعاتهم الممجدة للاستعمار بصفته حركة تاريخية لإخراج الشعوب المتخلفة من مرحلتها البدائية. وكان أحدهم، معتمرا بيريه أسود من النوع الذي اشتهر به الجنرال فرانكو، قد قام وواجهني.

«لا أرى في حسم مسألة إخضاع الشعوب البربرية للحضارة المعاصرة إلا مثالا واحدا يجب الاقتداء به هو الذي ضربه لنا أسلافنا الأوروبيون في أمريكا وأستراليا في تعاملهم مع همجية الهنود والأبوريجان*».

فرد عليه حاييم.

«بعض تلك الشعوب عرف الحضارة قبل أن تكون أمريكا وأستراليا الحاليتين».

* Aborigènes وتعني السكان الأصليين.

وقلت:

«من دمر ثقافة تلك الشعوب وارتكب في حق إنسانها جرائم إبادة متظمة غير الاستعماريين الأوروبيين».

فارتفعت أصوات من هنا وهناك مؤيدة وأخرى مناوئة؛ وسطها، وجدت نفسي في صدام لفظي مع صاحب البيريه الأسود سرعان ما فُض بتدخل من أطراف من الجانبين. لكن صاحبي، وهو ينسحب خارجا من الكافتيريا، رمى نحوي، ملتفتا:

«آمل على الأقل أن لا يكون هذا المدافع عن تلك الشعوب مجرد أنديجان!».

لا أدري اليوم أي شيء كان سيسفر عنه الاشتباك بيننا لو أنه وقع. فقد انفلتُّ من قبضة حاييم الذي طوّقني مانعا إياي من التقدم. بيدَ أن غيره كان أمسك بي من ذراعي بقوة، ناطقا لي بلهجة عربية.

«خلّيك منّو!».

وهزني من مرفقي.

«ذاك عنصري! أعرفه هو وجماعته.

- إنهم يحسبون أنفسهم أرفع منا درجة»، قلت بغضب.

«سترى أنهم لا يفوّتون فرصة لاستفزازنا متى أتيح لهم ذلك.

- كراهيتهم التي يكشفون عنها بدائية.

- وأكثر من ذلك مدّعية»، قال مبتسما.

ومد لي يده. فتصافحنا، بحرارة.

«الصادق هجّاس. كلية الطب.

- أرسلان حنيفي. قسم الفلسفة».

وأدرت وجهي.

«وهذا صديقي. حاييم بنميمون».

فتصافحا.

«قسم الصيدلة.

- نحن جيران، إذًا».

مثل استرجاع شعور بأمان، بدا لي فجأة أننا لم نعد وحيدين، أنا وحاييم. فقد وجدت الصادق، أيضا، ذا جاذبية لافتة، لقامته الطويلة ووجهه الجميل المثير للغبطة وصوته العميق، إذ دعاني:

«خلينا نلتقي!».

يوم لبيت دعوة الصادق إلى غرفته بإحدى العمارات المجاورة للتي نقيم فيها، أنا وحاييم، في حي تيليمْلي ذاته، وكنت دخلت، وجدت معه شابة قدمني لها.

«صديقنا أرسلان حنيفي. من قسم الفلسفة».

«حسيبة وصّال. من قسم الفيزياء والكيمياء والبيولوجية»، قالت تصافحني وقد سَرت من شدها على يدي حرارة في روحي أبهجتها.

لا أنسى ذلك؛ لأن ما أحسسته من حسيبة في تلك اللحظة لم يتبْني من قبل أبدا مع فتيات أوروبيات من ثانوية معسكر الأخرى للبنات إذ كنا نتصافح أحيانا على هامش اللقاءات والمسابقات بين الثانويتين؛ نظرا إلى السياج اللامرئي من المسبّقات المنتصب في نفوسهن عن الأهالي مثلي.

جلسنا، ثلاثتنا، متقابلين على كراسٍ حول طاولة فوقها كتب وقاموس طبي وأقلام ودفاتر. وعلى قهوة، تحدثنا عن مناطق إقامة كل منا. فقلت إني أتيت من مدينة سعيدة. فابتسمت حسيبة تنظر إلي باستغراب لذيذ؛ وكأنها لا تصدق أنه قد ينتقل شخص مثلي من تلك المنطقة البعيدة من أجل الدراسة في مدينة الجزائر. وسألتني كيف وصلت. فاختصرت لها مغامرتي في القطار. فابتهجت، قائلة إنها تتخيلها رحلة مثيرة – أسجل في هذه الليلة بشعور بالشجن أني لجاذبية حسيبة الساحرة هززت رأسي

فحسْب متوهما إياها للحظة في تلك الرحلة بجنبي في السروال الأزرق والكنزة الصوفية الصفراء تهفهف نسماتُ الشمال شعرَها الكستنائي السلس على تقليعة التسريحة نصف الطويلة السائدة في تلك الخمسينيات مبهورة بامتداد الحقول الغربية يغمرها ضياء الأصيل فهمست لها على رائحة الغابة تزداد انبعاثا كلما توغل القطار شَمالا كلاما عن أراضي مزرعتنا وحقول الجهة الشرقية منها إذ تحممها صيفا وأوائل الخريف أنوارُ الفجر الطالعة من خلف الجبال مثل جلّنار كوني.

«سعيدة لا بد أن تكون مدينة كبيرة»، قالت موسعة لي عينيها على صمتي.

«أصغر مما تتخيلينها»، أجبت.

وقلت إنها جميلة مثل تحفة. وهواؤها أنقى. وماؤها أعذب. فتمنت أن تزورها يوما. ووعدتني بأنها ستدعوني إلى زيارة حي القصبة العجيب حيث تسكن.

«القصبة هي المدينة الأصلية للجزائر التي بنيت على أنقاض رومانية. وما حولها لم يُنشأ إلا مع وقوع الاحتلال»، قالت باعتزاز.

وابتسمت لي وأنا أتابعها بانجذاب.

«للعمران يد في الفصل بين الأهالي وغيرهم المحتلين.

- ليس في مدينة الجزائر وحدها»، قلت.

«لكن للقصبة ذاكرة تقول لنا إياكم أن تنسوا أني الوجود الأصلي لكم»، أكدت حسيبة.

وقال الصادق، بلكنة أهل القبايل، إنه من تيزي وزّو. فوسّعت له عينَيّ، إعجابا؛ وقد ثار في ذهني حي الدرب بخليطه الإثني. فتحدثت

لهما، هو وحسيبة، عن زْواوة*، جيراني هناك، وهم ينافسون اليهود في حرفة الخياطة. ويسيطرون على صناعة معدات تحويل الصوف، مثل القراديش والمغازل والْخُلاّلات وقِطع المناسج. وكذا الغرابيل بأنواعها وأحجامها للحبوب والكسكس. وذكرت للصادق أن غرابيل جدتي كلها وقرْداشها ومغزلها وخلالتها من صنْع سي آيتْ، والد آكْلي زميلي السابق في مدرسة جول فيرّي. فضحك، معجبا.

قد يكون الحنين هو ما سوّل لي أنْ لو استمر الحديث في ذلك المجرى؛ لولا أن الصادق نشر على الطاولة كراسا. وكما في عرض، راح يشرح، موزعا نظراته بيني وبين حسيبة، حالة الأهالي الاجتماعية المزرية وحظهم من التعليم في المدرسة العمومية الأكثر إزراء. وبالأرقام، بيّن نسبةَ الأمية المتفشية بينهم ونسبًا أخرى كشفت عن الفارق الصارخ بين عدد أطفالهم المحرومين من المدرسة وبين غيرهم من أطفال الأقدام السوداء والأوروبيين الخاضعين إجباريا للتعليم العمومي؛ فاندهشتُ لذلك. وقال إن أطفال الأهالي في المدرسة لا يمثلون سوى حوالي عشرة في المائة بالنسبة إلى غيرهم.

«وتلك النسبة نفسها تتعرض، منذ التعليم الابتدائي، إلى إقصاء منتظم»، نطقت دون أن أسيطر على انفعالي.

«لذلك يمكن أن نعتبر أنفسنا نحن ثلاثتنا من بين الناجين من مقصلة الإقصاء! أجلْ. إنها مقصلة حقيقية تقطع أيضا حبل المعرفة عن الأهالي ليظلوا في الدرجة الدنيا التي رتبتها لهم الإدارة الاستعمارية»، واصل الصادق.

* سكان منطقة القبائل الأصليون.

فشعرت باعتزاز، لتزكيته قولي. فأنا، حتى مع حاييم، لم يسبق لي أن تكلمت في موضوع من ذاك القبيل. ولو أني كنت أشاهد مظاهره ونتائجه كل يوم وفي كل مكان به أهالٍ.

قالت حسيبة إنها المسْلمة العاشرة التي اجتازت عتبة البكالوريا مقابل مائة من الأوروبيين. فذكَرتُ أني كنت وحيدا من بين خمسة عشر، مستثنيا حاييم. واعتبر الصادق نفسه سابعا في مقابل ثمانين.

«وأنا دونكيشوت زمانه في سنتي الثانية بقسم الطب!»، أضاف مبتسما ممثلا بقلمه حربة الفارس ذي الوجه الحزين.

ثم أشار، بعقب القلم ذاته، إلى جدول بياني على الصفحة اليمنى.

«تسعة ملايين من الأهالي لم تُخرّج لهم، من أصولهم، هذه الجامعة منذ تأسيسها، قبل حوالي نصف قرن إلى اليوم، سوى مائة وستين طبيبا وصيدليا وسبعين أستاذا في التعليم الثانوي وخمسة وعشرين مهندسا وثلاثمائة وخمسين محاميا!».

وعدّل نظاراته إلى أعلى قليلا.

«عددنا نحن الثلاثة وبقية الطلبة المسلمين في الجامعة لا يتجاوز اليوم الخمسمائة مقابل خمسة آلاف طالب من الأقدام السوداء والأوروبيين».

وتوجه إلينا، أنا وحسيبة، أن نقدّر فارق النسبة. وأن نتمثل أنه إن كان طالب مسلم واحد من بين ثمانية عشر ألفا من الأهالي يلتحق بالجامعة فإن نظيره من الأقدام السوداء والأوروبيين يأتي من بين كل مائتين تقريبا!

وجدتُ لحسيبة، زيادةً على وجهها الندي الجميل، يدين بيضاوين عامرتين، مثل يديْ أمي، جذبتاني إذ وضعتهما على الطاولة لا تمسك على انفعالها، قائلة:

«ظلم تاريخي أن تكون نسبة عدد الأهالي، مقابل مجموع الأوروبيين والأقدام السوداء، تسعين في المائة، لتكون هذه النسبة هي نفسها من الأميين منهم!».

«ولا يزال الساسة هنا وفي المتروبول يتبجحون بشعار الثورة!*»، قلت بإحساس أني أرد على أحد الطلبة الأوروبيين خلال مناقشة عرضي حول الدلائل الفلسفية لثلاثية الشعار وألوان العلم الثلاثية.

كان أمرا مبهجا لي أنْ سخن الجدال بيننا، حول مسببات تاريخية أخرى لانتشار الأمية بين الأهالي. فقد نزع الصادق نظاراته بشماله، وبسبابته اليمنى وإبهامه ضغط على عينيه لحظة، ثم أعادها واستعرضَنا، أنا وحسيبة، كأستاذ ينظر إلى طالبين أمامه وهو يقول:

«الآن يبدو أنّ المطروح لم يعد المايمكن، بل المايجب!».

فلم أرْتَب في أنّ خلْف سن الصادق، وكان لا يفوقني إلا بعام، تجربةً أكبر منحوتة من حياة لم تقيِّض لي أنا شخصيا أطوارُها؛ هي التي جعلته يسبط علي هالة من الجذب. وكانت، كما فكرت، لا تتأتى من قراءات فحسْب ولكن أيضا من ممارسة ذات صلة بقوة بتنظيمية لم أخطئ في تقديري إياها إذ سألته إن كان المايجب موضوعا مطروحا للنقاش الفكري أم لمتطلَّبة سياسية.

---

* ثورة 1789 الفرنسية: حرية. مساواة. أخوة.

كان مثيرا لي جدا ردُّ الصادق بأن تفكيك خلايا المنظمة الخاصة* قبل حوالي سنتين والزج بمناضليها يتطلب إعادة تشكيل تنظيم قادر على مواصلة المطالبة بالاستقلال بكل الوسائل. فإني سمعت ذلك لأول مرة؛ ما أشعرني بخوف آخر مختلف، عميق وغامض.

ثم ها هي حسيبة، وأنا أتساءل كيف يغيب عني هذا، تتحدث عن مهازل المشاركة في الانتخابات النيابية المؤسَّسة على هيئة انتخابية أولى من الأوروبيين والأقدام السوداء والمجنَّسين من اليهود والمسلمين والأعيان، وهيئة انتحابية ثانية لبقية الأهالي، بصفتهم مجرد رعايا وغير مواطنين على أرضهم؛ لا تعْدل أصوات ثمانية منهم سوى صوت واحد لمنتخِب واحد من الهيئة الأولى. وعن كاريكاتورية النضال السياسي السلمي، في ظل الميز والظلم.

وتوقفتْ، ناظرة إلى الصادق، واثقة. وإلي، كأنّها تجيبني عن سؤال، قائلة.

«إن المايجب، لإزالة الظلم التاريخي، يتطلب ثورة مسلحة!».

لم أنطق كلمة ولا صدرت عني إيماءة؛ لشعوري بزلزال في كياني أحدثته عبارة ثورة مسلحة.

«لأنها الوسيلة الوحيدة»، قال الصادق مؤكدا.

وسألني أين أقيم. فتخيلت نفسي أطوف به تلك الإقامات وشوارع بارْناف فرأى ما رأيته أنا وحاييم وسمع ما سمعناه؛ وكنت لا أشك في أنه يعرف أكثر من ذلك. ثم تخلّصت، مجيبا أني حصلت مع صديقي حاييم على كراء أستوديو مفروش في العمارة المجاورة.

* وتعرف اختصارا بـ OS. وهي منظمة شبه عسكرية ضمت مناضلي الحركة الوطنية الداعين إلى المقاومة المسلحة. تم تفكيكها في عام 1950. وزج بأكثر من خمسة آلاف من مناضليها في السجون. وكانت خلاياها النائمة هي التي أعدت لحرب التحرير 1954.

«ذلك أفضل، حفظا للكرامة»، قالت حسيبة مغتبطة.

ودعاني الصادق، بعدها، إلى مرافقتهما في الأسبوع المقبل إلى نادي الطلبة المسلمين.

«ليكنْ!»، قلت.

وقمت فصافحتهما. ثم غادرت.

منذ بداية سنتي الثانية، صرت، كلما عدت من إحدى الندوات المقامة في نادي الطلبة المسلمين، أحدّث حاييم عما طرحه هذا العرض أو ذاك. أو ما خلّفه نقاش. أو عما وقع من ملاسنات. وكنت أصف له الأجواء التي يجري فيها ذلك كله بالمثيرة والمتوترة أحيانا.
فقال لي مرة، بمكر:

«إن كان ما تدور حوله الموضوعات مجرد وضع لِما تلقيناه من أفكار على منصة الجدال حتى نؤكد لأنفسنا قبل غيرنا أننا نساير الموجة فأنت وكتبك ونقاشك يكفيني!».

لم أعلق، لأني وجدت حاييم غير بعيد عن الحقيقة التي كانت تسود في النادي؛ إذ يغلب أحيانا الجانبُ المعايناتي على بعض العروض والمناقشات الجارية عن أحوال البلد ووضعية الأهالي تحت وطأة الاحتلال، وعلى بعضها الآخر انجذابٌ إلى الجدال النظري الدائر في الجامعة حول الوجودية. والكنيسة والشذوذ ودور المرأة الفرنسية الجديد، بعد انتزاعها الحق في الانتخاب قبل إلقاء أولى قنبلة ذرية بسنة وعن الحرب الباردة وبناء أوروبا. ولكن أيضا حول الولع بالموسيقى الجديدة الواردة من أمريكا الشمالية. وهوس المتعة والاستهلاك والدعوة إلى ثورة جنسية - شخصيا كان لي ما أندمج به في تلك العوالم المستنسخة من باريس لأني أملك اللغة والمكانة الاجتماعية

والمال أيضا فأكون أفضل من كثير من الأقدام السوداء والأوروبيين من الطلبة في محيطهم وأجوائهم تلك ولكني كنت كلما نظرت إلى ذلك بعين وإلى حال الأهالي بعين ثانية هالني الفارق الظالم.

ذات ليلة، عقب نهاية عطلة السنة الميلادية الجديدة، ونحن في المطبخ نحضّر العشاء، اقترحت على حاييم، الذي كان قبل أيام خرج من حداده على وفاة والده فحلَق شعره ولحيته، أن يرافقني يوم الأحد القادم إلى النادي. وأخبرته أن الصادق نفسه سيقدم عرضا. فابتسم لي، على هدوئه المعهود، راميا قطعة اللحم الثانية في المقلاة.

«وما دخل يهودي مثلي في نادي طلبة مسلمين!».

فتوقفت عن تقطيع حبة الطماطم في صحن السّلَطة. وأملت له رأسي، كمن ينظر جالسا من أسفل شجرة إلى رأسها، قائلا:

«وهل النادي مسجد حتى أدعوك إليه!».

فابتسم. ولكنه ظل ساكتا، يقلب بشوكة قطعة اللحم الأولى.

«كفاك يا حاييم! أنت تعرف أن صفة المسلمين السياسية يلصقها الاستعماريون بالأهالي مثلها مثل صفة اليهود منهم. ويسَمّون أنفسهم هم والأقدام السوداء فرنسِيّي الجزائر»، أضفت.

«فصاروا هم الجزائريين! وبقينا نحن الأهالي!»، قال حاييم ببداهة مخادعة.

والتفت إلي أخيرا. ثم واجهني بإيماءة تحذير، رافعا في وجهي الشوكة التي يقلب بها قطعتي اللحم.

«إياك أن تنسى أن هذا الذي تتحدث إليه هو فرنسي!

– برغم أنفك!»، ردَدت.

ونقعت بالخل الطماطم والبصل في الصحن، مضيفا.

«ثم لا تنس أن تطفئ النار تحت المقلاة!

- ليتني كسبت رأسا خشنة مثل رؤوس أجدادك!»، لاطفني حاييم ضاحكا.

ثم جلسنا متقابلين فأكلنا؛ وكان الحديثُ، عن تحضير امتحانات السداسي الأول لتلك السنة، هو الذي أكل منا.

صبيحة يوم الأحد، إذ وصلنا في لباسينا الشتويين إلى النادي الكائن قريبا من ساحة الدوق دورليان*، متأخرين قليلا لطول المسافة التي قطعناها إليه مشيا، وجدناه غص بالطلبة. فاضطررنا إلى الوقوف في الخلف، فاتحين معطفينا. كان الصادق قد شرع منذ لحظات في تقديم عرضه الذي، لسبْقنا في إثارة أهم أفكاره لبعضنا بما كنا نعرفه عن أوضاع الأهالي الاجتماعية القاسية في الأرياف وفي ضواحي الصفيح والأحياء الشعبية، لم يكن استثنائيا بالنسبة إلينا.

«ماذا تقول عنه؟»، همست لحاييم عن الصادق.

«يتكلم عن دراية، وبلغة غير متكلفة!»، رد منتبها.

لذلك، وخلال الثلاثين دقيقة التي استغرقتها بقية العرض، لم تكد تُسمع، من حين لآخر، إلا نحنحة أو كحة من هنا أو عطسة من هناك، في جو شتوي لم تكن القاعة تتوفر على ما يخفف من برودته داخلها.

حتى إذا أنهى الصادق، قائلا «شكرا على حسن الاستماع»، ارتفعت عشرات الأيدي بطلب الكلمة. فسجل مسيّر الندوة أسماء المتدخلين من الدفعة الأولى، الذين طرحوا، تباعا، أسئلة لم تَخل

* Duc d'Orléans. وكانت تسمى ساحة الجنينة قبل نزول الأتراك بالجزائر. ثم ساحة الشهداء بعد الاستقلال.

من تعاليق. وكان ما شد الانتباه، منها، هذا الذي قاله ثالث، بإيماءات تمثيل، مستعينا بيديه:

«إننا لا نعيش سوى وهْم كوننا طلبة جامعيين. انظروا إلى ما يتمتع به نظراؤنا من الأقدام السوداء والأوروبيين وحتى من بعض اليهود المجنَّسين في الجامعة نفسها! إني أسأل: إلى متى سنظل نعاني من هذا الميز السافر؟».

وسابع، بشعر طويل ولحية كثة:

«لذا سأضطر إلى الرحيل إلى إحدى جامعات المتروپول. ربما لن أكون الوحيد. هناك على الأقل لا يظهر التميز بالدرجة نفسها التي هو عليها هنا. ولكن يجب أن أسأل: لماذا هذا الفارق الاجتماعي؟ ومن يكرّسه؟».

وعاشر، بذقن لينين وصلْعته:

«يبدو أن صبرنا لن يدوم أكثر مما دام على استفزازات الطلبة العنصريين من الأقدام السوداء والأوروبيين والمتواطئين معهم في الإدارة وفي الخدمات الجامعية وبعض الأساتذة أنفسهم من بقايا الفاشيين. لذا أسأل: ما العمل لنرد؟ ومتى؟».

للغليان الذي أخذ يتصاعد وسط القاعة، من تعاليق وردود جانبية بأصوات مرتفعة أحيانا، اضطر مسيّر الندوة، كلما أكمل الصادق ردوده على دفعة من الأسئلة والتعاليق، إلى الدعوة إلى التزام الهدوء والتريث في أخذ الكلمة. غير أنه حدث، في أثناء ذلك، أن مكلفين بالتنظيم، وكانوا من الطلبة، أخرجوا بالقوة، وتباعاً، شخصين أخذا الكلمة عنوة؛ فها هو الأول يوجه كلاما لاذعا إلى الصادق عن صمته

على ما وصفه بالسلوك الفاشي لمليشيات الأحزاب الوطنية تجاه من يخالفونهم الرأي من الطلبة الأهالي أنفسهم ثم يصرخ وهو يُدفع دفعا إلى خارج القاعة:

«ألم أقل لكم؟ أنتم الفاشيون الجدد!».

وها هو الثاني، الذي يبدو أكثر حدة من سابقه، يصف الصادق بأنه يجسد هو وتياره النزعة التي تستخدمها الإدارة الاستعمارية في إخماد الغضب في قلوب الأهالي لمنعهم من النهوض من سباتهم الطويل. ثم يشير له بإصبعه، هزُؤاً:

«مثل هذه الخطابات التي تقف عند حد المعاينة هو التخدير بعينه!»، مضيفا «قلْ يجب أن يثور الأهالي! قلْ لا بد من رفع السلاح لإنهاء القهر!».

فأخذه من إبطيه شخصان قويان نحو باب الخروج، فيما اكتسحت وجه الصادق حيرة لاذعة.

«أحس ما يدور الآن في خلدك. اطمئن. فقد نجحتَ. سأخرج من هنا كما لم أكن إذ دخلت معك قبل ساعة»، همس لي حاييم.

«لا مفر يا صديقي! لأن مصيرنا مشترك»، ردَدت.

فقد لزم، ليستتب الوضع في القاعة، أن ينهض من وسطها وفي أطرافها ستة من الحاضرين؛ فصرخ بعضهم بطلب السكوت. ورفع آخرون منهم أيديهم بإيماءات الجلوس نحو من قاموا من كراسيهم. بعدها، حمل الصادق مِن فوق طاولة المنصة أمامه، حيث يجلس، مطبوعة فتحها على صفحة داخلية. ثم رفعها بشماله:

«هذه مجلة كونسيونس ألجيريان* التي لا بد أنكم تعرفونها وتطالعونها»، قال - لم نكن أنا وحاييم اكتشفناها بعد.

وأشار بسبابته اليمنى إلى ما بدا أنه اسم تحت عنوان، لم يكن لي ولا لحاييم أن نتبينهما جيدا.

«صاحب المقال أوروبي مسيحي. ولكنه ليس ككثير من الأقدام السوداء والأوروبيين المسيحيين الذين لم يكفوا منذ احتلالهم هذه الأرض عن احتقار أهالينا وإذلالهم. وها هم أحفادهم لا يتوانون لحظة عن استفزاز مشاعرنا. بل إننا نجدهم كل يوم يصعّدون من عدوانيتهم تجاهنا».

وضع المجلة أمامه، على صمت سُمعت له أصوات نوارس الميناء. ثم نزع نظاراته وأعادها في حركتين غير منقطعتين.

«من منكم في هذه اللحظات يشعر أنه يدْرس في الجامعة موفور الكرامة كما بقية الطلبة الآخرين من الأوروبيين والأقدام السوداء!»، قال بانفعال لا يكاد يخفى.

ثم رجا مسيّر الندوة أن يسمح له بدقيقة لقراءة مقتطف من المقال. فبسط له هذا يده بحركة موافقة. كنت أحس درجة غليان الصادق المكظومة. همست ذلك لحاييم. وانتبهنا.

«ذلك، لأن الطلبة المسلمين طرف اجتماعي غير مندمج في الجامعة. فقد أُدرجوا في كلياتها. وتم قبولهم كما يُقبل الوجع الذي لا مناص منه. وفي إمكانهم متابعة الدروس في كلياتها ومعاهدها.

* consciences algériennes حرفيا: ضمائر جزائرية. مجلة ذات توجه مسيحي معادٍ للاستعمار. تظهر كل شهرين. صدر العدد الأول منها في 1950.

ولكنهم معزولون عن الحياة الطلابية من طرف أساتذتهم، أحيانا. ومن طرف زملائهم، غالبا. والجامعة، كما الحياة الجامعية، لا تقدمان أي مبادرة لكسر الحواجز التي تقسّم الجزائر. بل إنهما تبلورانها وتدعمانها».

ومشط القاعة يمينا وشِمالا وعمقا، كأنّه في استخبار. ثم زحزح عن قفاه قليلا الإيشارب الصوفي.

«أشعر مثلكم أن ما قدمته في عرضي وما يلقيه المقال من ضوء على أوضاعنا لا يزيحان شيئا من حلكة الظلم والبؤس والميز التي يتردى فيها أهالينا ونعيشها نحن وكأنها قدَر».

إثرها، وقد نبّه مسيّر الندوة إلى أنها آخر المتدخلين، كانت حسيبة قامت من الصف الأمامي، بقامتها الرشيقة وتسريحة شعرها نصف الطويلة، في كنزة قطنية بيضاء ذات ياقة دائرية عالية. ونطقت، رامية إبهامها الأيسر خلفها فوق كتفها حينا وحينا سبابتها اليمنى نحو باب الخروج، أكثر ثقة مما كانت عليه وهي تناقش أو تسأل أو تقترح خلال الاجتماعات المضيّقة التي كنت أحضُرها في بيت عائلتها أو في غرفة الصادق.

«حتى من يكْبسهم إلى حد اليوم تردُّدهم في الالتحاق بمبادرة النضال من أجل إنهاء الاستعمار سيدركون أن واجبهم كطلبة وطنيين هو أن يعبّدوا الطريق إلى ذلك. وحتى من لا يزالون يتخبطون في وحل اليأس ومن فقدوا ثقتهم في شعبهم سيتعرضون لصعقة التاريخ الآتية تعيد إليهم وعيهم. هؤلاء وأولئك ملزمون تجاه ضمائرهم بتحليل موضوعي لما تتطلبه المرحلة».

وإذ التفتت، سألني حاييم:

«من تكون هذه الجميلة؟

- حسيبة»، أجبت فيما كانت هي تضيف.

«كم ستكون الطريقة شاقة من أجل أن نتخلص نحن وأهالينا مما نحن فيه من ظلم وقهر!».

وتولت نحو المنصة، كأنها تخاطب نفسها.

«تمنيت ألاّ أكون، كما اليوم، الطالبة الوحيدة هنا».

ثم نحو القاعة، أخيرا.

«ولكن كمْ ستكون باهِرَةً نِهايةُ الوصول!».

برفع الجلسة، وقد شرع الحضور في مغاردة القاعة، إلا بعض من تحلقوا في مجموعات صغيرة هنا وهناك يبدون لا يزالون في خضم النقاش الجانبي، اقتربتُ رفقة حاييم من الصادق بجانب المنصة يتحدث مع حسيبة التي ارتدَت معطفها.

«ما قدمتَه مهم ومثير!»، قلت.

فوسع عينيه، مبتهجا. وشكرني. ثم شد على يد حاييم بحرارة، مذكرا بلقائنا الأول.

حييتُ حسيبة.

«شجاعتك استثنائية!

- يسعدني سماع هذا منك».

وقدمتُ لها حاييم، بجانبي.

«صديقي ورفيق دربي وابن بلدتي حاييم بنميمون.

- حسيبة وصّال. أتشرف بمعرفتك!

- كل الشرف لي»، رد حاييم.

وتابعها وهي تنظر إلينا واحدا واحدا، راقصة العينين:

«قبل كل شيء. أنتم ضيوفي اليوم. أدعوكم إلى مطعم المسْمكة»، قالت بغبطة. ولم تنتظر أن نبدي لها ردا. فراحت تتحدث بحماس عن نجاح الندوة. ثم تأسفت عن المشاغبة التي حدثت. فقال لها حاييم إنّها عادية.

«ولكن النقاش كان غنيا ومثيرا»، قلت.

فاستغرب لي الصادق، بنبرة عتاب.

«لم تشارك!

- لأني كنت لا أملك ما أضيفه. ثم إني كنت أستفيد».

وتهرّبتُ إلى حسيبة، متظرفا لها.

«كنتِ في تدخلك أنيقة أيضا!».

شكرتني، بابتسامة ندية. وقالت:

«حرمتنا من سماع وجهة نظرك في مسألة ضرورات التغيير»، مضيفة بتلطف: «إنها من صلب اهتماماتك الفلسفية. أليس كذلك؟

- نويت أن أفعل بعدك لولا أن مسيّر الندوة أغلق النقاش لانتهاء الوقت المسموح به»، ردَدت مجاملا.

بينما أسعفني حاييم.

«كل شيء، برغم اختلاف وجهات النظر حتى تلك التي عبّر عنها ذانك الطالبان بلغة فجّة وقاسية، بدا لي روافد تصب في نهر وعينا الوطني.

- بالتأكيد. وسيثمر عن تغيير جذري»، ردت حسيبة بابتهاج على حاييم الذي أثنى على الصادق.

«ردودك كانت في صميم ما كان متوقعا. أُعجبت بها كثيرا.

- لم تتدخل!
- ماذا كنت سأقول؟ صدقا. أحببت أن أستمع.
- تتواضع!
- حقيقة. لقد كنت في عرضك كما في ردودك مثل أستاذ!
- أووه! شكرا».

ولمّا خرجنا، كان حاييم قد تأخر مع الصادق خطوات مواصلين حديثهما؛ بينما راحت حسيبة بجانبي تريني، بإشارات من يدها، مسجد سيدي إبراهيم البحري والمحلات التجارية والمقاهي وتمثال الدوق دورليان فوق حصانه، وقد قالت لي عنه بنبرة ثقيلة:

«كتلته مصهورة من معدن مدافع الجزائر التي تم الاستيلاء عليها خلال الاحتلال».

وحدثتني عن الساحة وعن سوقها للرقيق من الجنس الأبيض. وقالت:

«وهنا في مركزها كانت تنفّذ الإعدامات شنقا وقصلا ورميا بالرصاص في حق مقاومي الاحتلال من الأهالي».

وتوقفت فنظرت إليّ بجذوة سحرية، لا أنسى بريقها، أشعت من عينيها سكنت قلبي.

«هذا المكان يخبئ أسرارا أخرى عمن مروا من هنا من أجناس المحتلين الآخرين قبل الفرنسيين»، أضافت.

ثم دفعتني خفيفا من مرفقي.

وعندما دخلنا المطعم الذي بدا يقصده خليط من الأهالي ومن غيرهم من عمال الميناء والحرفيين والموظفين، فعلّقنا معاطفنا

على مشاجب حائطية وجلسنا متقابلين اثنين اثنين ثم قدمنا طلبية غدائنا التي تضمنت شُرْبة فْريك وسمك سردين وصودا كما اقترح الصادق، عاودت حسيبة بجنبه ترحيبها بنا. وأمالت نظرها إلى حاييم بجانبي، قائلة:

«حدَّثنا عنك أرسلان. وكنت تمنّيت أن نلتقي.

- وها نَا تْلاقينا!»، رد حاييم باللهجة العربية.

وكان الحديث قد أخذَنا، خلال تناولنا الغداء، إلى عائلاتنا. فذكَرت أن أهلي لا يزالون يحتفظون بما تبقى لهم من أراضٍ. وقال حاييم إن والده تنقل بين أكثر من حرفة، كتاجر صوف وصايغ مجوهرات فضية؛ ولم يقل إنه عانى من الميز أيام حكومة فيشي التي أسقطت عنه جنسيته قبل أن يستردها بعد انهزام النازية. كنت أعلم ذلك.

وقال الصادق:

«أنا من عائلة معلمين أبا عن جدا».

بينما روت لنا حسيبة أن والدها، لأنه تاجر، كان في نزاع دائم مع جار لهم من اليهود، بيده مكْس الأسواق، لتأييده كل فعل عقابي من الإدارة الاستعمارية بحق الأهالي عند تسليط الضرائب والغرامات عليهم، التجار الصغار منهم والحرفيين خاصة.

«وقد بلغ الأمر به أنْ هدد بمسدسه غير مرة شباب الحومة كلما سهروا أو لعبوا أو تجمعوا قريبا من سكناه قبل أن يختفي فجأة ثم يشيع خبر هجرته إلى فلسطين!»، أضافت بنبرة استنكار.

فانفعل حاييم لِما اعتقده تلميحا - كذلك اعترف لي في طريق عودتنا - وقال إنه شخصيا ليس من أولئك اليهود.

«لا! لم أقصد. لعلك تعرف أمثال جارنا أحسن مني»، قالت حسيبة متأسفة.

ومدت له يدها فشد عليها.

«أصدقاء؟

– وليس هـذا فقط. فجذورنـا من هذه الأرض»، رد حـاييم مستعيدا انشراحه.

كنت، وأنا أرى تلك الغبطة الطفولية التي غمرت وجه الصادق، أحس بريقَ عيني حسيبة الآسر يهدهدني بألف حلم.

لم تؤثر على هامش حياتنا الخاصة، أنا وحاييم، السنتان الثانية والثالثة اللتان قضيناهما بإصرار وجهد متزايدين لارتفاع نسق المقاييس الجديدة والندوات المغلقة؛ فدخلنا المسرح والسينما وتجولنا في الغابات القريبة وتنزهنا في الحدائق وسبحنا في البحر خلال أيام الربيع الساخنة وارتدنا الحانات وتعشينا أو تغدّينا في المطاعم خلال الويكند وتسكعنا أيضا في الشوارع من غير حاجة؛ ولكن لا شيء كان يجذبنا إليه أكثر مثل جذب المكتبات إيانا؛ نشتري الجديد من الكتب والمجلات، نقرأ بنهم، بمتعة؛ ونتجادل حول ما نحصّله، على كناشاتنا أو مفكراتنا أو كراريسنا وحتى على أوراق سائبة، من مطالعاتنا لأعمال أدبية وفلسفية وتاريخية وتجارب طبية.

وإن كنا، لذلك، ننشغل أكثر بالعلاقة بين الإنسان والطبيعة في تجاذبهما المتبادل، تحديا وصراعا، سيطرة ومقاومة، فإن هاجسنا، بالنظر إلى شرطنا التاريخي، ظل هو مآلات الإنسان، في قيده كما في انعتاقه، تجاه أنواع القوى القهرية والمهيمنة الزمنية منها والغيبية.

ولعله، لتمركز اهتمامي على أسباب الحروب ومخلفاتها وبالتوسعات الاستعمارية والاستيطان الجديد في فلسطين، ملت، أكثر من حاييم، إلى مطالعة مجلة هيستوريا وكتب التاريخ ومذكرات زعماء النزاعين العالميين الأخيرين وشهاداتهم.

كنت قد حملت شيئا من ذلك الانشغال في عطلتي الصيفية لسنتي الثالثة؛ أثرْت بعضه لجدتي لالّه ربيعة بنت الفُضيل وأنا أتناول معها، على الزرْبية في غرفة الجلوس ببيتها في الدرب، طبقا من الكسكس بالعسل والرايب حضّرته بيديها في قصعة خشبية صغيرة؛ فحدثتها عن أن مدينة سعيدة الحالية، لأني كنت قرأت ذلك في أحد الكتب التاريخية، لم تكن في الأصل سوى مجرد حامية بناها عسكر الاحتلال. فاكتفت بأن ابتسمت لي. فطلبت منها، لأني ظللت أتصور ذاكرتها تشبه خزانة مخطوطات قديمة، أن تفْرز لي واحدة من حكايات كثيرة تروى عن تأسيسها لم ينسجها خيال سكانها.

وانتظرتُ أن تؤكد لي أمر الحامية فحسْب؛ فإذا هي تضيف، بنبرة استصغار، أنه سرعان ما أقيم حولها سور نبتت داخله بعض السكنات البائسة - كنت أعرف مشاعر جدتي حين يتعلق الأمر بالمحتلين.

والحقيقة أني كنت اطلعت من قبل، خلال عُطلي غير السنوية، في أرشيفات قسم التاريخ بمكتبة الجامعة المركزية، على معلومات نادرة عن سعيدة القديمة التي بناها المحتلون. ونقلت، بقلم الرصاص على كراسة أعمال تطبيقية، رسما تخطيطيا لصورة لها داخل سور تبرز فيها بشكل خاص الكنيسة والثكنة والمستشفى، ورسما آخر لصورة ثانية لها من حولها سكنات تبدو مثل حبات الفطر وسط مد من الحقول. واقتبست فقرة تشرح أن اقتصاد المنطقة كلها يقوم على الزراعة والرعي.

وإذ عرضت الرسمين على جدتي تأملتْهما، في سكون. ثم أطلقتْ زفرة. وأومأتْ بسباتها، في حركة دائرية:

«كل الأراضي الخصبة التي تراها الآن في ملكية الكولون كانت سُلبت من أهالينا!»، قالت ذلك بوقع.

ونظرت إلي، ثابتة الوجه وكأنها صورة. لم أدر ماذا كانت تبغي مني. لعله لذلك ترددتُ قبل أن أذكر لها، مما كنت طالعته في تلك الأرشيفات، أن المعمرين الأوائل الذين استوطنوا منطقة اليعقوبية التي تُعتبر سعيدة مركزَها، هم الذين أُطلقتْ عليهم صفة العسكر الفلاحين؛ لأنهم كانوا تابعين للجيش الفرنسي، وكانوا مسلحين. وكان أغلبهم من الذين زُوِّجوا بيتيماتٍ وفتياتٍ من الملاجئ في المتروبول. ثم جيء بهم وتم التنازل لهم عن قطعة أرض.

«وهم في الأصل ليسوا سوى مجموعات من شذّاذ الآفاق والجياع الذين استولوا على أملاك غيرهم»، قلت منهيا.

وانتظرتُ. فاكتفت جدتي بأن رفرفت لي رمشيها فظهرا لي كفراشتين على زهرتي بابونج!

قبل تلك العطلة الصيفية، على إثر مناقشة مع الصادق عن قوانين مصادرة أراضي الأهالي بذريعة المنفعة العامة أو بحكم العقاب الجماعي ضدهم ردعا لهم على موالاتهم متزعمي مقاومة الاحتلال وعن طردهم إلى سفوح الجبال والأحراش ورميهم إلى الفاقة والمرض والانقراض، كنت راجعت في قسم التاريخ مصادر اهتمت بتلك القوانين. وقرأت في أحدها، على دهشةِ اكتشافي ذلك، أن نظام التنازل عن الأراضي في المستعمرة الجديدة صار يقضي بأن يكفي الراغبين في الهجرة من المتروبول إلى الجزائر، ليصبحوا معمرين، أن يكون الواحد منهم يملك موردا ماليا يبلغ ألفا وخمسمائة فرنك

قديم ليحصل على قطعة أرض لبناء مسكنه. وعلى قطعة أرض أخرى زراعية تقدر باثني عشر هكتارا. على أن يُضمن له هو وأهله السفرُ مجانا من المترويول وزادُ الطريق إلى نقطة وصوله حيث يجد ملجأ مهيأ يؤويه مؤقتا. ثم يُسلَّم أدوات البناء لإقامة بيته وكذا معدات فلاحية وبذورا وبهائم للحرث.

إني أذكر ما سجلته يومها، كأني أفعله الآن، على كراستي التي منها أسمعت جدتي: «تصورتْ حكومة باريس ذلك من بين الحلول الجذرية لتطهير المترويول من بؤسائها ومتشرديها والناقمين اجتماعيا والمتروكين لقدرهم والمسبوقين قضائيا وغيرهم من الحثالات». فنظرت إلي بما حوتْه عينا جدة من فخر بحفيد تراه يقارع النصارى بلغتهم ومعرفتهم.

ثم قامت. فتحركتُ. فأشارت إلي أنِ ابقَ مكانك. ورفعتِ القصعة الخشبية الصغيرة من فوق المائدة فحشْحسَ، في معصميها، رنين فاتن من أساورها الذهبية من نوع مْسيْبعات.

«يا أنت يا جدي! كيف لا أغبطك في قبرك على امرأة بدلال جدتي وأناقتها وجمالها! لا بد أنك رحلت عنها وفي قلبك جمرة عشق لاهبة»، ردّدت في نفسي فحسْب.

وإذ رجعتْ بصينية فيها إبريق وفنجانان من الفخّار، بتزاويق من النباتات بلون أزرق، وجلست فصبّت لي ولها انبعثت رائحة الشيح - إن ظللت لا أعرف ما لنبتة الشيح المقدسة من سر مع جدتي التي رأيتها كما في ذلك اليوم ترشق غصنا منها عند أذنها فإن نكهتها مشرَّبة بالقهوة أعطتني إحساسا بأن أوردتي صارت عروقَها وأن

جسدي تحول قطعة من الأرض التي أنبتتها فارتبط أريجها من يومها في ذاكرتي بشذى مسك جدتي يضوع من ملابسها البيضاء ووشاحها الأخضر بألوان الربيع مشوبا بياسمينها تدهن به وجنتيها البيضاوين العامرتين بلمسات سريعة من سبابتها تغطسها كما فرشاةِ رسمٍ في العلبة المعدنية الصغيرة في كفها فتبرق عليهما أوشامها الخفيفة التي أثارتني بسؤال عن والدتي كيف لا تشِم مثلها هي ذات الوجنتين المزهرتين كحبتَي خوخ في غصنهما!

وكما تمسك إبرة، بسبابتها وإبهامها، رفعت فنجانها من مقبضه. ففعلتُ بالمثل، لا أُزيغ عينَي عن وجهها؛ أنا الذي رأى وجوه سيدات أوروبيات جميلات ليست بملامح جدتي النبيلة.

ثم رشفتْ بالتذاذ، مازة شفتيها الممتلئتين المسوّكتين. فتخيلتُ ما لامستاه وأحستاه منذ أن سرت بينهما تلك الأسرار التي يخبئها فؤادها. وبهما أُخذتُ أخذًا وقد كانت تخرج من بينهما، كما من قلب زهرة، لغة مفتونة بالأمير يؤسس المدينة الأولى في اليعقوبية، رافعا قواعدها على الجبل الواقع إلى الجنوب. يحمل بيديه حجارة البناء. ويقطع أعمدة التسقيف. ويوجه، مثل أي مهندس، الأعمال لإنجاز مصنع البارود. ثم يجمع جمعه ويعلن أنه سماها باسم المرابطة لالّه سعيدة.

ومن إشارة بعينيها، تستفسرني إن كان ذلك يكفيني، أحسست سطوة جذب، نافذة وطاهرة أدهشتني عن أن أردّ؛ فحدثتني بأنّ أحد أجدادي روى لها يوما أن قائد الحملة الفرنسي لما وقف على دار الأمير الشخصية ذُهل. وصرّح لمن حوله بأنّه يجدها تليق بسمعة قائد كبير على ذوق رفيع.

أفلت مني لجدتي عجب؛ فقلت إني أجدها كأنما هي تترجم لي ما سجلتُه عن تلك الدار من مذكرات ذلك القائد! فنظرت إلي بافتتان. ففتحتُ على صفحة من الكراسة ورفعت إليها عيني منتظرا. فأومأت إلي بذقنها أنِ اقرأْ. فأسمعتها أنها كانت دارا من الطراز العربي تدعمها ركائز دائرية، ذات أرضية مبلطة بألواح من الرخام الأبيض وأروقة مزينة بالفسيفساء وحجرات مقببة السقوف، بنوافذ وأبواب مقوسة، وجدران بقوالب جصية نقشت فيها بإتقان كتابات بالعربية ملونة بالأصفر والأسود، في تناسق تام مع كل ما يظهر للعين من رونق.

ورفعت عينَي، مرة أخرى، لأرى رد فعْلها. فأمالت ناظرها عني، وقالت كأنّها تطرح تساؤلا:

«ذلك القائد كان يسمى الجنرال بيجو!

– فعلا! وهو الذي أمر بتخريب تلك الدار اللطيفة وإحراق المدينة الصغيرة!»، أجبت مبهورا.

وأضمرت لها: «أنت ساحرة يا جدتي!» فسألتني، وكنت أحدس أنها تختبرني، إن أنا أعرف لماذا. فلم أتردد لحظة.

«حتى يجنب جنوده أن ينزرع الشك في نفوسهم عند رؤيتهم إياها على تلك الحال في مثل هذه الأرض البعيدة التي أُخبروا عنها أن ساكنيها متوحشون يجب أن يُدخَلوا بالقوة إلى الحظيرة الإنسانية أو يبادوا.

– سُلالة! ليس في عروق حفيدي سوى دم سلالة الفرسان»، قالت بصوت لم يسكن صوتُ عِزّةٍ مثله مسمعي أبدا.

وعدت عينيها عني إلى الكراسة؛ في إشارة ضمنية منها إلى مزيد. فلمع لي ما كنت سجلته لَمّا بحثت في قسم التاريخ عن توسع

الاحتلال نحو السهوب. وقرأتُ ما قد كتبه نقيبٌ شارك في غزو المنطقة: «وبينما كانت مطاردة العدو مستمرة فإن العقيد دوڤو، بأمر من الجنرال بيجو، كان يكمل تهديم التحصينات التي رفعها عبد القادر. وبمجرد أن تم تدمير المدينة البدائية بدأ التفكير في بناء لارودوتْ، بسور يبلغ محيطه ثمانمائة متر وارتفاعه خمسة أمتار».

وقلبت صفحة أريت عليها جدتي، التي تابعتني برمشات خفيفة سريعة، رسما آخر لمدينة الأمير المخرَّبة، كما نقلتُها عن صورة قديمة. كانت تبدو من قمة الجبل مهجورةً منهزمة تحت قدمي الجنرال ورأسُ سيفه في قلبها. خلفها، مغارات تعود إلى ما قبل التاريخ. وإلى أسفلها، مقبرة سيدي الزهّار. وغير بعيد، في سهل الوادي، مقام المرابطة لالّه سعيدة، التي حدّثتني جدتي بأنها عاشت قبل حوالي أربعة قرون.

لكن دهشتي البديعة من جدتي كانت حين ترجمت لها من كراستي ما كنت سجلته عن تأسيس مدينة سعيدة الكولونيالية.

«بعون الله والإرادة الوطنية. نحن إمبراطور الفرنسيين في الحاضر والآتي. رسّمنا بمرسوم ما يلي: مادة 1. يُنشأ قرب وادي الوكْريف في المكان المسمى سعيدة، التابع لقسم وهران، مركزٌ لساكنة من الأوروبيين مكون من مائتي نار. ويُحتفَظ باسم هذا المكان. حرر في باريس يوم 4 جوان 1862. ناپليون الثالث».

فقد ركزتني، بِختْل رائق دغدغ مشاعري، قائلة.

«وهذا ناپليون هو أيضا يعرف الله!».

فلطالما وجدت جدتي، فوق وسامتها الساحرة، ذات بلاغة فاتنة، لا تُعرف إلا لخاصة من نساء الأهالي اللائي كن، قبيل الاحتلال،

من الموسرات ومن المتعلمات في الكتاتيب والزوايا. فإنها بقدْر ما أسِرتني بالقول، سرّحت لي الرسن فانطلقت معها إلى كل ما ينفتح لذهني من خيال ومشاعر واسترجاعات؛ الأمر الذي لم أكن أجده عند والدتي التي علمتُ دوما أن قلبها لا ينبض إلا على وقع حياتي.

وعند جدتي، لأن والدي طاوعها في أن أنتقل عندها لأدخل مدرسة المدينة مثل أبناء النصارى واليهود، عرفتُ في مدرسة جول فيرّي أقرانا لي، لم يكن لي أن أعرفهم في القرية القريبة من مزرعتنا لو أني دخلت مدرستها - إني أتذكر صديقي حاييم بنميمون ولد صائغ الفضة وآيتْ آكْلي ولد صانع القراديش والمهدي بوشجرة وولد الإسكافي وماكس باتيست ولد الكولون وزليخة النضْري بنت الفقيه ومعلم القرآن التي كانت تتنافس مع گولدا رفاييل بنت السارْجانْ إلى درجة التكارُه.

للعشاء، إكراما لي على ما أظهرته لها، كما بدا لي، ولا بد أنه كان هو الحقيقة، حضّرت لي جدتي طاجين الرُّقّاق بمرق من لحم الدجاج واللفت والحمص. ونحن نتناول باليد الرقائق المقطعة والممرّقة، سألتني:

«هل تذْكر؟».

لأن جدتي، قبل عشرة أعوام، كانت حضّرت لي الطاجين نفسه غداة نجاحي في مسابقة السنة السادسة للالتحاق بثانوية مدينة معسكر. فتوقفت عن المضغ، عاقدا حاجبيّ، مدورا عينيّ. وتظاهرت، بإيماءة من رأسي، أني لا أتذكر. فلاحقتني بنظراتها المثرِّبة إلى أن بلعتُ ما أتممت مضغه. وبسطت لها وجهي، قائلا إني لا أنسى أيضا مناسبة المولد النبوي. والديك المعروف بريش نوار الفول الذي ذبحه لنا موشي بو حاييم. ونصف الديك نفسه بمرقه مع الرُّقّاق الذي أوصلته في صحن من الفخّار لخالتي زَهيرة!

على نقْر حبات المطر مربعات نافذة المكتبة، في عمق هذه الليلة، استحوذ علي وجه جدتي، استحواذا لم أعرفه من قبل، وهي تقص علي، وأنا طفل في الثانية عشرة، نشأة النبي محمد؛ فرحت حينها أتخيل له صورا متسائلا أكانت تشبه صور الأطفال الصغار في سنه؟ وعمّ كانت أمه تحدثه؟ وما نوع الطعام الذي كانت تُعدّه له؟ وماذا كان يرى ويسمع؟ فعلى استنشاقي رائحة المسك التي تنثرها جدتي في فراشي الذي تُعده لي، أخذتني سِنة نوم فرأيت أطياف أطفال، ليسوا كالأطفال، في سن النبي، يلبسون الأبيض، وجوههم من نور، يرافقونه دون أن يراهم أحد أو يسمعهم سامع.

«لحفيدي ذاكرة قوية!»، ردت جدتي بفخر.

ووعدتني بطاجين رُقّاق آخر في عاشوراء القادمة أو المولد النبوي، إن صادف ذلك عودتي لعطلة. وقبل أن أقوم إلى غرفتي، حدثتها عن احتفاء أهل حي القصبة في مدينة الجزائر بالمولد النبوي بإيقاد الشموع وربط الحناء وإخراج الصدقات. ورويت لها أن حسيبة كانت دعتني، أنا وحاييم والصادق، إلى بيت عائلتها للغداء على طبق الكسكس متبوعا بالقهوة والطُّمينة وحَلوة التُّرك. فابتهجت. وأرسلت إليّ من عينيها فيض غبطة.

«وحفيدي محبوب أيضا!»، قالت قائمة ضاحكة.

خلال تلك العطلة، لأن حاييم دخل لمدة ثلاثين يوما في حداد على والدته التي توفيت قبل أيام، طفت وحيدا بأكثر من مكان في المدينة التي كان لنا فيه تذكار. لعله لذلك قضيت أكثر من ليلة على شعور بالكآبة والشجن قبل أن توقظني جدتي ذات صباح لتحثني.

«السائق عثمان في انتظارك! هناك ما ينتظرك في المزرعة».

3

1954. ليلة عيد الأموات الحمراء

خَمّنت، متوقفا للحظات أنظر في فراغ البياض أمامي، لو أن ما حدث في ليلة أول نوفمبر من تلك السنة، قبل اثني عشر عاما، لم يقدَّر له أن يحدث، أكان لي أن أجلس الآن في هذه المكتبة بكامل حريتي وأقف غدا صباحا كأستاذ في ساحة دار المعلمين لمراسم رفع علم كان القانون، قبل خمسة أعوام فقط، لا يزال يعاقِب على مجرد إشهاره على الناس.

وها أنا، كمن يستيقظ من حلم، وقد أخذت قلمي، ألاحق بسرعة مَن به لهفة، خشيةَ التلاشي، ما يعبُر ذهني من عودتي الأخيرة تلك إلى مدينة الجزائر، في خريف سنتي الرابعة التي وجدت في بدايتها جو الجامعة أكثر انقباضا مما تركته عليه لما غادرنا، أنا وحاييم، عند حلول العطلة الصيفية. كان ذلك بارزا للعيان من الحركات القلقة، من الأحاديث الحذرة ومن النظرات المريبة؛ في المدرجات، في المكتبة وفي الساحة والكافتيريا؛ في الشارع وفي وسائل النقل، كما في الساحات العمومية؛ ولكن أيضا لدى أعوان الأمن بالزي المدني، أولئك الذين لا يخفى على وجوههم التوتر ولا الاشتباه في نظراتهم، فوق الأرصفة، في الزوايا وأمام أبواب المقاهي والمطاعم والحانات وأحيانا داخلها؛ برغم تظاهرهم بما يُبعد عنهم أنهم من الأمن لأنهم مجرد عابرين أو جالسين أو واقفين يقرؤون صحيفة أو كتابا أو يشربون قهوة.

وأما المموَّهون من أولئك الأعوان ومن المخبرين فكان لي وحاييم أن نوسع من خيالنا كي نتصورهم في الحالات والوضعيات والملابس الأكثر ابتذالا. فقد أصبحنا نلاحظ ذلك منذ أن نخرج من الأستوديو في طريقنا إلى الجامعة، وحين ارتيادنا تلك الأماكن في تنقلاتنا، وأثناء عودتنا.

خْوانا طوريس، حارسة العمارة، نفسها صارت، إذ ترفع إلي عينيها حين أحييها، تلاحقني بنظرتها الخالية من أي تعبير إلى أن أضع قدميّ خارج الباب أو على الدرجة الأولى من السلم؛ كذلك كنت أحسها في ظهري. فقد كان يثيرني منها أنها لا تلبس إلا الأسود ولا تنزع عن رأسها الفولارة السوداء أبدا؛ لذلك كنت تعجبت لحاييم منها يوما فأجابني، وكان قد علم بذلك من أحد جيراننا الإسپان صاحب مخبزة الحي، أنها لم تخرج من حدادها الدائم الذي اتخذت منه صياما على مقتل زوجها ووالدها على يد الجمهوريين خلال الحرب الأهلية الإسپانية - أذكر أنها يوم قدّمنا لها نفسينا قبل صعودنا إلى الأستوديو في الطابق الثاني رمقتنا بعين سوداء قائلة إنها بمجرد أن قرأت اسمينا في الوصل الذي سلمها إياه مسيّر العمارة عرفت من نكون وأغلقت كل حديث معنا بعدها عدَا الرد على تحياتنا أحيانا وبشكل آلي.

ومثل خْوانا طوريس، صار بعض الجيران يمرون سريعا؛ وبالسرعة نفسها يلقون تحية أو يردون حين يقاطعونني في قفص الأدراج عند الصعود أو النزول، وحدي أو رفقة حاييم.

على أني وجدت كثيرا من الطلبة الأقدام السوداء والأوروپيين لا يخفون، هم أيضا، توجسهم من شيء خفي؛ ليس فحسْب بسبب حمى

شائعات سرت عن هجومات بالأسلحة والمتفجرات وشيكة الوقوع ولكن أيضا إلى افتتاحيات الصحافة التابعة لنفوذ كبار الكولون، من أرباب إنتاج الخمور والقمح والحمضيات، الداعية إلى قبضة أمنية أشد على دعاة الاستقلال وخنق كل حركة لهم في مهدها، مذكرة بهزيمة ديان بيان فو المذلة في شهر مايو الماضي.

فإني دُهشت لأستاذ المنطق والفلسفة الإغريقية الذي كان، في إحدى محاضراته، فتح قوسين تحدث بينهما، لأول مرة، عن خطر مُحْدق ولازب، إن لم يتم الاستباق إليه، سيهدد الآثار الحضارية والثقافية الأوروبية وإنسانها نفسه في أرض، مثل الجزائر، أخرجها من العدم إلى الوجود البشري بتضحياته وفكره ولغته. بل إني أحسست من ذلك صدمةً لم أخفها عن سيلين شوڤالييه بجانبي في المدرج إذ قلت لها، وقد خرج الأستاذ، إني لم أكن أنتظر من السيد فيليپ هنري أن يَحيد عن الموضوع بذلك الشكل المعلَن.

ردت بأنها هي الأخرى مندهشة مما اعتبرته لي انحرافا غريبا من الأستاذ. فهي، مثلي، تعرف السيد فيليپ هنري على استقامة إنسانية ونزاهة فكرية. فافترضت أنّ ذلك قد يعود إلى هذا الذي يشبه حال فزع عامة غير معلنة من شيء وشيك الوقوع ينتاب النخبة خاصة. فكشفت لي أن عائلتها هي الأخرى أمست تشعر بأن أمرا خطيرا سيقع في البلد، لا محالة. وكنا تبادلنا كتابين في نظرية علم الجمال والنقد الفلسفي. ثم خرجنا.

مثل حاييم، حصرتُ، منذ بداية شهر أكتوبر، جهودي كلها لمتابعة المحاضرات والأعمال التوجيهية الإلزامية والخضوع للتقويمات

الفصلية وإعداد العروض التي ازدادت وتيرتها ارتفاعا، لحجم المعرفة الذي تتطلبه؛ وهو ما استدعى الاستغراق في قراءات وتقييدات منهكة للأعصاب تكاد لا تنتهي؛ للإلمام بموضوع العرض وهضمه والاستعداد للإجابة عما يُحتمل من أسئلة تُلقى حوله خلال المناقشة التي غالبا ما تكون ساخنة، مثيرة ومستفزة أحيانا؛ من هذا الطرف أو ذاك؛ شيوعيين أو وجوديين أو عدميين خاصة - كنت أجدني متأرجحا بين التيارين الأولين المسيطرين.

وبتوالي الأيام، ازددت شعورا بأني أضحيت محل عناية خاصة من زملاء لي صاروا لا يتحرجون في مواجهتي بأسئلتهم، خلال اللقاءات في الكافتيريا وفي الساحة أحيانا وفي المكتبة أيضا، عن رأيي في نتائج سياسة الإدماج وفي الانتخابات؛ عن وجهة نظري في الشائعات التي تسري حول إنشاء تنظيم سري* يُعد لعمل مسلح. عن هذا ردَدت بين متشكك فيه، معتبرا ذلك مجرد أقاويل، وبين مبرر له، إن كان كذلك، لأن وضعية الأهالي لم تعد تطاق.

سيلين شوڤاليه نفسُها، وهي التي غالبا ما شاطرتني رؤيتي إلى قضية التحرر، لأنها من الشبيبة الشيوعية، سألتني بريبة إن كنت أتفق مع الداعين من الأهالي إلى إشعال فتيل حرب تحرير كالتي خاضها الفيتناميون ضد الوجود الفرنسي في بلادهم - فإن الصحف المحلية كما القادمة من المتروبول التي دأبنا أنا وحاييم في تلك الأيام على حصر ساعة لها قبل العشاء لمطالعتها كانت تخصص غالبية افتتاحياتها للتذكير بالهزيمة الإستراتيجية في فيتنام وآثارها النفسية على الجيش نظرا إلى حصائل القتلى

* اللجنة الثورية للوحدة والعمل، المعروفة اختصارا بـ CRUA (مارس 1954).

والمفقودين والمساجين خلالها داعية إلى استخلاص الدرس القاسي حتى لا يتكرر في مستعمرة الجزائر محذرة من أن يرتدّ إلى دعاة الاستقلال عدد الجنود الأهالي من فوج المشاة المسرَّحين من الكتائب الأولى والثالثة والخامسة الذين اكتسبوا في الحرب هناك خبرة ودربة وقتالية شرسة.

فقلت لها بلطف، لأني أدركت أنها لَمّحت إلى ما راج من تسريباتِ تحريات البوليس عن مخطط التنظيم السري*.

«وهل كنت أنت ستطرحين مثل سؤالك على فرنسي يدعو إلى تحرير باريس من النازيين؟

- لا أعتقد.

- إذًا! أنت، كشيوعية، ملزمة بأن تكوني إلى جانب أصحاب القضايا العادلة».

سكتت. فذكّرتها أن حزبها ظل يعتبر الحرب ضد الشعب الفيتنامي حربا قذرة وظالمة. فردت بأن الأمر يختلف. فسألتها إن كانت تلك قناعتَها. فاكتفت بإيماءة لا أدري. ونظرت إلي بما أوحى إلى أنها لا ترغب في استفساري عما يجري الاستعداد له حتى لا تحرجني. كذلك قدّرتُ.

فسيلين ظلت الوحيدة، من بين طلبة الفلسفة، التي تدافع عني في النقاشات الفكرية كلما شب خلاف بيني وبين بعضهم، من المسيحيين المتعصبين، حول الخلق من العدم ونشأة الإنسان ومصادر المعرفة. فهؤلاء كانوا لا يتناهون عن وصف سيلين بالملحدة. وأما أنا المسلم، بالنسبة إليهم، فكافر بطبعي - أبتسم لأني تذكرت أن جدتي كانت تطلق صفة الكافر نفسها على أي فرنسي.

* المشكل من سبعة مناضلين بقيادة محمد بوضياف الذي سيغتال كرئيس للجزائر في 1992.

وكانت سيلين تدْعمني في مجادلاتي خارج المدرج مع الأقدام السوداء من أولئك المسيحيين. ففي إحداها، وقد جرت في الكافتيريا حول مزايا اكتساب الهوية والمواطنة الجديدتين التي اعتبرتُها مجرد سراب لتكريس إرادة أقلية على مصير أغلبية، كان آلبرتو پاولي، أحد أولئك، وهو ناشط من أجل الإدماج بشروط، دعاني إلى الالتحاق بحضن أمه -غير البيولوجية طبعا- لأني في رأيه أمثّل نموذجا مثاليا لنخبة الأهالي ثقافيا ولغويا واجتماعيا. فردت عليه سيلين، لأنها من أصول فرنسية، بأن أمه هو ليست في الأصل فرنسية.

وضحكت.

«إيطاليا وإسپانيا ليستا سوى خالتين»، ناظرة إلي نظرة تظرّف.

فوجّه آلبرتو پاولي إليّ كلامه قائلا إني بلا أم. وقال صديقه پيرو سباتو، بجانبه، إن من بين وصايا مسيحيته الإحسان إلى الأيتام.

فسألت سيلين الأولَ:

«هل هناك يتم أشد شقاء من الإحساس بالغربة في بلد لا يرومك أهله؟».

فاكتفى بأنْ هنْهن.

«ما الذي يجعلك لا ترى أن غيرك الذي تبغي أن تشفق عليه لا يرى فيك سوى غريب وأنه يعرفك أكثر مما تعرفه أنت، لو لم يكن الأمر سوى انسداد الرؤية بضباب المسبّقات التاريخية؟»، قالت سيلين للثاني.

فحرك هذا ذقنه في اتجاهي.

«كيف لي أن أعرفك إن كنت لا تتحرك ضمن حقل رؤيتي؟».

ابتسمتُ. وكنت سأنطق: «اقطع البحر الذي جئت من ورائه. ثم التفت لتعرفني» لَمّا أخذتني سيلين من مرفقي. وواجهت پيرو.

«عليك أن تنزع نظارتيك الأخريين كي ترى غير ما تريد لعينيك أن ترياه لك!».

ونحن نغادر باتجاه المخرج الرئيسي، تفاجأتُ بسيلين تتمنى لي أن أكون يوما في صفوف حركة الشبيبة الشيوعية. فسألتها لماذا؟ فأجابت أن النضال من أجل إقامة نظام منسجم خالٍ من الاستغلال والميز، يتعايش فيه الأهالي مع غيرهم، يتطلب أمثالي.

«ذلك ممكن، ولكن بوسيلة أهم لإنهاء النظام القائم على المستعمِر والمستعمَر»، قلت ببداهة.

ولم أتوقع من سيلين أن تعبر لي بعينيها عن دهشتها. ثم تسألني.

«وما هي الوسيلة في تصورك؟

- حرب تحريرية!»، أجبت بلا التباس.

عندها، توقفتْ سيلين. ونظرت إلي، مجعدة جبهتها. فسوّغتُ لها ذلك بأن جميع الوسائل السلمية تكون قد استنفدت؛ فيما كان يمر بذهني ما دار بيني أنا وحسيبة والصادق قبل عطلة الصيف الماضية عن نضج ظروف الانتقال إلى عمل مسلح، وقد اطلعنا يومها على بيان اللجنة الثورية.

فأخذتني من يدي، مستأنفين سيرنا.

«أنت تذكّرني بأخي الطالب سابقا في السوربون الذي أعدمته الگستاپو لانتمائه إلى خلية مقاومة مسلحة»، قالت بنبرة شجن.

وأمام مَخرج الجامعة الرئيسي، توقفتْ. وطلبت منّي أن أنظر إلى سيل السيارات في شارع ميشلي وزحام الراجلين على رصيفيه من الأقدام السوداء والأوروپيين يكاد لا يظهر بينهم واحد من الأهالي في بداية مساء خلاله كانت الحركة قد بلغت ذروتها.

«يا إلهي! لماذا أشعر وكأن هذا كله وهم؟»، قالت بفزع.

ونظرت إلي بعيني طفلة ستجهش بالبكاء.

«أرسلان. ليتنا نبقى أصدقاء!».

فلم أحْر لها ردا؛ لتأثُّري. صافحتني فحسْب. وغادرتني، على حيرتي، في اتجاه البريد الكبير.

في مساء الجمعة الأخيرة من شهر أكتوبر، رجعت، على غير العادة، متأخرا إلى الأستوديو. فسألني حاييم السبب.

«كنت مع الصادق وحسيبة وشخصين آخرين مجتمعِين في بيت بحي بلْكور لما أُبلغنا بالمغادرة قبل دقائق من وصول البوليس»، أجبت على أثَر حال من الفزع، مزيحا لحاييم جانبا من ستار السرية - لا بد أن مسار حياتي كما أعتقد في هذه الليلة كان سيتغير على ما هو عليه اليوم لو تم إلقاء القبض علي مع المجموعة التي كان ذانك الشخصان اللذان لم أعرفهما إلا باسميها الحركيين من المبحوث عنهما: عمر وجمال.

تنهد حاييم، فحسْب. وقام فدخل المطبخ من غير أن يسألني إن كنت تعشيت. فولجت غرفة النوم. وبعد لحظات ناداني. وجدته واقفا يقلي بيضتين ما لبث أن أفرغهما من المقلاة في صحن على الطاولة التي كان فوقها خبز وعنب أيضا، ثم جلس يقابلني على الكرسي في پيجامته، مثلي.

«شكرا لك»، قلت.

لكن حاييم أبقى على صمته إلى أن أتيت على ثلثي ما في الصحن.

«يجب أن أخبرك أن مفاجأتي اليوم كانت أكبر مما يمكن أن يسببه أي شعور بالفزع»، قال بجدية خلتُها مفتعلة.

«حاييم. تستطيع أن تتفكّه ما استطعت. أطْلقْ عنانك!

– لا! بصدق. لم أكن أنتظر أن أرى گولدا واقفة في انتظاري عند خروجي من مخبر التجارب في منتصف النهار!».

وضعت الشوكة. ومسحت بالمنديل على فمي. لم يكن في ملامح حاييم أثر لقلق؛ بل غلالة مسرّة هادئة ذكرتني بحال فرحه وهو يخبرني، لما كنا في الطور الثانوي، عن رسالة جديدة من گولدا استلمها ضمن البريد المحفوظ من پوسطة مدينة معسكر. فگولدا كانت تدْرس وقتها في ثانوية پاستور بمدينة وهران.

«گولـدا تلك الطفلة المشاكسة! مضى دهـر لم أرها. لا بـد أنهـا صارت امرأة»، قلت لا أتخيـل لها سوى وجهها الصغير وجسمها الهزيل.

«سألتني عنك.

– جاءت من سعيدة؟

– من مارسيليا. نزلت أمس من الباخرة. وغدا تسافر بالقطار إلى هناك»، قال بنبرة لم تَخل من تحسر.

وحدثني عن نصف يومه معها بين المطعم والمقهى والحديقة. فسألته عن أحوالها، فاعلا ذلك مجاملة.

«يبدو أنها قطعت دراستها الجامعية هناك في المتروپول والتحقت بشركة استيراد أنواع الجوخ والكتان الرفيعة، لصاحبها السيد بنگيگي، بصفتها ممثلة لها في الغرب الوهراني. فالسيد بنگيگي هو الذي يستضيفها، لعلاقة قرابة بينه وبينها من جهة جدتها لأمها المقيمة في مرسيليا»، قال بتتابع سريع أثار استغرابي.

«فقط! هذا ما عندك تخبرني به؟»، قلت رائزا إياه بمكر.

«قبلة خفيفة في حديقة التجارب. ولا شيء بعدها! أنت تعرف. نحن أشد منكم تزمتا في مسائل الجنس قبل الارتباط الشرعي»، رد مهربا بسمته.

ونبهني إلى أنه سيغسل المواعين. كان ذلك يعني أنه لا يريد أن يواصل. فحسمت له أنه لا يمكن. وقمت إلى المطبخ. حتى إذا عدت إلى غرفة النوم وجدت حاييم دخل سريره وبين يديه كتاب التوراة الذي غالبا ما يقرأ منه حين يكون في حالات من الحزن أو التوتر.

ابتسمت. قلت في داخلي إنها ليلة مقدسة. كنت أعرف أن حاييم غسل يديه ووجهه قبل أخذه كتابه. دخلت الحمام فتوضأت وعدت فأنزلت من دولاب الملابس مصحفي؛ هدية والدتي الثمينة. وفي سريري فتحت على الصفحات الأولى. قرأت بصمت لدقائق قبل أن يشغلني أنْ لم نكن، أنا وحاييم، تجاذبنا حديثا حول ما نقرأه من مقدس! إلا ما تعلق، من حين إلى آخر، بقصص الأنبياء وبالخلْق والموت والمقابر أيضا. ولا وقع يوما أنْ حاول أحدنا رد الآخر عن دينه؛ واجدين ذلك من سلوك عائلتينا ومن غيرهما من المتجاورين من المسلمين واليهود في الدرب خاصة.

في أثناء ذلك، كان حاييم قد أغلق كتابه وهمس.

«فلْتطب روحانا المعنّيتان بما قرأناه!».

تخيلته ناسكا يأتي صوته من كهف.

«ولينعم به جسدانا المتعبان»، قلت.

وتمنيت له ليلة طيبة. ثم أطفأت النور.

صباح عيد الأموات المصادف ليوم الاثنين أول نوفمبر الذي تلا تلك الجمعة، لم تردّ علينا خوانا طوريس التحية ولو بإيماءة. كانت

واقفة داخل بوابتها ملصقة بأذنها مذياعا؛ فوق رأسها الساعة الحائطية تشير إلى العاشرة. فأبدى لي حاييم استغرابه، وقد خرجنا:

«أجد السيدة خوانا على تشوش غير معهود!

– احتمال أنها كانت تتابع تمثيلية صوتية.

– في العاشرة صباحا؟

– لا بد أن تكون حرب العوالم بصوت أورسن ويلز!».

فضحكنا. وعرّجنا على كشك الجرائد الذي فاجأنا، إذ وقفنا أمامه، بأن جميع الصحف، المعتاد بقاؤها إلى أن تلحق بها صحف المساء، نفدت. وأن ما كان معروضا منها ظهر مضروبا، على صفحاتها الأولى، بشريط مائل أو أفقي كتب عليه «طبعة خاصة».

لِمانْشيت «ليلة عيد الأموات كانت حمراء»، بالنبط الغليظ الأحمر وتحته بالأسود «عمليات دامية في مناطق كثيرة من الجهة الشرقية للبلاد نفذها خارجون عن القانون»، وكان يظهر على صدر الجريدة التي نطالعها باستمرار، اقتنينا نسخة واحدة من خمسة عناوين. ثم دخلنا أول مقهى في طريقنا. حتّى النادل نفسه، حين أخذ طلبيتنا كما لما وضعها أمامنا، بدا منغلق الوجه. فلا أحد من الزبائن، كما عاينت ذلك، كان يُرى وهو لا يقرأ جريدة أو لا يتحدث بعصبية.

ونحن نرشف رشفات متقطعة من فنجانينا، تبادلنا الصحف، مكتفيين بقراءة المامنشيتات.

«هجمات مسلحة في الشرق القسنطيني والغرب الوهراني طالت منشآت عسكرية ومحافظات للشرطة ومخازن ومبانيَ عمومية ووسائل اتصالات».

«ليلة رعب بين الأحد الحادي والثلاثين من أكتوبر والاثنين أول نوفمبر ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين».

«الوضع خطير. قتلى وجرحى في صفوف قوى الأمن والمدنيين».

«المهاجمون في منطقة الأوراس يقتلون ضابطا سابقا من الأهالي في صفوف الجيش ومعه معلما فرنسيًا».

«قوات حفظ الأمن مدعومة بالجيش تتدخل للسيطرة على الوضع».

وفيما همس لي حاييم، حذَر أن يسمعنا القريبون منا المتحدثون بأصوات متشنجة متداخلة بلكنة الأقدام السوداء المشهورة بغنّتها، أن الأمر يبدو جديا حركت له رأسي أنْ نعمْ، فالتفت أحد الواقفين عند الكنتوار:

«سنسحقهم كالذباب!».

فتساءل صاحب المقهى خلفه بجانب صندوق القبض:

«مَن يحرك هؤلاء البونْيول* غير أيادي الكاجيبي وبقايا الگيستاپو ومصالح القاهرة السرية!».

وتعالت أصوات من هنا وهناك، في القاعة:

«لو كانت القيادة العسكرية بيدي لخوزقت كل هؤلاء الساسة الجبناء هنا وفي المتروپول».

«أيعقل أن ترتعد فرنسا العظيمة لمجرد مفرقعات أطلقتها شرذمة أنديجان!».

«أنا لا أرى مستقبل هذا البلد بين أيدينا إلا مشرقا».

«أنت لن ترى شيئا بعد اليوم سوى الدم».

وسط ذلك، تقدم حاييم نحو الكنتوار ودفع؛ فيما سبقتُه نحو باب الخروج.

* Bougnoules صفة استعمارية شاتمة جدا في حق الجزائريين وسكان المغرب العربي.

منذ حوادث ليلة عيد الأموات، كما أذكر، وحتى الأشهر الأولى التي تلت، من العام الجديد، بوتيرة أشد مجابهة في الأرياف والجبال، تزايد الشعور، ليس لدي أنا وحاييم فحسْب ولكن عند الناس جميعا، بأن كل شيء لم يعد كما كان بين الأهالي وبين الأقدام السوداء والأوروبيين الذين صاروا يتدرعون بالشرطة والدرك والجيش. ويظهرون في المزارع والقرى بالأسلحة في أيديهم، كما حصل في حوادث سطيف قبل عشرة أعوام. كانت الصحف تنقل ذلك بالصور.

فقد امتدّ الأمر إلى الجامعة التي ما مر علي يوم آخر فيها إلا وجدت أن طلبة آخرين، وحتّى الأساتذة أنفسهم، ينحازون للاتجاه العسكري والقبضة الأمنية. كان ذلك يسفر في الأحاديث وفي المحاضرات المنظمة، على هامش الدروس، التي أحضُرها وفي مناقشاتها. وينتشر كصدى في الصحف التي لا تخلو أعدادها من نقل، بالصور أحيانا، للعمليات المسلحة في شرق البلاد ووسطها وغربها. ولا من نشاط البوليس في المدن. يدعم ذلك كلَّه الحواراتُ والمساهمات والاستطلاعات والروبورتاجات المشِيدة بالإجراءات الردعية في حق الأهالي المرفَقة بحملات التفتيش والتوقيف التي كانت تثير بيني وبين حاييم نقاشا ينتهي كل مرة إلى النقطة نفسها: لا مفر من الحرب، حتى النهاية!

في يوم لاحق، ونحن نخرج من الكافتيريا إثر مناوشة كلامية بيننا وبين آلبرتو پاولي وپيپرو سباتو وآخرين، حول إمكانية التعايش من استحالته بين الأهالي من جهة وبين الأقدام السوداء والأوروبيين من جهة ثانية، أصررت لحاييم على أنه لا شيء من ذلك بات ممكنا في ظل هيمنة أقلية على أغلبية.

«ولن تزيد هذه الحرب الجارية الآن هوةَ الفصل إلا اتساعا»، أضفت بقناعة.

«أتدري؟ منذ الصبيحة التي تلت عيد الأموات لازمتْ ذهني هذه الصورة التي ترتسم لي فيها هيئة تشبه حشْرا تنسلّ منه كتلتان بشريتان غير متكافئتين عددا. كل واحدة بملامح وعلامات مختلفة. وإذا أنا أراهما تتواجهان على طرفي جسر وسطُه آخذ في التصدع»، قال حاييم بهدوء واثق بينما كنت أتخيل ذلك كما لو كان على شاشة.

ومثل نهاية فيلم، كان النقاش بيني وبين آلبرتو پاولي وپييرو سباتو قد توقف. فهما وغيرهما، من قسم الفلسفة، ما لبثوا أن ابتعدوا عني وعن حاييم نفسه مسافة؛ إلا سيلين عني. ولم يعد بعضنا يحيي بعضا إلا مجاملة.

وكلما خلوت إلى نفسي، في مكان ما من الجامعة أو في طريق رجوعي إلى الأستوديو وفي داخله في غياب حاييم، أحاطت بي ظنون سوداء عن الأهالي إن كانوا يستطيعون تحمُّل عبء حرب استنزاف بأرواحهم وما يملكون؛ غالبا ما خفف وطأها عني وجه حسيبة أستحضره هو وصوتها الغامرين بهذا الإيمان في بلوغ النهاية الباهرة، كما تقول؛ تتراءى لي وكأنها تهيئ قبل أن تنام لأمر كالعيد يحدث غدا، مرددة بنبرة صلبة، أكثر مما يفعله الصادق بين اجتماع وآخر، أن في هذا البلد شعبا، بالمعنى الحصري للأهالي، ينهض الآن لتأدية فعل فرضته حركة التاريخ.

هو ذاك الذي ظل، في جانب منه، يشحن عزيمتي على أن أنهي سنتي الرابعة والأخيرة في وقتها؛ برغم تصاعد درجة الكراهية حتى

عند الأستاذة أنفسهم. فإن ما سبب لي إحساسا بالإقصاء المؤلم، كما كاشفت حاييم، هو تشدد الأستاذ فيليب هنري معي؛ لا في التقويمات فحسْب ولكن أيضا في المناقشة. فإنْ هو رد على أسئلتي أو تعليقاتي سفّه رأيي حينا. وحينا تجاهلني.

«ذلك يحرق أعصابي»، قلت بمرارة.

فقد كنا على مائدة العشاء، ليلة تأهبنا لخوض غمرة امتحانات آخر السنة.

«ولكن يجب أن أقاوم حتى آخر يوم من هذا السداسي الأخير. لأن ضمان النجاح النهائي، في خضم هذه الحال من التشوُّش البالغ الذي تعرفه الجامعة، أمسى قضية»، أضفت.

ففاكهني حاييم، كعادته، ليخفف عني؛ ذلك أنّي كنت أشعر بالقلق، فعلا:

«وستنتهي مقاتلا من أجل القضية الأخرى. وسأجدني متورطا معك.

– رغم أنفك! لأنها قضية مشتركة سندخل معركتها قريبا».

وبعد أسبوعين من ذلك، مبتعدين عن سبورة النتائج التي ظهرت كما توقعناها:

«أن نحصل، في هذه الظروف المضطربة، على مقاييسنا واحدا واحدا، يعدّ مقاومة تدعم نضال أهالينا الآن»، قلت لحاييم بإحساس أن الجامعة صارت فجأة تذكارا بالنسبة إلي لأني كنت أراني أتولى عنها كما لو كنت في كابوس.

ودعوْته إلى الغداء في مطعم مغارة علي بابا بشارع ميصّونّي؛ لاطمئناننا إلى أن صاحبه اليهودي لا يقدم لحم الخنزير.

بين المدخل والطبق اللذين طلبناهما بسَلطة متنوعة وأضلاع خروف مشوية وبطاطا مقلية وعجائن مع نبيذ أحمر، انشغلنا، مرة أخرى، بأصداء وقائع الاشتباكات المسلحة في الجبال التي، كما كانت تنقله الصحف، أصبح يتدخل خلالها الطيران والقوات المحمولة جوا.

ثم سرعان ما سيطر على حديثنا تصاعد ردود أفعال غلاة الأقدام السوداء والأوروبيين العدوانية في كلية الطب وقسم الصيدلة، الذين شبههم لي حاييم بالشبيبة الهتليرية؛ لعدوانيتهم التي يظهرونها تجاه زملائهم من الأهالي غير المجنَّسين خاصة.

وقال:

«ثلاثة منهم ظلوا إلى نهاية السنة يتعرضون لمقاطعة أولئك الغلاة ومضايقتهم بالتشفي والاستفزاز والتهديد بأن يكون مصيرهم مصير من يشهرون في وجوههم صورا لهم مقتولين أو مأسورين مقيدين بالسلك على صفحة هذه الجريدة أو تلك».

أذكر أن تلك الجرائد كانت استبدلت عبارة «الخارجون عن القانون» بصفة «الإرهابيون»، مثلما كانت صحف نظام ڤيشي تصف المقاومة الفرنسية.

«أحد أولئك الثلاثة تعرض قبل أسبوع إلى اعتداء جسدي عليه في دورة المياه»، أضاف حاييم.

فعبّرت له عن اعتقادي:

«لا بد أنه فقد أعصابه.

– بالعكس! لأنه رفض أن يردد معهم شعار الجزائر فرنسية. وهيّجهم عليه أنه ابتسم. ثم نطق الجزائر جزائرية».

من جانبي، حدّثت حاييم عن سلوك أستاذي، فيليب هنري، المفاجئ إذ قاطعته في أحد أروقة القسم البيداغوجي فاستوقفني وسألني عن أحوالي. فردَدت: «لا بأس شكرا» كما يُلقى سلام. فرمى لي أنه يعرف أن الجامعة أعدّتني لأقاومها كما يفعل الخارجون عن القانون - ولم يقل «الإرهابيون». ثم صافحني، مهنّئا إياي بنجاحي.

«لأنك تستحق برغم كل شيء»، كما قال مواصلا طريقه.

على أن ما كان لافتا في المطعم، مثلما يعاين ذلك من يدخله للتو، هو أن الطاولات، وكانت كلها مشغولة تقريبا، لم تكد تخلو من جريدة على الأقل، يطالعها هذا أو تلك ممن هم في الانتظار أو من ينهون غداءهم بقهوة أو مشروب كحولي مهضِّم؛ مثلي وحاييم بجريدتَيْ آلجي ريبيبلكان وإيكو دالجي*؛ اللتين سبق أن لاحظنا أن خطيهما الافتتاحيين تحولا، غداة ليلة عيد الأموات، من النقيض إلى النقيض؛ واجدين الجريدة الثانية لم تعد تُصدر عددا إلا بافتتاحية جديدة تؤكد مرة أخرى على الجزائر الفرنسية. تلك هي التي بسطها حاييم أمامي، ونحن ننتظر التحلية. وقدم رأسه نحوي، ليُسمعني:

«فرنسا، بفعل إعلان حالة الطوارئ منذ الحادي والثلاثين من مارس الماضي، في كل من منطقتي الأوراس والقبائل الكبرى، وإقرار الرقابة على الصحافة، ستعرف كيف تضع، في وقت وجيز، حدا للأعمال الإجرامية التي يأتيها الإرهابيون وتقمع النشاطات الهادمة التي يقوم بها المساندون لهم من الشيوعيين في الصحافة وفي النقابات. وعليه، لا بد من التذكير، هنا، بأن الجزائر هي فرنسا.

* Alger républicain. L’écho d’Alger

وفرنسا لن تعترف داخل أراضيها بسلطة أخرى غير سلطتها. ومهما تكن الوقائع المؤلمة، تلك التي تجري كل يوم مخلفة ضحايا في صفوف قوات الأمن والمدنيين أيضا، فإننا لن نزداد إلا إصرارا على أن لا نتساهل مع المخربين ولا مع الداعمين لهم لحماية الجمهورية وبسط سيادتها. هذا يعني أنه صار ضرورة ملحة وعاجلة حظْر الحزب الشيوعي الجزائري الذي قرر الانتقال إلى العمل المسلح إلى جانب إرهابيي جبهة التحرير».

وحين وقف النادل عند طاولتنا تراجعنا بظهرينا إلى الخلف قليلا. فوضع صحني تحلية من بطيخ أصفر وباكور تين. ثم انصرف، مسترقا نظرة إلى الجريدة.

أخذ حاييم حبة باكور لم يقشرها وقضم نصفها، فيما تناولت بالشوكة قطعة بطيخ.

«ما يحدث يخيفهم حقا. لأنهم لم يكونوا يتوقعون كل هذا الصدى الناجم عما يجري»، قلت.

ورحت أتلذذ قطعة البطيخ المثقَلة ماء وسكرا.

«بينهم وبين أنفسهم يدركون أن مواجهة الأهالي الآن لن تتم إلا في الدم»، قال حاييم.

وأكمل نصف الباكورة، فيما أضفت أن ذلك ما يعزز الالتحام. ويثير ردود أفعال شاجبة لدى أنصار السلام في المتروپول وفي العالم. فمسح على فمه. ثم حرك رأسه، استغرابا:

«هؤلاء الكولونياليون حمقى لا يستفيدون من التاريخ! تاريخ أمس فقط مع الفيتناميين.

– كنت تحدثت مع سيلين في الموضوع نفسه. وقبْلها مع الصادق وحسيبة. أقلية! أقل من مليون يتحكمون في رقاب حوالي عشرة ملايين من الأهالي. يُخضعونهم لسيطرتهم. يجردونهم من أبسط وسائل العيش، ومن أرضهم وخيراتها يَمنّون عليهم بدخل فردي سنوي قدره تسعة وعشرون فرنكا! تسعة وعشرون فرنكا مقابل ثلاثمائة وستين ألف فرنك للواحد منهم، هم.

– كيف لا يثور بركان الغضب!»، قال حاييم خافضا صوته.

ثم طوى الجريدة ووضعها جانبا، مضيفا:

«ها هي الصورة التي دأبوا على رؤيتها معكوسة في المرايا التي نصبوها لأنفسهم كي يطمئنوا إلى أنهم لم يعودوا غرباء في هذا البلد، قد بدأت في التشقق. ولن تلبث أن تتهاوى متشظية».

فقلت:

«وهم الآن يرون إنسان هذه الأرض، الأنديجان كما ظلوا يعتبرونه، ينهض من رماد الاحتقار التاريخي الذي مرّغوه فيه ليواجههم بعد أن ظنوا أنهم دجّنوه إلى الأبد.

– أرسلان. أنت تعرف أن غلاة الأوروبيين والأقدام السوداء من أحفاد المهاجرين الأسبان والإيطاليين والمالطيين واليهود أيضا المستفيدين من قانون التجنيس ومن الامتيازات التي يحظون بها، مقابل حال الأهالي المزرية البائسة، هم الذين، في الإدارة وفي الاقتصاد والتجارة والزراعة وفي مؤسسات البوليس والجيش والجامعة، كما نرى ذلك منذ شهور، يتصدرون الآن جوقة قرع طبول الحرب التي يريدونها شاملة لا تبقي ولا تذر.

- وهم الذين زرعوا بذور كل هذه الكراهية التي تترجم اليوم إلى مجابهة دامية».

خلال لحظات الصمت التي تلت، تناولنا مزيدا من الباكور والبطيخ. ثم عرضت على حاييم، إن كان يريد، شرب قهوة فاعتذر.

«حاييم. برغم هول هذه الحرب أشعر بالسعادة لتقاسمنا السنين الأربع التي قضيناها، بحلْوها ومرها، في هذه المدينة الغريبة الجميلة والخطيرة. أنت ستعود إليها لسنتين أخريين. أما أنا فسأشتاق إليها وإليك»، قلت أنظر إليه بما في عيني صديق لصديق من فيض المودة.

«أنا الأكثر شعورا بالسعادة والغبطة والاعتزاز. أما هذه الحرب فستعرف النهاية التي نتوقعها. كنت لي الصديق والأخ والرفيق. وأنا سأبقى لك كذلك»، رد حاييم واضعا يمينه على يسراي على الطاولة.

«ننهض؟ أمامنا أكثر من جولة قبل السفر»، قلت لأتخلص من تأثري.

«بدءا بالحجز على القطار.

- لأن سعيدة بعيدة!»، أكدتُ على شعور بشجن.

يحدث أن يحرن الحصان أيضا؛ ذلك ما تعلّمت شيئا منه في حظيرة مزرعتنا. لقد حرن بي تفكيري في هذه الليلة، على نحو لم يسبق لي مثله من قبل، عن الاهتداء إلى بداية أستأنف بها استحضار ما فعلته بين اليوم الذي حملت فيه شهادة تَخرُّجي وغادرت الجامعة نهائيا وبين الساعة التي جاءني فيها الفقيه ومعلم القرآن سي النضْري، صباح جمعة، مفتعلا لي الاطمئنان على جدتي؛ بصفته مفتيها في شؤونها الدينية ومؤتمنها على معوناتها ومبالغ زكاتها التي تقدمها للمسجد وطلبته من المسافرين.

لكأن الاثني عشر شهرا الفاصلة بين ذلك اليوم وتلك الساعة لم تكن سوى ليلة نوم استيقظت منها!

ثم ها أنا، بينما ساعة المكتبة الحائطية تشير إلى العاشرة ليلا وخمس عشرة دقيقة، قد فككت يديّ عن قفاي واعتدلت في جلستي فانجلت لذهني، من غمامة حيرتي، هيئةُ ذاك الرجل الورع الذي يطمئن إليه القلب، ذي الوجه الأحمر الممتلئ واللحية المشتعلة المخففة والعينين الصغيرتين الباسمتين؛ الرّجل الذي أبلغني صباح تلك الجمعة، قبل عشرة أعوام، أن ضيوفا سيزورونني. وقال إنهم لا يشربون سوى القهوة. ولا يطيلون البقاء إلاّ لبعض الوقت. ثم انصرف، معتذرا عن الجلوس. وكانت جدتي، قبل نزول أولئك الضيوف علي بيوم، انتقلت متعبةً صحيّا إلى المزرعة برفقة والدي.

أجلْ! انتظرتُ أصنافا من الضيوف مروا بذهني كالذين تستقبلهم جدتي من معارفها، وحتى من طلبة القرآن المسافرين لتعطير البيت بتلاوتهم كما كانت تقول لسي النضْري حتى يرسلهم إليها في العشر الأواخر من كل شهر رمضان، إلا أن يكونوا ثلاثة من المدينة، على حلاقة وأناقة لافتتين تشعان ثقة. رابعتهم فتاة في أينع ما تكون عليه النضارة، في لباس أوروبي مثلهم. هي التي تقدّمتهم إذ دخلوا. ولم أكن أتصور أني سأقابلها يوما. وهي التي مدت لي يدها مصافحة، ناظرة إلي بابتسامة آتية من زمن كم بدا لي بعيدا. توهّمتها قالت «أخيرا!»، مرددا في نفسي «كم كبرت يا زليخة!»، على رعشة ارتباك من ضيوفي الاستثنائيين سرعان ما تلاشت إذ نطق أكبرهم، بينما عين زليخة لا تزال علي - إنها الآن في السرير تقرأ.

«اخترنا هذا المكان لاجتماعنا لأنه دار عُمران وأمان».

فهو الذي ترأس الجلسة التي لم تختلف طبيعتها عما يتطلبه تكوين خلية سرية خلال حرب تحرير. وكان في نهايتها تأخر في الخروج من غرفة الجلوس فخلا بي، مواجها إياي واقفًا.

«أستاذ أرسلان. ثقتنا فيك كبيرة»، قال بإقرار.

لوقع كلمة أستاذ في سمعي، مثل كلمة حكيم التي يطلقها الأهالي على طبيب منهم، أحسست قشعريرة لذيذة تنمّلت لها مفاصلي وقشرة رأسي. فلم يسبق أنْ نوديت بها.

«لمكانتك الثقافية، أنت لا تحتاج إلى وعظ من شخص مثلي»، أضاف. وفتح لي على ملامح سمراء، رقيقة وجميلة؛ لكن صارمة.

«أحببت أن أطمئنك على أنك لست ملزما بتغيير سلوكك لأي ضرورة. ولك أن تحتفظ باسمك. فأنت أشهر من أن تتخفى وراء

كنية. المدينة وأريافها كلها تعرفك قبل الإدارة والبوليس. أما أنا فيمكنك، مثلما سمعت من قبل، أن تناديني فرَاجي. بدون سي!

- لا يمكن يا سي فراجي!».

فحرك رأسه، متقبلا. وسألني عن حاييم.

«ما رأيك فيه، لأنه صديقك؟

- لكم أن تطمئنوا إلى السيد حاييم.

- ولكننا لا نطمئن إلى علاقته مع گولدا.

- أعرف حاييم جيدا. فلا تشكُّوا في خياراته حين يتعلق الأمر بوطنيته.

- تكفينا شهادتك، إذًا».

وذكّرني.

«مبلغ اشتراكك المتفق عليه تقدمه لسي النضْري».

ثم شد على يدي، متأهبا للالتحاق بالآخرين في الحوش.

«لا أرى مانعا إن كنت تبغي أن تتحدث إلى الآنسة زليخة. سننتظرها في السيارة»، قال بابتسامة لا تكاد تظهر.

«شكرا. ستكون هناك فرصة أخرى لذلك.

- إلى اللقاء».

سنة أخرى كانت قد انقضَت، لما رجعت إلى الدرب من أربعينية وفاة جدتي التي أقيمت بالسلْكة* قبل يوم في مزرعتنا. فقد سبقني الحزن إلى بيتها. وجدته جلْبب كل زاوية من زواياه. واحتل كل ما راحت عيناي تقعان عليه: مكان جلوسها في الحوش والنباتات التي

* ختم تلاوة القرآن بأحزابه الستين موزعة على ست حلقات من القراء في الآن نفسه يتبعها الإطعام ترحما وصدقة على روح الفقيدة أو الفقيد من الأهل.

كانت ترعاها فيه وشجيرات الورد والدالية المتسلقة وكل أشيائه هنا وهناك في أركانه؛ المطبخ وغرفة الجلوس وغرفتي وغرفتها برائحة طيبها وبقايا أثاثها. أمّا ملابسها كلها فقد أوصت أن تكون صدقة. وأوصت لوالدتي بحليها، ولي أنا بيتها في الدرب ومفتاح صندوق مدخراتها. ولا أعلم ما أوصت به لوالدي.

هربا، إلى حين، من حصار الفراغ، غادرتُ إلى وهران. لماذا وهران، المدينة الكوسموبوليتية المرمية على ضفة المتوسط الجنوبية التي لا يقاوَم سحرها وإغواؤها؟ لم يرِد إلى ذهني هذا السؤال إذ حملت حقيبتي وركبت الحافلة. ما في الأمر أني أحسست نفسي بحاجة إلى أخذ مسافة عن حزني فحسْب. امرأة مثل جدتي، بما أحمله من روحها في روحي، لا يمكن تناسيها بأي هروب؛ لأنها حاضرة في دمي.

وما إن قضيت ليلتي الأولى بالفندق الكبير حتى أصبحتُ على مفارقات وهران العجيبة؛ من الهدوء المظلل لأجوائها إلى الحياة الصاخبة التي تعرفها شوارعها إلى مساءاتها اللذيذة ولياليها الحمراء - يجب أن أذكر أني لم أمنع نفسي من لذائذ وهران العابرة في هذا الملهى أو في تلك الحانة أو المطعم وكأنْ لا حرب تجري خارجها لولا ما كانت صحيفتها «صدى وهران» لا تزال تنشره في مقالات وريبورتاجات عما أسفرت عنه نتائج معارك الشمال القسنطيني الدامية في صائفة العام الماضي.

في يومي السابع، وجدتها فوق الصدفة، بل وفوق كل احتمال لو قدّرته مسبقا ما كان ليحدث، أنه إذ دخلت مكتبة لورون فوكْ، في شارع جورج كليمنصو، كانت سيلين شوڤالييه ستخرج حاملة ثلاثة

كتب مجلدة ومجلتين! توقفنا، متقابلين. اتسعت عيناها على مداهما، مثل عيني أنا أيضا، للمفاجأة. وأشرق وجهها سرورا، فيما أحسست حرارة تصعّدت خديّ. فتحتْ شفتيها ولم تنطق، محركة رأسها، فحسْب. كانت بتسريحة كوپ گارسون. كنت على حلاقة متكاملة. وفي لحظة، كأنّما حصل ذلك بإيعاز، رمينا الخطوة المتبقية فصرنا صدرا لصدر حد امتزاج رائحتي عطرينا.

«لست أحلم على الأقـل! أرسلان بلحمـه وعظمه وشاربـه أيضا. يا للصدفة السعيدة!

– وهل أصدق؟ سيلين الجميلة!».

عبْر قبلتينا المضغوطتين على الخدين، مر بالخيال كل الكلام الذي كنا سنقوله منذ افتراقنا عقب تَخرُّجنا. كان ذلك إحساسي؛ وكان هو الإحساس نفسه بالنسبة إلى سيلين؛ لأنه قد اتّضح في نظرتها التي شرّدتها إلى حين قبل أن تنطق.

«هل ستقتني كتبا؟

– أؤجل. سنعود معا لذلك في وقت آخر، أو غدا، أو بعد غد.

– لا يمكن.

– لمـاذا؟

– أنا مسافرة غدا إلى باريس عبر مرسيليا».

وأخذتني من يدي فخرجنا. وفي أول مقهى، بالشارع نفسه، بعد أن وُضع بيننا ما طلبنا، سألتها ماذا تفعل في وهران. ابتسمت. ثم قلصت ما بين حاجبيها الأشقرين:

«تستثقل علي وجودي هنا أيضا؟

- عزيزتي سيلين!
- لا بد أنك ترغب في طردي منذ الآن؟
- ألم تتمني لي يوما في شارع ميشلي أن نبقى أصدقاء؟».
تنهدتْ. وجرعت جرعة خفيفة من كأس الليمونادة؛ فيما رشفت من طاس قهوتي. ثم أخبرتني أنها جاءت إلى وهران لزيارة أخيها سيرجْ الخاضع للعلاج في المستشفى.
«آمل أن يكون الأمر بسيطا»، قلت أعبّر عن انشغالي عنه.
شرّدت نظرتها، مرة أخرى، عبر زجاج الواجهة إلى الشارع المزدحم بالسيارات والراجلين. لاحقتها، وقد لمعت في ذهني لحظة أنْ غادرتني على تشوش في ذلك المساء أمام مخرج الجامعة. عادت إلي، بغلالة أسى على وجهها المنمش الجميل.
«جروحه خطيرة. ولكن الأطباء طمأنونا على حاله بعد استئصال رصاصتين من بطنه وفخذه.
- ماذا حدث؟
- أصيب في اشتباك مسلح معهم».
كنت أعرف مشاعر سيلين تجاهي. وكانت هي تدرك أني تلقّفت تلميحها. فلا أنا، إذا، زدت كلمة ولا هي. وضعتْ يدا على الكتب فوق المجلتين، إلى جانبها، وأمسكتْ بالأخرى كأس الليمونادة مغرقة فيها نظرها.
«أخشى يا أرسلان أن تدمر هذه الحرب كل شيء، كل علاقة، وكل حلم.
- مهما تفعلْه الحرب فسيبقى في القلب كما في الذاكرة ما يرمّم كل ضياع».

رفعت إلي عينيها، ببريق دمع.

«سأفتقدك يا صديقي!».

وحررتُ زفرة. فحططت يدي على يديها فوق الكتب. ودعكت مقدمة أصابعها، خفيفا.

«يوما ما ستنتهي هذه الحرب. و..».

قاطعتني.

«أرسلان. أرجوك!».

وقلَبت يدها في يدي كفا لكف.

«ستشاركني عشائي هذه الليلة»، قالت بنبرة أمر حاسمةً عني أي اعتذار أو دعوة مني إليها.

خلال رحلتي في القطار من وهران إلى تلمسان، كنت ما تذكرت إحدى اللحظات الناعمة التي قضيتها مع سيلين أثناء العشاء وعلى السرير وفي حوض الحمام، إلا داخلتْها، بين هزهزة وأخرى، الصور والكلمات في الصحف المحلية عن الحرب التي تتسع رقعتها يوما بعد يوم إلى كامل مناطق البلاد؛ فقد طالعتُ في «صدى وهران» قبل ثلاثة أيام مقالا يذكّر في لهجة ردعية بتنفيذ أول حكم إعدام بالمقصلة في سجن بربروس الرهيب في حق أحمد زبانة المسؤول الحربي لمنطقة زهانة، جنوب وهران؛ وفي الصحف الأخرى الواردة من المتروبول قرأت خبرا عن التعزيزات العسكرية والمعدات التي تصل من هناك.

وهران، تلك التي تركتها بإحساس أنها تشرب آخر كؤوسها قبل وصول الإعصار، كانت تأفل من ذهني على صافرة القطار مرتين

متتاليتين، إذ انتبهتُ من مربع النافذة إلى بيوت مدينة تلمسان الأولى ذات السقوف القرميدية الحمراء. فوضعت الجرائد بجانبي. ومن جيب سترتي الداخلي أخرجت صورة سيلين التي أهدتنيها بعبارة «إلى صديقي أرسلان» على ظهرها -إني لا أذكر في أي كتاب كنت وضعتها- وتأملت وجهها، تفتح لي صباحا باب الخروج من بيت جدتها في شارع ألزاس لورّانْ.

فصدرا لصدر، متحاضنين، نطقت في أذني.

«أسعدتني.

- سيلين!

- عزيزي».

وهي تصافحني.

«وداعا.

- اعتني بنفسكِ!

- وأنت أكثر!».

وكنت إذ خرجت بمقتنيات من مكتبة ديسْبوني، في قلب مدينة تلمسان، تذكرت أن جدتي تمنت لي يوما أن تزور مقام سيدي بومدين. فمشيت إليه. وثمة، لدقائق طويلة، لا يسكن ذهني سوى وجهها الناعم، وقفت أمام الضريح المسجى بكساء أخضر ذي حاشية كُتبت عليها آيات باللون الذهبي. وهمستُ في قلبي سلاما لروحها.

ومن أعالي المنصورة، عاصمة الزيانيين البائدة، زفرتُ نفَسا نحو البحر الأبيض المتوسط هناك شمالا، راحلا بجانب سيلين على عالية السفينة التي تقلها إلى مرسيليا.

إلى اليوم، لا تزال كل حافلة، كالتي ركبتها عائدا من رحلتي تلك إلى سعيدة، لا تغادر تلمسان من مخرجها الشرقي إلا وتوقفت بركابها أمام شلالات لوريطْ الساحرة بالتدفق والاخضلال والندى وكل الأصوات التي لا تسمع في أي مكان آخر مثله.

إلى ذاك السبت، من نهاية شهر أغسطس، الذي تواعدت فيه مع حاييم، كانت قد مرت على غدائنا في مطعم مغارة علي بابا، سنتان لم نلتق خلالهما في الدرب إلا لفترات قليلة وقصيرة أهداني في إحداها گراموفون من نوع پيك أوپ. كان قد دخل، في سنته السادسة والأخيرة، التربص الميداني الإلزامي لمدة سداسي كامل كلّفه، بموازاة تحضيره مذكرة تخرجه، أن يضحي بعطله كلها. بينما وزعت وقتي بين السفر والتكفل بما تتطلبه مواسم الفلاحة في مزرعتنا من جهة واجتماعات خلية سي فراجي التي صرت أقدم خلالها عروضا قصيرة حول حرب التحرير والدعاية المضادة من جهة ثانية. فبصفتي نجل أحد الأعيان كانت الشكوك حولي لم تبلغ بعدُ ما يقلق.

يومَها، كانت ساعة المنبه، على صوان غرفة نومي، قد أقفلت دورتها العاشرة صباحا لما اخترت من ملابسي بدلة زرقاء بقميص أبيض بلا ربطة وحذاء جلديا أسود ملمعا. ثم خرجت. وإذ طرقت على حاييم، ففتح لي، وجدته لا يزال في مبذله. دخلت. وفي الرواق، تعجبت له أنِ انظرْ إلى الساعة! فأفسح لي إلى غرفة الجلوس - يفزع في ذهني الآن حال تلك الدار التي أخرسها الدهر إلى الأبد.

«أنا أنتقم من تعبي ومن زمني ومما كلفتني إياه سنتي الأخيرة»، قال حاييم متثائبا.

«لا ألذ من الكسل أحيانا!»، قلت جالسا على الأريكة.

«أنت تعرف. خلال سداسي كامل كنت مثل ساعي بريد لا أصل إلى صيدلية حتى أنتقل إلى أخرى. وكذلك من مخبر إلى آخر. ومن مخزن أدوية إلى غيره. كان ذلك يفرض إيقاعا جهنميا.

– ولكنك لم تكْبُ ولم تتخلّ. مرة أخرى هنيئا!

– شكرا. لي ولك الاستحقاق!»، قال حاييم.

وتولى إلى المطبخ.

في الأثناء، انشغلت بتصفح جريدة المدينة «صدى سعيدة» ليوم الخميس الماضي. على صفحتها الأولى صورة لإنزال عسكري من طائرة عمودية من نوع الموزة في أحد الأرياف. فوقها بالبنط الغليظ «ملاحقة الإرهابيين متواصلة».

حتى إذا عاد حاييم بصينية القهوة وجلس أسمعته.

«وقد تكون المجموعة التي تم القضاء على عناصرها هي الأخيرة في منطقة تامَسْنة».

«يكررون مثل ذلك كل مرة منذ عامين تقريبا. وإذا بمجموعة أخرى تنفذ عمليات جديدة في أماكن متفرقة من البلد»، قال حاييم وهو يصبّ من الإبريق في الفنجانين.

لم أعلق. أضاف.

«كنت قرأت خبرا عن تنفيذ حكم إعدام ثانٍ في حق شاب من المدينة ألقى قنبلة في ملعب الكرة الحديدية.

– بالفعل. في الثاني عشر من جويلية الماضي.

– شهر واحد تقريبا بين الأول والثاني.

- وبالمقصلة.

- بربرية!».

ثم رشف فرشفت. وحدثته عن مقاومة الشاب علي مراحلَ التعذيب وأشكاله، من اللكمات والركل إلى الكهرباء والماء؛ من الحشر في قبو مع الجرذان إلى التعليق من الرجلين، كي يعترف باسم الذي تلقى منه الأوامر؛ عن صموده إلى آخر لحظة نزلت فيها على رقبته شفرة المقصلة - علي الذي كان أحد أولئك الضيوف الأربعة الاستثنائيين هو من اقترح في أحد اجتماعات الخلية اختيار مكان العملية وتنفيذها بقنبلة يدوية أظهرها وقال مبتسما إنها من ميراث والده الحربي الذي عاد به من باريس بعد تحريرها مخلفا في نفسي ما كان بعد وصول خبر إعدامه سيشعرني بأن منزلتي العائلية ودرجتي الثقافية وحظوتي الاجتماعية مجتمعةً لا تعدل مثقال خطوة واحدة من ذهابه في خياره حتى النهاية فلا يُقر تحت التعذيب باسمي أو باسم سي فراجي أو زليخة أو غيرنا من أفراد الخلية فأقرُّ أنا بأنه هو الذي يصْغرني بثلاثة أعوام علّمني أن هناك شيئا أعمق مما يمكن أن تتحدث عنه كتب علم النفس والدين والأيديولوجيا في جعل إنسان يتقبل بإرادته التضحية القصوى من أجل الحرية!

كنت أدرك أن حايم يحدس أن هناك علاقةً ما بيني وبين الشاب علي. وأني لم أكن غريبا عن العملية التي اهتزت على وقعها المدينة، مخلفة جرحى في صفوف رواد حانة ملعب الكرة الحديدية من جنود اللفيف الأجنبي.

فقد ألقى ببصره في فراغ، لثوانٍ، صامتا. فناديته.

«حاييم!».

فانتبه. ولكنه حرّف نظره عني، شابكا أصابع يديه.

«عجيب! كل شيء أجده يتحول بسرعة. أمس فقط كنا ندخل داريْ عائلتينا العامرتين. جدتك وأمي تتزاوران وتتبادلان أطباق الأكل والتحيات والتهاني في عيد الفطر كما في يُومْ كيپور. نأكل الطعام التقليدي نفسه. ونلعب. ونمرح. وها هي المدينة التي كان يتراءى أنها ستظل هادئة يمتد إليها اللهب فتفزع لهذه الحرب التي يبدو أنها ستفرق بيننا بشكل ما، لوقت أو للأبد».

كظمت أن أقول لحاييم إني أدرك ما يُشجيه. فقد تخيلته في وحدته القاسية في مواجهة خياره المؤلم ألاّ يبقى على الحياد تجاه الحرب.

«اليوم نتغدى في مطعم فندق الشرق»، قلت لانتشاله من صمته الذي أعقب.

«بشرط أن تكون ضيفي»، قال بلا التباس.

وذكّرني أني كنت أجّلت له دعوته إياي إلى مطعم الكليات، مقابل الجامعة، للاحتفال بتخرّجي.

«ولكنك أهديتني تحفة جميلة»، قلت.

أَصر.

«أنت تستحق ما هو أثمن.

- ليكن! هيا البس ومرّ علي في البيت!».

بعد نصف ساعة، فتحت لحاييم. كان في بدلة سوداء وقميص أزرق فاتح وحذاء بني.

«ادخل! لدينا ما يكفي من الوقت لتناول بعض المقبلات».

عبَر حاييم الحوش الذي عرف زواياه وأشياءه منذ صغره؛ أبواب الدار المفضية إليه والغرف ونوافذها المطلة عليه وعلى الشارع: المطبخ وغرفة الجلوس وغرفتي وغرفة الجدة، خالتي ربيعة، مثلما يناديها إذ يدخل عليها وهو يحمل لها طبق طعام أو حلوى من أمه زَهيرة. أو ينتظرني لنذهب إلى مدرسة جول فيرّي. أو يطلب إلي، إن تأخرت، أن آتي معه لأوقد لهم النار يوم السبت. وكنت أثناء ذلك غالبا ما أحمل لأمه، خالتي زَهيرة كما أناديها أنا أيضا، شيئا مما حضّرته جدتي للعشاء. فأنا أيضا، لقضائي أوقاتا معه في بيتهم، نلقي أمام بعضنا قطع المحفوظات أو نحل واجبات في الهندسة والحساب العددي أو نحضّر لتجربة في درس الأشياء، أعرف الحوش والمطبخ وغرف بيتهم - البيت الذي أغلقت بابه بيدي آخر مرة وتركته خلفي خاليا.

لم أكن نسيت أن في الواقع حربا جارية تسفر وقائعها كل يوم عن موتى آخرين وعن آلام جديدة وترحيل وتحويش، إذ أخرجت قنينة الشومپان من السطل الفضي، بجانبه كأسان بلوريتان وصحنان صغيران فيهما قطع شوكولا وحلوى على طاولة قصيرة ذات سطح رخامي في غرفة الجلوس، ومسحت عليها بالمنديل سائل الثلج ثم مددتها لحاييم قائلا «فُضّها على شرف نجاحك!» لقد فعلت ذلك لأعبر له عن أننا سنبقى كما كنا، مهما تفعله حربٌ وتخلفه مآسيها.

فقد نهضنا من فوق الأريكة الجلدية ذات اللون البني ورفعنا للقائنا نخبا، على تدفق الزبد.

«لأيامنا الآتية.

- إلى غد السلام!»، رد حاييم.

وبوجهه الطفولي، تملى، للحظة، فقاعات الهواء المتصاعدة بلا انتهاء من كأس الشمپان في يده. ثم رمى، على غبطة، نظره يمينا وشِمالا وإلى السقف فإلى زوايا الغرفة، محركا رأسه حركة مَن أرابه شيء؛ لم يكن، كما توقعت، سوى الأثاث الذي جددته في غيابه. لكنْ بدا أن ما شغل حاييم أكثر كان شيئًا آخر.

«يا لَهذا الزمن الذي يسرق منا طفولتنا!»، قال بنبرة شجن.

ثم نظر إلي كأنّه يريد أن يتأكد إن كنت أتابعه.

«ولكنه لا يُنسينا إياها مهما فعل بنا!»، قلت ألاطفه.

فتساءل.

«كم سنة تكون انقضت؟».

وأجاب، بعد تَفكّر، لأني بقيت ساكتا منتبها إليه، أن ثلاثة عشر عاما مرت مرور سحابة!

فاستدرجته إلى ذلك الزوال الذي تغامزنا فيه على جدتي، كعفريتين أسودين على حدّ وصف مسْيو ويلْ إيانا، مدعيين لها أننا سنقضي لخالتي زَهيرة حاجة من عند اللبان. وكنا حسِبْنا أننا أوهمناها فعلا. فاستغربت، بدهاء ولطافة وحنان، خروجَنا في تلك القيلولة؛ فيومها كنا نفذنا خطتنا بالتسرب إلى جنان ألفونسو باتيست في تلك الساعة بالذات للانتقام منه على طريقتنا ولم نكن نتوقع أنه سيرعبنا كما فعل بسيارته.

«كأن ذلك حصل أمس!»، قال حاييم.

وكنت ملأت كأسينا، مرة أخرى، لما لفتت نظرَ حاييم الأباجورة الكبيرة على شكل بيضة من النحاس المخرّم مركونة في الزاوية بأهداب تنزل منها، مثلَ حبات كرزٍ، كرياتٌ صفراء. فقال إنّ روح

صياد البحر يسكنها. فقلت، مستدركا، بل عفريته الذي يناديني ليلةَ كل بدر. فزعم لي حاييم أنه يحرز ما يحدثني به العفريت. فرفعت له سبابتَيّ معا بإشارة نفي، مقسما برأس جدتي أني لا أقصد ما دار في ذهنه. فأومأ إلي بحركة من رأسه أنه لا يصدقني.

فاعترفت.

«كان يقول لي إنه من عفاريت نبيكم سليمان، وهو يبلغك سلامه!
– أنت حفيد العفاريت، يا أرسلان!».

وعلى سبيل الردّ قدمت له قطعة شوكولا، فأخذها ناظرا إلي نظرة من يحذر غيره مغبة التمادي لكن سرعان ما خذلتها ابتسامته. وسألني ماذا قلت للعفريت. فانفرط عقد كلماتي – كيف لا أشعر بالحزن حين أتذكر ذلك!

«إن أنت أزعجتني الليلة بطلب تحريرك ناديت خالتي زَهيرة لتجعلك غبارا!
– ملعون أنت!».

ضحكنا.

لم أكن قد هيأتُ في ذهني أن تكون لحظة المقبّلات وفق برنامج مسبق. كلا! فكل شيء، عدا أن نشرب قليلا ونتفكه، كان يحدث وكأنه من تلقاء نفسه. وكذلك حين نهضت إلى الصوان، وكان من خشب الأكاجو الصقيل المبرنق، وفرزت إسطوانة من خمس وأربعين لفة أخرجتها من الجيب ووضعتها على القاعدة الدوارة للگراموفون، وهو من نوع پيك أوپ ذي بوق من النحاس الخالص توهّمتُه إذ رأيته أول مرة يشبه مِحْقنا تستعمل زوجة عثمان مثله ولكن بحجم أصغر

حين تُفرغ ما في المحلب لحفظه في أوعية من الألمنيوم. ثم حركتُ إلى الخلف رأس الذراع التي تحمل الإبرة، فدارت الإسطوانة. وأرجعتها واضعا إياها على اللفة الأولى فانبعث صوت احتكاكها بمادة الڤينيل الأسود.

«أُسمعك السيدة التي تحبها»، قلت.

فتهلّل وجه حاييم لأول نوتة.

«پْياف!»، قال منجذبا بإعجاب نحو الگراموفون، مضيفا «آه! هي! في «نشيدٌ للحب».

ونهض، على انبعاث الكلمات الأولى «السماء الزرقاء فوقنا..»، محركا رأسه مبتهجا، قائلا:

«أحب پْياف في هذه الأغنية بالذات!»

بكأسينا في يدينا، تهادينا، مرددين بالتناوب مقطعا وآخر.

«ما دام الحب يغمر صباحاتي»

«سأذهب إلى أقصى العالم»

«إن أزعجتك الحياة مني»

«فالله بين المحبين يجمع».

«إنه أجمل هدية! شكرا لك»، قلت بعد ذلك لحاييم ممسدا على حافة الگراموفون - خلال العَشاء قبل قليل تهدهدنا أنا وزليخة على أغنية ميلورْ هامسا لها أني لم أعرف امرأة غنت حياتها بشكل درامي مثل إيديث.

«العفو»، رد حاييم بخجل مضيفا «لم أخبرك أنه كان من بين ما حملته گولدا معها لدى عودتها السنة الماضية من فلسطين عبر مصر».

اكتفيت بأن هززت رأسي بابتسامة امتنان؛ فقد كنت متأكدا من أنه دفع ثمنه من جيبه وإلا ما كان أهداني هدية قدمتها له گولدا.

حاييم، على غير ما يُتوقع منه، لتخصصه الصيدلي، ظل ولعه بالموسيقى وبالكتب خاصة متقدا. إنه شيء ينبت في النفس يطلب أن يسقى بلا توقف من غير أن ندري مَن غرسه فينا، لا كيف ولا متى. كذلك قال لي مرة في الأستوديو إذ عبّرت له عن استغرابي من الوقت الذي يخصصه لقراءة ما ليس ذا علاقة علمية بالصيدلَة. لقد كنت أجد الشغف بالقراءة، كما قلت له، شهوة لا تختلف عن مثيلتها من الأكل والجنس.

ولمّا مسّح شعاع الكتب الأول، محركا لسانه بهذا العنوان وذاك قائلا إن الكتب هي نفائس ما يخلفه العقل والخيال، التفت إلي.

«غالبا مّا فتحت كتابا فسمعت كأن صوتا منه همس لي أهناك ما يستحق كل هذا البذل في خضم عبثية إنسان هذا القرن الغاشم».

واستدار فأشار إلى كتب مكدسة فوق بعضها؛ لم أكن رتبتها بعد.

«هذه جديدة!

- اقتنيتها من مكتبات وهران وتلمسان.

- استثمرت وقتك»، قال بنبرة تنويه ملتفتا «أما أنا فلم أكن أجد متنفسا.

- أعرف. وقد حدثني الصادق في رسالته الأخيرة عن الظروف نفسها.

- آه! كدت أنسى أنه هو وحسيبة يقرئانك سلامهما.

- كيف تركتهما؟

- في أعلى درجات حماسهما».

كنت أعرف، حتى قبل أن يخبرني حاييم بذلك، بانضمام الصادق وحسيبة إلى الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين من رسالتهما

التي أطلعاني فيها على دخولهما في الإضراب العام، مرفقة ببيان الاتحاد التأسيسي الذي إذ أثرته لحاييم قال:

«أجد أن الذين صاغوه تكلموا بلساننا، وعبروا عما في وجداننا.

- تماما!

- نَخبَهم!».

تلك الصور التي وقف حاييم أمامها مليا في شعاع الكتب الثاني، هي ذاتها التي رتبتها في براويز مذهبة من مقاس متوسط، بعضها بجانب بعض في هذه المكتبة أمامي. لكأني أسمع الآن صوته إذ راح يصفها واحدةً واحدة.

«السيد المنوّر. يا لَلعمامة الفخمة والشارب الكث والنظرة الصارمة! والسيدة تركية بهذه العصابة والشَّدة من الحرير، وبالقرطين من نوع الونيسة والسلسلة المضفورة من الذهب والعينين الكبيرتين والوجه المتوهج جمالا! خالتي ربيعة! ليس لهذه الحلي الذهبية في أذنيها وعلى جيدها وحدها ما يشع به وجهها الجميل! إنه روحها الفاتنة أيضا! كم تبدو على رشاقة خالبة بهذه الشَّدة والعصابة المائلة قليلا! إنّها دومًا في حال زهو؛ هاتان العينان الصغيرتان العميقتان! وهذان الوشمان يشبهان حبتي قمح على خديها!».

وقرّب رأسه أكثر من صورتي. ثم تراجع ملتفتا، متورد الوجه.

«أما أنت!».

وقرع كأسه بكأسي قرعا خفيفا. فذكّرته بالكأسين اللتين كنا كسَرناهما في حانة معسكر ذاك العام. فحرك رأسه بسرور. وشربت وشرب.

ثم استعرض ثلاث لوحات في الجدار الثاني المقابل للأريكة، متأملا إياها واحدةً واحدة، متقدما متأخرا، لامسا لمسات خفيفة سطحها بسبابته تارة وبإبهامه طورا، وكأسُه بشِماله، قارئا التوقيعات «دو لاكرْوا. دينيه. بيكاسو!» فأخبرته أنها مجرد نسخ إلا لوحة دينيه «عبد الحب» التي اقتنيتها هي والأباجورة من مزاد علني نظمه المرابي سمير مردوخ.

تنهد حاييم. وهز رأسه دائريا.

«آه! هذا المردوخ!»، قال بنفور.

وأخذ قطعة حلوى قضمها. ورشف. ثم وضع الكأس وألقى بظهره على مسند الأريكة.

«ربّما مرت بذهنك يوما حال شخص نزيه أرغمته الحاجة على رهن شيء عزيز قد يكون حليا أو أرضا أو مسكنا وهو يعلم مسبقا أنه لن يستطيع تسديد ما يسترجعه به»، قال وهو ينظر إلي بانفعال ظاهر مضيفا: «لم يشفع لوالدي عند مردوخ أنه من ملته ودينه لما تجاوز الأجل المحدد لتخليص رهن مجوهرات والدتي من أجل مصاريف تسجيلي في الجامعة!».

كنت أعرف، من جدتي لأنها حدثتني يوما عن المرابي مردوخ، بعض مَن فقدوا من الأهالي ومن غيرهم ممتلكاتهم لما عجزوا عن التسديد. فانتهى بعضهم إلى الضياع، وبعضهم إلى الجنون، وآخرون إلى الهجرة بلا رجعة.

«انس يا صديقي واشرب! فلا ديمومة لحال»، قلت لأنتشله مرة أخرى.

وضاحَكته بأن به شجنًا من گولدا.

فاعترف رافعا كأسه.

«شيء من ذلك، فعلا!

- شأني مع سيلين! ألا تعتقد؟

- آه سيلين تلك! الرومية كما تسميها. خدعتك فيها فلسفتك المثالية!

- ليس إلى النهاية.

- كيف ذلك؟

- كنا التقينا في وهران.

- جميل! ها قد عدت إلى الأرض إذًا. وكيف صارت سيلينك؟

- غادرت إلى المتروپول.

- تواعدتما؟

- يبدو أنها لن تعود.

- من يدري!

- وأنت؟

- أما گولداي أنا!

- حدثْني!

- انتظر! الآن يجب أن نذهب إلى الغداء».

«شلوم. سعيدة تسعد بعودة ابنيها الوفيين الأستاذ والصيدلي.
يا مرحبا!»، قال سمير مردوخ وهو ينهض مثل عفريت من كرسيه أمام باب مكتبه حين كنا نمر بشارع إيزْلي في طريقنا إلى فندق الشرق.

ومسحني ببصره من رأسي حتى قدميّ.

«عِيشتك زينة سيدي أرسلان! حطّة وهمّة. وهذا الحذاء! دكان باطا نفسه في شارع گمْبيطة لا يبيع مثله!»، أضاف.

ثم دعانا إلى الدخول. فاعتذرنا. فأصر علي، وهو ينظر بنصف عين إلى حاييم الذي عض على شفته السفلى.

«أُري سيدي أرسلان ما قد يعجبه. تفضلا!».

لم يكن المكتب عامرا بما يلفت؛ غير نُضد من الخشب فوقه سجلات وولاعة وعلبة تبغ من نوع الشعرة وأوراق اللف. وفي الخلف طاولة صغيرة متآكلة الطلاء عليها أوراق ملفوفة أو مطوية مرمية ينام عليها غبار السنين. وأعلاها رفّ فيه علب مصنفة حسب السنوات؛ كُتب على كعب هذه أرشيف الرهون، وعلى تلك محاضر المحاكمات، وعلى الجدارين اللذين تحتل زواياهما بيوتُ جاليات من العناكب عُلقت، يمينا وشِمالا، خرائطُ وبيانات عقارية وإعلانات عن مبيعات بالمزاد.

كعفريت، انتقل سمير مردوخ خلف النُضد. وقابلَنا بما ينزل من ذقنه كلحية تيس - كان حاييم قد عبّر لي لما خرجنا عن الرغبة

التي ساورته في أن يمسكه من تلك اللحية ويسحبه من فوق النُضد ويسقطه أرضا عند قدميه ثم يجرّه إلى الرصيف ويعود فيأخذ الولاعة ويشعل النار في محتويات المكتب البائس.

تصورتُ دوافع دعوة سمير مردوخ إيانا حتى قبل أن يعاود ترحيبه ويطأطئ ثم ينهض حاملا في يده شيئا ملفوفا في قطعة كتان. ولكني لم أتوقع، لما وضع ذلك على النُضد فأحدث وقعا خشنا، أن يكون مسدسا.

«موزير ألماني. أعرف أن هذه القطعة الجميلة ستعجب سيدي!»، قال.

وحين فك قطعة الكتان عن المسدس، حدج حاييم بنظرة مريبة، خشية أن يثنيني. هكذا خمنتُ.

«كنت سأعرضه على سيدي حنيفي»، قال بمداهنة.

وحرك رأسه بشكل حلزونيّ، بعين علي وأخرى على حاييم، مضيفا.

«مع هذه الظروف الأمنية المستجدة أصبح الواحد منا في حاجة إلى حماية نفسه بنفسه».

وإذ عاين ترددي، لأني نظرت إلى حاييم المنقبض فلم يرد أي فعل، خلّل لحيته.

«ليطمئن سيدي! لا أنا بعتك. ولا أنت اشتريت من عندي!».

سألته عن الثمن. فتوقدت عيناه لهفة.

«لك أنت سيدي؟ لا مشكلة! لأنك زبون ليس ككل الزبائن. بنصف ثمن بيعه جديدا!».

ثم بسط يديه على النُضد.

«أنتم عائلة تعرف قيمة الأسلحة»، قال مبخِّراً إياي.

وكان سيلفّ المسدس لما أشرت إليه أنْ لا داعي. فأخذته منه وثبّته بحزامي خلف ظهري. ثم دفعت له - أأعزو الآن إلى الصدفة أن أكون مررت مع حاييم في ذلك اليوم من أمام دكان المرابي سمير مردوخ في طريقنا إلى فندق الشرق الذي كان يمكننا بدل الخوض في شارع الكنيسة شرقا ثم النزول من طرف شارع إيزلي أن نتوجه إليه من الناحية الغربية فنعبر محطة الحافلات التي أعيَتْنا لمدة عشرة أعوام أو يزيد ونمر بمحاذاة ساحة البلدية وعلى الكشك ثم نقطع إليه شارع إيزلي نفسه فأبتسم مثلما ابتسم الشاب علي على إرث والده الذي عاد به من باريس لأن ذلك المسدس هو ما كان سينتقل إلى زليخة كغنيمة من حرب التحرير؟

لمّا تركنا أنا وحاييم دكان المرابي مردوخ، كانت حركة شارع إيزْلي قد بلغت ذروتها، كشأنها في منتصف نهار كل سبت، بمن يخرجون للويكنْد، ومن يدخلون المقاهي والحانات، أو يقفون هنا وهناك على الرصيفين وعند الواجهات، أو يغادرون سوق الخضر والفواكه واللحوم والأسماك المغطاة، التي توقفت قريبا منها، من جهة بابها الشّمالي، في محطة پايا ثلاث سيارات لتعبئة الوقود.

كنت، كما قلت لحاييم، أشعر أننا نضيف، بهيئتينا، لونين آخرين إلى فسيفساء الشارع المتجمهر بسيدات أوروبيات وأقدام سوداء وفي أيديهن طفل أو كلب أو قفة أو باقة أزهار. يمشين وحدهن أو في صحبة من يبدون أزواجهنّ أو عشاقهن. فلا تتخللهن إلا نادرا امرأة من الأهالي المسلمين ترتدي الملحفة أو الحايك، لباسها التقليدي في الخروج. أو رجل في لباسه التقليدي، هو أيضا، بعباءة وكنْبوش

أو شاشية على رأسه، وآخر بطربوش غالبا، ولكن في لباس أوروبي. وسطهم يهودٌ من طائفة التوشاڤيم، نساء ورجالا، يميزهم من الأقدام السوداء والأوروبيين لباسُهم التقليدي، يكاد لا يختلف عن لباس المسلمين في الأحذية والسراويل والعمائم والطرابيش الحمراء؛ عكس الأشكنازيم الذين كنت أراهم، وأنا صغير، في الدرب يلبسون الأسود غالبا ويطلقون سوالفهم ويضعون الكيبّا على رؤوسهم قبل أن يختفوا تدريجيا. لذلك، وقد خرجنا من حديثنا عن المرابي سمير مردوخ، سألت حاييم في أمرهم.

«الواقف أمام الباب واحد منهم. وقد خلع عنه ذلك الزي. وهو صاحب المحل»، أجابني حين مررنا أمام فندق إيزْلي، مضيفا: «أما البقية فقد هاجروا أو صاروا مندمجين كليّا في الحياة الأوروبية».

يومها علمت من حاييم أن گولدا رفاييل، بالنظر إلى أصول والدتها، كانت من أفراد تلك الطائفة الذين صاروا يُنعتون بالمتحررين، مثلهم مثل المندمجين من أبناء الأهالي وبناتهم مسلمين ويهودا؛ وكذلك كنا، أنا وإياه، نبدو بلباسينا في الشارع الذي قطعناه شِمالا وصعدنا إلى الطابق الأول من فندق الشرق فدخلنا مطعمه.

لا أدري لِم لم أفكر في العودة، ولا دعوت حاييم أو دعاني هو، عقب إعلان الاستقلال ولو مرة واحدة، إلى مطعم فندق الشرق الذي، عند إحدى نوافذه المطلة من الجهة الشرقية على الساحة الصغيرة، حيث محطة پايا للوقود والسوق المغطاة، كنا قد جلسنا متقابلين إلى طاولتنا التي قادنا إليها كبير الخدم، مرحِّبا متلقيا من يدي إكرامية. فلفَت ذلك انتباهَ زبائن من الأقدام السوداء والأوروبيين، وكانوا

جالسين إلى طاولاتهم التي نطق من إحداها، عند النافذة الثانية خلف حاييم، مَن تعمّد رفع صوته.

«آه! حين يتحرر الأنديجان!».

فرد الثاني:

«نسختان مقلَّدتان لجنتلمانات آخر زمان!».

ومن طاولة قريبة في الوسط، ارتفعت ضحكة من رجلين تجلس معهما امرأتان.

قال الرجل الأول:

«حتى قبل أن تعرفهما تدرك من ملامحهما أنهما من المختونين؟».

فرد الثاني، بعد ضحكة خفيفة:

«اخجلْ يا رجل! نحن في حضرة سيدتين محترمتين.

– وحق القديسة العذراء لأقومنّ وأسألهما!

– الزم مكانك!».

رجاني حاييم أن لا أرد. فطمأنته، فيما كان كبير الخدم وقف عند تلك الطاولة وسجل الطلبية. ثم حرك رأسه، مجيبا إحدى المرأتين التي كانت قد أشارت إلى طاولتنا.

«هما بالضبط، سيدتي! الأستاذ والصيدلي».

ثم، وهو ينصرف عنها نحونا لأخذ طلبيتنا التي تركت لحاييم حرية أن يتخير محتوياتها، قالت للرجل الأول:

«أنت تجهل أنّ لاراب ابن قايد؟

– وبعد؟ قايد ومؤخرتي سيان!».

فأعرضت عنه، وقد ولّت وجهها شطر صاحبتها.

«شيء ممتاز! تستطيعين أن تقولي إنهما نموذج الاندماج الناجح.
- لا أعتقد يا حبيبتي. من الصعب أن تُدمجي في ثقافتك وحضارتك أصحاب دينين مثلهما.
- ولكن ما دخل الدين هنا؟».
فرد الرجل الثاني:
«أنت أيضا ما زلت على أوهامك!
- آه! لأن الاعتقاد في المساواة وهْم؟
- فلتحفظ لي عزيزتي هذه الرومانسية!».
وقالت المرأة الثانية:
«اندماج، مساواة، رومانسية! وهذه الحرب التي تزحف باتجاهنا! وهذه العمليات الإرهابية التي بدأت تهز مدينتنا نفسها!».
رد الرجل الأول:
«حبيبتي! إنها مجرد عمليات منعزلة يرتكبها مجرمون صغار من الأنديجان سيوضع لها حد في وقت قصير. اطمئني!».
وعلى الفور، أشار أحد ذينك الاثنين الجالسين قرب النافذة الثانية إلى كبير الخدم حين غادر طاولتنا.
«تراهنت مع صديقي الآن على زجاجة نبيذ أحمر أن المسلم واليهودي الصغيرين هناك طلبا أن يأكلا ما هو حلال وكاشير.
- سيدَيّ. حلال وكاشير شيء واحد كما تعرفان! ومع ذلك طلبا نبيذا من معتقات مزرعة بوراشد».
قال الآخر:
«ألم أقل لك يا صديقي!».

- «أُقر بخسارتي»، رد عليه صاحبه محركا رأسه.

وطلب من كبير الخدم.

«زجاجة نبيذ، إذًا! ولكن من نوع مزرعة بايْلي نفسه، لأني لست ابن قايد!».

ونحن نتناول غداءنا، من سمك ورز، واصلنا تظاهرنا بأننا لا نسمع ما كان لا يزال ينتهي إلينا بين حين وآخر من كلام مستفز بأصوات مرتفعة من أولئك الزبائن وكأننا غير موجوديْن بالنسبة إليهم. ومن موقعي على الطاولة، كنت أرى أيضا إماءاتهم وحركاتهم المرافقة فأهمس ببعضها لحاييم؛ وقد تراجع ذلك لما شرع بعضهم يغادر، وانشغل بعضهم عنا بأحاديث هيّجتها الكحول. ولكن ما الذي جعلهم جميعا لا يتجرؤون على الاقتراب منا؟

فكلانا، لَمّا تجاذبنا ذكريات من طفولتنا، شده الحنين إلى أيام عطلنا المدرسية؛ خاصة عطلة الشتاء التي كنا خلالها نتناول في بيتيْ عائلتينا أشهى المأكولات التقليدية التي تردّ البرد. كنا نشتهي، مثل قراءة الروايات في أيام الثلج، الْحَريرة والبركوكس بالحشايش والمطلوع بالعسل والرفيس بالشاي والرشتة بلحم الدجاج. كنا نجد تلك الأطعمة غسيلا حقيقيا لجهازينا الهضميين ومصلا لتنقية دمنا من مخلفات ما كنا نتسمم به في داخلية ثانوية معسكر، مثلما فاكه أحدنا صاحبه.

لكنّ ما أَسَرنا، بحنين، أكثر من غيره، من الذّكريات، كان أعوام مدرسة جول فيرّي الابتدائية؛ جنبا إلى جنب على طاولة واحدة بمقعدين ومحبرتين مدة ست سنين، والتمثالُ الأبيض، وثانوية معسكر وداخليتها ومسْيو ويلْ، ورواية جوستين التي اشتريناها من مكتبة گارْصونْ بساحة

كمْبيطة عشية عودتنا النهائية وقد التهمنا بالتناوب نصفها في الغد حين كنّا راجعين في الحافلة.

كنا ننهي غداءنا بتحْلية من الفواكه الموسمية، ونحن نثير ما شاع في المدينة من توتر ازداد شدة بين الأقدام السوداء والأوربيين من جهة والأهالي من جهة ثانية، لما لاحظت أن وجه حاييم غام إذ راح يتحدث عن يهود غادروا المدينة بلا رجعة إلى أرض فلسطين.

وقال:

«مثل غيرهم في جهات أخرى من البلد تذرعوا بخوفهم على أنفسهم.

– حاييم، أنت تعرف أن أغلب الذين يختارون تلك الطريق هم من الذين وفدوا إلى هذه الأرض مع الوافدين من المحتلين الفرنسيين، ومن المنبوذين منهم في المتروپول، ومن الذين طاردتهم العنصرية واضطرهم الجوع والعوز إلى الهجرة نحو هذا البلد، وفضّلوا أن يكونوا إلى جانب المحتلين»، قلت مقللا له من شأن ذلك.

عندها، باح لي بأنه جاءه قبل أسبوع، برفقة گولدا، من حاول أن يقنعه بأن يغادر مثل المغادرين. ونظر إلي نظرة من يبحث عن كلماته، على قلق، مضيفا:

«قلت له إلى أين تريدونني أن أغادر؟ هذا وطني. هنا ولدت وولد آبائي. وأخلاط جسدي من تربة هذه الأرض. وفيها أُدفن مثل آبائي. فلسطين ليست أرضي ولا وطني».

وعلى دهشتي، استأذن وقام فتوجه إلى دورة المياه. كنت أعرف أنه لم يفعل ذلك إلاّ ليخفي عني تأثره. تنفست عميقا، وأنا أكاد أجهش. ومددت بصري من خلف مربع زجاج النافذة، أرى ولا أرى محطة پايا

التي توقفت عند مضخيتها سيارتان من نوع دوشوڤو وسيمكا شومْبور، وخلفها السوق المغطاة قد غُلّقت أبوابها الأربعة المتقابلة جنوبا إلى شمال وشرقا إلى غرب؛ وها شاحنة الصهريج شرعت تنظف بالخرطوم أرصفتَها الأربعة ليحتلها بعد حين الشواؤون ومحمّصو الكاوكاو وبذور اليقطين والحمّص بطاولاتهم استعدادا لاستقبال الزبائن الذين سيتوافدون على الحانات في شارع إيزْلي وفي الجوار.

رحت أتأمل بحزن حركة الراجلين من الأقدام السوداء والأوروبيين على رصيفي شارع إيزْلي وقد رشقت مرفقيّ على الطاولة مسندا ذقني بكفيّ، كما في مطعم القطار آخر مرة عائدا مع حاييم من الجزائر إلى وهران ومن هذه إلى سعيدة في الحافلة؛ كانوا نساء ورجالا في أبهى ملابس عشية السبت، أزواجا ذراعا في ذراع أو يدا في يد؛ فيما كانت مركبات عسكرية على متنها جنود بالأسلحة في أيديهم تصعد الشارع نحو الشرق، على تباعد منتظم بينها، مغطية بهدير محركاتها على كل صوت كان يُسمع في الخارج.

«أين أنت؟»، سألني حاييم.

انتبهت، متبعثر الإحساس.

«الجو في الخارج يبدو رائقا»، أجبت متخلصا.

«أراهن على أنك كنت ترى شيئا آخر»، رد حاييم بنبرة ثقيلة.

وجلس، مبلّل الحاجبين.

«لعلّي أفكر في الأمر نفسه. الشارع أفصح وأصدق من كل لغة لأنه يُظهر الفوارق صارخة. رأيت ذلك أيضا خلال التربصات الميدانية في الصيدليات. وكنت أتساءل أحيانا بِمَ يعالج الأهالي مرضاهم، خاصة

أطفالهم الذين ينهش صدورَهم السل وينخر عظامَهم الخرع. كان يمر علي أسبوع لا أرى أثناءه أحدهم دخل الصيدلية بوصفة أو دون وصفة لطلب دواء.

– لذلك يا حاييم فإن هذا الظلم بحق أهالينا لا يتم القضاء عليه إلا بحد السلاح»، قلت.

ولمّا نهضنا، رددت بصوت مهموس ما كان نطق به سي فراجي في الاجتماع الأخير: «ابتداء من هذه اللحظة لم يعد أحد في مأمن بهذه المدينة!».

فتساءل حاييم.

«ماذا تقول؟

– لا أدري إن كنا سنعود مرة أخرى إلى هذا المكان.

– ربما غيرنا من هؤلاء هم الذين لن يعودوا».

كان قد مضى شهران على غدائنا في مطعم فندق الشرق لما وجد حاييم، في فترة استراحة لشرب قهوة المساء، أعذاري عن الالتحاق بعمل ما، كالتدريس، غير مقنعة؛ بل وتثير الشكوك لدى الإدارة والبوليس لأنّي أحمل شهادة جامعية.

يومها، كنت أساعده على تهيئة محل في شارع إيزْلي لفتح صيدليته. وكنت أدرك قلقه عليّ إثر تنفيذ الخلية أعمالا مسلحة أخرى. فقد نبهني إلى أن المقرَّبين إلي - حتى لا يتحدث كما قال عن بعض زملائنا السابقين في المدرسة - لن يستوعبوا أمر عودتي إلى مدينة ليس فيها أي مستقبل لشخص مثلي.

كنت أرى ذلك حقيقة. ولكني غالبا ما وجدت الذريعة لهذا وذاك. وكانوا جميعا يعرفون أن مزرعتنا بحاجة إلي، إلا والدتي؛ فقد حدست دوما أن وجهي، كلما تحركتُ أمامها في تلك الأيام التي أقضيها هناك، حدثها عني بأكثر مما فعله لساني. كنت أعرف طبيعة أسئلتها التّلميحيّة كما تعرف هي نبرة أجوبتي المتخلِّصة - «لأني قطعة من لحمك ودمك» كذلك هفوت إلى روحها في هذه الليلة متأملا مليا صورتها على أحد رفوف المكتبة إلى جانب بقية تلك الصور الأخرى.

في اليوم الموالي، المصادف للأربعاء في الحادي والثلاثين من أكتوبر الذي كانت الحرب غداته ستدخل عامها الثالث، دعاني حاييم

إلى عشاء في بيته، وخلاله عبّر لي من جديد عن مخاوفه علي. كان يحدس أني لن أستطيع تجنب الخطر إلى ما لا نهاية من غير أن أغطي بوظيفة مّا على ما أقوم به. فمكانة والدي، على أهميتها عند الإدارة الاستعمارية، لم تكن لتوفر لي حماية إلى ما لا نهاية. ثم إنها لا تزيل الشكوك من حولي.

ومن دون أن يصرح لي أني مراقَب، أخبرني أن المفتش آلان بورسييه كان قد جاءه صباح ذلك اليوم وسأله، خلال معاينة محل الصيدلية، إن أنا سأكون شريكا له. وأنه ألقى بسخرية فكرة أنّ الصيدلَة والفلسفة كانتا عبر التاريخ بنتين لأم واحدة. وعبّر له عن تعجّبه من خرّيج جامعة مثلي يمكث في مدينة ليس فيها ما يشتغل به! وقال لي إن المفتش آلان بورسييه لم يكن ينتظر منه ردا أو جوابا. فقد ابتسم ابتسامة خبيثة وهو ينصرف ملمّحا إلى أن ما يبقيني في المدينة أكبرُ من عشق امرأة!

«ولكنه لا يستطيع أن ينكر أني في غنى عن أي وظيفة»، قلت ضاحكا مضيفا: «وهل تعرف أنت يا حاييم امرأة أنا واقع في عشقها!

- إنها مسألة وقت»، رد حاييم بابتسامة.

وقال:

«ما أقصده هو أنه حتى الأغنياء يتوظفون يا أرسلان! يمكن لك أن تنتقل إلى مدينة معسكر أو سيدي بلعباس لتدرّس في ثانوية إحداهما.

- هذه المدينة تحتاجنا يا حاييم. أنت تعرف هذا».

في تلك الأيام، كان التكتم الإعلامي على الاشتباكات المسلحة في الجبال والغابات وفي النواحي الريفية قد زال. ومعه، كان الغلاة

في المدينة سيجدون ذريعة للانتقام. وإذ قاطعت بين تنبيهات حاييم وما أنذرني به سي فراجي من أنّ أحدا لم يعد في مأمن بالمدينة، أدركت أن هناك خطرا ما يترتب.

على قهوة ما بعد العشاء، نشر حاييم أمامي جريدة «صدى سعيدة» في صفحتها الأولى من عدد الخامس والعشرين من أكتوبر.

«انظر! هذا عدد الخميس الماضي»، قال يروزني وكأنه وجدني شككت في أمر ممّا حدّثني به.

كانت القاطرة وإحدى العربات تبدوان متوسدتين التربة. وفوق إطار الصورة بالبنط الغليظ: «عمل إرهابي ينفذ ضد قطار سعيدة».

«ليست سوى بداية. لأن الحرب تحتم أيضا ضرب منشآت العدو القاعدية»، قلت وأنا أشعر بأن حاييم إنما أطلعني على خبر يَعلمه منذ أكثر من أسبوع، مثل غيره في المدينة، كي يُشعرني بأنّه لا يشك في أني على صلة بالعملية، فلم يكن بيننا سوى خيط عنكبوت كان كلّ واحد منا حريصا على أن يبقيه قائما، لإلزامية السرية.

فعشيةَ تنفيذ العملية التي اقتضت تحديد المقطع المستقيم الذي يبلغ عليه القطار سرعته القصوى وتجنيد ثلاثة أشخاص من الخلية وتزويدهم بمطارق ومفاتيح براغي كبيرة اشتريتها بدعوى حاجتي إليها في المزرعة، كنت اقترحت على سي فراجي أن أرافقه فلم يوافق، بحجة أن هناك ما يكفي من المتطوعين. ونظر إلى زليخة التي كانت قد حضَرت إلى دكانه، في حي لامارينْ، بذريعة أن تأخذ عباءة والدتها التي خاطها لها، قائلا إن إعدام الرفيق علي لن يمر دون ردّ.

«وكأن هذا القطار ليس ذاك الذي ركبناه ذات يوم»، قلت أعلّق على ما مر بذهني من صور رحلتنا الأولى فيه.

ولأن حاييم لم يعلق، أسمعته، وكأني أقرأ أي شيء مبتذل:

«وكان القطار، بفعل تخريب، خرج عن سكته غير بعيد عن قرية نازْرگ في الضاحية الشمالية للمدينة. للتذكير كان على متنه جنود من اللفيف الأجنبي منقولون إلى ثكنة لارودوتْ توفي منهم ستة في عين المكان».

ثم أزحتها جانبا.

«ما سكتت عنه الجريدة هو أن بقية العساكر جمّعوا من كانوا يسكنون في الجوار من الأهالي العزّل. وأعدموا منهم ثمانية ببرودة دم في المكان نفسه. ثم ساقوا الباقين.

– وستظل ساكتة على جرائم أخرى لأنها في خدمة غلاة الأقدام السوداء وكبار الكولون»، أكد حاييم.

ثم أُسدل بيني وبينه ستار صمت دام لحظات رشفنا خلالها من فنجانينا رشفات سُمع لها صفير شفاهنا. ثمّ تبادلنا نظرات، كما لو أنّ الأمر كان بإيعاز، مثل شخصين انتهى بينهما للتو حديث عابر.

«حاييم صديقي. يبدو أن موعد افتراقنا حان»، قلت بإحساس الرمل الجاف في حلقي.

«أتمنى ألاّ يطول»، رد وهو يقاوم ألا تنكسر نبرته.

«هل نخرج لتمشى قليلا؟»، قلت وأنا أغالب عَبرة.

تلك الليلة الأخيرة من شهر أكتوبر الباردة عام ستة وخمسين، مررنا، لابسين معطفينا، بالقرب من كنيسة القديسة جان دارك

فسمعنا من ناقوسها قرعا تناوبيا، بطيئا وخفيضا كالذي صار يُسمَع، من وقت إلى آخر منذ أكثر من نصف سنة، إعلانا عن وفاة غالبا ما يتلوه خروج نعوش مسجاة بالعلم الثلاثي الألوان محمولة على عربة عسكرية في اتجاه مقبرة النصارى، خلف ثكنة اللفيف الأجنبي الكبرى، بالضاحية الشرقية.

«قتلى آخرون»، قلت.

وقال حاييم:

«كل هذا ما كان ليحدث لو استوعب ساسة المتروبول درس الشعوب التي سبق أن تحررت من ربْقة كولونياليتهم».

نزلنا، جنبا إلى جنب، عبر شارع إيزْلي من جهته الشرقية على رصيفه الشِّمالي، تحت رذاذ خفيف، صامتين كحال مَن كان في شرود ذهني. فتخللْنا بين حين وآخر مارِّين آخرين من الأقدام السوداء والأوروبيين بقبعات ومعاطف يسرعون الخطى ضاغطين رقابهم بين أكتافهم. وكان قد تناهى إلينا، قريبا من السوق المغطاة، صوت أحد السكارى يدندن بلهجة عربية سائبة.

«فاقوا فاقُوا! الله ينصر من فاق
فاقوا فاقُوا! وللي ما فاقوا عاقوا».

على وقعها الذي أردده الآن كمحفوظة، كنت أشعر أني أرمي خطواتي الأخيرة في مدينة قطعت معها ذهنيا منذ أن جاءني، قبل ساعات، سي فراجي وطرق علي من غير ميعاد. ففتحت له فقال: «سيكونون ثلاثة يمرون عليك هنا في التاسعة. عليك ألاّ تصبح هنا غدا» – وهو ينصرف احتل ذهني وجه زليخة تقلّب المسدس الذي كنت سلمتُها إياه بأمر من

سي فراجي في نهاية اجتماع الخلية الأخير في بيت جدتي بالدرب ثم تتفرسنا واحدا واحدا حدّ أنْ خامرني شك في أنها تقوم بدور مزدوج!

على رصيف دارة الساعة، قرب فندق الشرق، توقفنا، تحت ضوء عمود كهربائي، على إلحاح الرذاذ.

«كم نكبر بسرعة يا أرسلان!

- وتكبر معنا أحلامنا يا حاييم!».

فيما كانت أضواء نوافذ الحانات والمقاهي وواجهاتها، قبالتنا وعن شِمالنا، تعطي، هي وهذه السيارة أو تلك التي تقلع أو تمر، انطباعا بأن الألوان الليلية لم تعد هي الألوان نفسها؛ باديةً باهتة، ساغبة وكاسفة.

«تذْكر؟»، قلت أشير إلى ساعة الدارة وفي ذهني صورتنا، نحن العفريتين، في تلك القيلولة القائظة عابريْن مبللين بماء الوادي.

«لا تبدو على إشعاعها المألوف!

- ولكنك تستطيع أن ترى رقاصيها.

- إنهما يشيران إلى الثامنة والربع.

- هيا! كما العادة.

- من واحد إلى ستين.

- الآن!

- واحد. اثنان. ثلاثة...».

غير أننا لم نكمل عدّنا، كما كنا نفعل ونحن صغيران نلعب لعبة الستين ثانية فنسبق حينا حركةَ انتقال رقاص الساعة الأكبر من شرطة الدقيقة إلى الأخرى وحينا لأننا تمهّلنا في عدنا يفاجئنا مثل ذراع تخطف شيئا؛ فقد شوش علينا هدير محركات عربات عسكرية تنزل

من شارع إيزْلي وتدخل في شارع گمْبيطة نحو محطة السكة الحديدية تحمل جنودا مدججين.

«كم هي قاسية هذه الحرب!»، قال حاييم.

فقلت، رانيا إلى ما وراء الليل:

«ولكن لا حرب بلا نهاية!».

ولاحقتُ أضواءَ التوقف الحمراء في مؤخرات تلك العربات العسكرية، وهي منعكسة على الإسفلت المبلّل، هناك إلى الأسفل في نهاية الشارع، حتّى اختفت خلف سياج المحطة. فأحسست لمسة يد حاييم على حنكي، قائلا:

«عجيب! قبل أيام فقط خضلتْ هذا الوجهَ الوسيم رعدة حمى في فراشك لنزلة برد شديدة.

- وكنت طمأنتني بأنه يكفي حبة كنينة وجرعة روم في فنجان القهوة وها قد تعافيت!

- لأن الصيدلي كان يحدثك يا فيلسوف زمانه!».

وفتح لي ساعديه على حضن. فعانقته بحرارة. وإذ انفككت منه سألته عن وجهته فأخبرني بأنه سيمر على گولدا.

«عندي لك طلب»، قلت.

وأخرجت من جيبي الداخلي أوراقا نقدية، قدمتها له.

«تعرف الفقيه سي النضْري.

- طبعا! كما أعرف زليخة.

- يا لك أنت! هذا مبلغ اشتراكي الأخير. سلمه إياه. لا تتهيب. فقد حدثته عنك.

- ولم تستدعني يوما إلى الخلية!

- أعرف أنك كنت تعرف. حفاظا عليك لم أفعل. سنحتاج إليك!».

فأخرج لي من جيبه مفتاحا.

«تستطيع أن تدخل به من باب الصيدلية الخلفي للضرورة.

- سنلتقي.

- بالتأكيد!».

وتولّى عنّي حتى لا أرى في عينيه تلك الدمعة.

4

ليلة ثلج في الجبل

إن كنت التحقت بالجبل، اختيارا لا إكراها، لخوض حرب تحرير لا لصنع بطولة، فإن ذلك لا يهدهدني بعزة نفْس فلا أعترف بأنه، شأنَ جميع المقاتلين، مس شخصي المرضُ، كالصداع والأنفلونزا والإسهال ومغص الأمعاء ونوبات المعدة، وشظفُ الحياة وقلة النوم والإرهاق خلال السير، والخوفُ أثناء الاشتباكات التي أصبت في ثلاثة منها إصابات خفيفة في الرأس بفعل شظية وفي الذراع والساق بالرصاص، عالجها لي ممرض الفرقة؛ في حين وقفت على مرضى ومجروحين أغمضوا إلى الأبد في صمت. وشاهدت مقتولين كان يبدو على وجوههم أنهم سينطقون! لذلك، فإني اليومَ لا أعزُو نجاتي إلى حسن حظ، لأن الحظ مجرد وهْم، بل إلى الصدفة. فبالصدفة قُتل غيري بدلي أنا في تلك الاشتباكات. وإلا لماذا كانت العبثية التي تعرفها كل الحروب، كما قلت لحاييم يوما بعد الاستقلال!

فكيف لشخص مثلي، إذًا، أن يزكي نفسه أمام أرواح جنود لم يدخلوا مدرسة نظامية يوما ولا انتموا إلى تنظيمات سياسية؛ يتميزون بالذكاء الخارق والشجاعة النادرة في خوض حرب عصابات لم يقرؤوا عنها في أي مَلزمة أو كتاب نظري! منهم تعلمت كيف أروّض جسدي على المجاهدة والمكابدة والصبر. ومن أجلهم أصررت على قائد الفرقة «إنهم الآن في حاجة إلي لأعلمهم وأدرّس من يحسن

منهم القراءة والكتابة أساليب التحرير والحساب»، إذ اقترح علي، كي أترقى إلى نقيب، نقلي إلى ناحية أخرى برتبة ملازم أول؛ رتبة كان يعفيني من إلزاماتها حسب ما تفرضه التراتبية العسكرية كنائب له. فقد كان أربعة فحسْب من بين الخمسة والثلاثين جنديا الذين يشكّلون الفرقة يقرؤون ويكتبون.

صحيح، فإني غالبا ما شعرت بغبطة مهدهدة كلما رأيت أولئك الجنود يحملون إلى جانب أسلحتهم دفاترهم وبعض الكتب. وأحسست قلبي رقص كلما نادوني «أستاذ!» وما كان أحد منهم غيري يعلم مَن موّل شراء أدوات التعلم بما فيها الكتب التي تم تهريبها مع صنف من سبورات صغيرة مطوية تُحمل على الأكتاف.

في صفاء هذا الليل وصمت الكتب والصور من حولي، ها هو صوتُ جندي مجهول يغمر سمعي «لم يكن لك أن تفعل ما لم يكن شرفك يقبله أو ما لا يرضى عنه ضميرك وإلا وجدت أنّك لا تختلف عن مسؤول الحزب؛ فإن أنت لم تسرق مثله، كما سرق العقار والمعونات، فقد سرقتَ من حرب تحرير، شرسة وقاسية، تاريخ الذين دفعوا فدية الدم خلالها فماتوا أو تشوهوا أو فُقدوا. وبقيت أنت حيا. لذلك فالأموات وحدهم هم الأجدر بأن يسمعوا عن بطولاتهم!».

زليخة، خلفي الآن في غرفة النوم بين يديها كتاب تقرأه ككل ليلة، لم تكن تعلم أن صعودها إلى الجبل، بعد عامين من صعودي لتلتحق بالفرقة التي كنت انتميت إليها، شكّل حدثا استثنائيا بالنسبة إلى الجنود الذين كانوا يسمعون، من حين إلىٰ آخر، أن في هذه الكتيبة أو الأخرى، في هذه الفرقة أو في تلك السَّرية، جندياتٍ مقاتلات أو

ممرضات. ولكن من غير أن تراهُنّ أعينهم؛ كما هي زليخة بلحمها وعظمها، بشبابِها ووسامتها. لقد احتاجوا إلى وقت حتّى يستوعبوا وجودها وحضورها، ولينظروا إلى حركتها نظرتهم إلى واحد منهم، وليسمعوا كلامها كما يسمعون من أي امرأة أخرى من معارفهم.

كنت ألاحظ ذلك؛ فأنا نفسي، لرؤيتي زليخة في زي الجنديات الذي لبسته غداة التحاقها بعد تنفيذها عملية ضد المفتش آلان بورسييه وعلى وجهها برغم التعب صرامةُ المحاربة، أحسست كأن شيئا مّا أخذ يتغير في عواطفنا جميعا؛ وكنت ردّدت في داخلي، وأنا أتابعها مرّة في حصة تدريب على الالتحام تطعن فزاعة بحربة بندقيتها، أنه ليس طبيعة مقصورة على ذكوريّتنا نحن أهل هذا البلد أن تكون المرأة حافزا نفسيا قويا في الدفاع عن الشرف حتى الموت.

فمثل نور مؤنس، في ظلمة وحشة، راح حضور زليخة يسْنو في وجداني كلما أبصرتها خلال تحرُّكنا الدائم؛ في غمرة الاشتباكات أحيانا، في اجتماعات التعبئة، في التدريبات على نصب الكمائن وتكتيك الانسحاب، وفي حصص محو الأمية التي صارت تخصصها للجنود الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، مخففة عني بعض عبئي. فقلبي ظل يخبرني أن عينها هي الأخرى لا تغفل عني. وكم تقاطعت نظراتنا بالتباس فأبقينا كلماتنا منتظرة خلف لسانينا!

ذات مرة، خلال توقف الفرقة لاستراحة في غابة تسمى اللبّة وقد انشغل كل جندي بشأنه، ذهبت زليخة، وكان قد مضى عليها عام في الجبل، فقطعت غصنا من شجرة عرعار، وقشّرت بسكينٍ لحاءَ التايدة من جذع صنوبرة. ثم قعدت أرضا، فيما كنت أتابع حركاتها من حيث

لا تنتبه إلي. ففكت سيور جزمة الپاتوكاس. ونزعت جواربها، كاشفة عن قدميها الملتهبتين، بسبب سير ليلة كاملة بلا توقف بين الجبال وفي الوديان والأحراش حدّ الإنهاك. فكززت أسناني لصعقة ألم ثلمت وجهها، من غير أن تُظهر تشكّيا أو ترفع عينيها لطلب عون!

فقد هرستِ اللحاء بين حجرتين وسحقتُه. ثم وضعته على منديل أخرجته من جيب سترتها العسكرية. ومضغت من الغصن قدرا أضافته مضغة مضغةً إلى المسحوق فضمدت قدميها. ثم لبست جواربها وذرّت في جزمتها ما تبقى. وأنا منجذب إليها كمَن جذبه السحر، ومارت في ذهني صورة الطفلة التي كانتها يوما في مدرسة جول فيرّي.

ولما نهضت كانت الفرقة قد التأمت؛ فوضعت حمالة سلاحها على كتفها وسحبت ظلة قبعتها قليلا فوق جبهتها، معقوصة الشعر إلى الخلف. وأومأت برأسها، ممتشقة القوام، في إشارة إلى أنها على استعداد لمواصلة السير. ثم، برغم الالتهاب، رمت خطوتها واثقة.

يومئذ، مال قلبي نهائيا نحو زليخة. لا لأنها كانت آسرة بشبابها ووسامتها فحسْب ولكن أيضا لإصرارها العنيد على أن تبدو هي الأخرى قادرة على تحمل حياة جندي تحرير في الجبل؛ إضافة إلى متاعب المناقشات والأحاديث مع نساء الأرياف. كانت تفعل ذلك معهن عندما تنزل الفرقة على الفلاحين ليلا. فتحدثهن عن الحرب، وعن كيفية رعاية أطفالهن، وعن العناية بأنفسهن، تحديا للعوز واليأس. وقد ظلت، كأي جندي، معرضة لأخطار الكمائن والاشتباكات المسلحة. ومثل أي جندي، عانت مغص الجوع ولهيب

العطش وإنهاك المرض. وفوق ذلك، ما كانت تسببه لها هي بالذّات دورتُها الشهرية من وجع وصداع وحرج.

ولكن زليخة، مثلما يَحْدث لأشد النساء عفة ومقاومة لرغباتهن الجسدية، كانت ذات ليلة شتوية قاسية البرودة - لشعورها بأن الموت قد يخطف أحدنا في أي لحظة قبل نهاية الحرب فلا نسعد ساعة بلقائنا المأمول كما كانت ستبوح لي يوما بعد زواجنا - قد استسلمت لقلبها الذي طالما ردعته بقولها «أخيار النساء والرجال يموتون في المواجهات كل يوم فكفّ عن إغوائي!».

وخرجت من خشّاب كانت هيأته للنوم. وزحفتْ على الثلج لتلتحق بي، في خشاب مجاور؛ وقد انتبهت إليها فلم أحرك ساكنا. فوضعتْ مثلي سلاحها جنبها وتمددت، هامسة لي بألاّ أقول شيئا، ألاّ أردها. فتزحزحت لها عن فراشي الذي كان من أغصان الصنوبر. فالتحمت بي، مرتعشة الجسد.

«أنت مجمدة»، قلت متلمسا يديها.

«هل تدرك حالي؟»، ردت بحرقة.

أحسستني أصْفى حالا، وقد فرغ ذهني من أي صورة للحرب، لأني وجدتني في أوج لحظات ضعفي أمام اختبار زليخة المفاجئ القاسي الذي واجهتُه بهشاشة طفولتي. أجل! كان يجب أن أُنهض الطفل في داخلي ليؤدي اللعبة البريئة في الظاهر مع جندية تدفعها طبيعتها أن تكون بمشاعر امرأة، وبأحلامها ورغبتها. ويا لَلانشطار الذري الذي خلفته جملة سؤالها في روحي!

«منذ أن كنا في المدرسة»، أجبت على أمل أن أجرّها معي في لعبة تَهرُّبي.

لكن أن تقول لك امرأة بجانبك في قسوة الحرب، على لهف: «لسنا قديسيْن»، فذلك ما يضعك، بجسدك وأفكارك وأخلاقك، في عمق المحنة! إني أبتسم من جملتها الآن.

«مثلكِ تهصر روحي الحاجة إلى دفء آخر وغذاء آخر، مثل جميع هؤلاء الذين يهجعون بالقرب منا، مثل الحراس الأربعة من حولنا!»، نطقتُ بعد لحظة صمت على شعور بقسوة الحرمان الذي يمكن لحرب أن تسلطه على إنسان في خضمها.

ثم نزعتُ عني جلابتي ودثرتها بها؛ فأولجتْ ساقها بين ساقَيّ، منفنفة مثل قطة. وحكّت على صدري حنكها وأنفها وفمها. وشهقتْ. فمسّدت بيدي على رأسها المعصب بشاش، هامسا لها أن تتصور كم من الأرامل تخلّف تلك الحرب؛ مثل أولئك اللائي تركتْهن وراءها وهن في عز شبابهن مثلها وفي عمرها أو أصغر منها. فحركت رأسها. فطلبت منها أنْ حدثيني عن سي النضْري لأنها ستشعر بالدفء. وانتظرتُ لحظات.

ثم، ها أنا أسمع حسيسها آتيا من عمق الليل الجليل بأن والدها اختفى لمدة شهر. وقبل أسبوع من رمي جثته في ذلك الصباح، جاء سي فراجي فأخبرها هي ووالدتها بأن منظمة اليد الحمراء قد تكون اختطفته. فلم تنتظرا أن يعود إليهما، إن هو عاد، إلا جثة.

لن أسأل زليخة، حين ألتحق بها في السرير بعد لحظات، شيئا آخر عن تلك الليلة المثلجة القاسية التي سكنت خلالها جانبي مخرِسة أجيج رغبتها؛ في سني، في الثامنة والعشرين، متمكنة من حيازة جسدها، ممتلكة إرادتها، حاسمة خيارها منذ أن فتحت باب حوْشهم في ذاك الصباح على جثة أبيها

مرمية عند العتبة، ساكنا إلى موته وعلى وجهه المزْرقّ آثار كدمات وجروح متيبسة؛ بينما أصابع يديه بلا أظافر. فقاومتُ حتّى لا تنهار أمام أمها الباكية.

«لا أدري كيف تفجر في قلبي هذا الشعور الذي جعلني أقول لها إنه لا وقت للبكاء في هذه الحرب!».

لقد كان بعض الأقارب والجيران هم الذين حملوا نعش سي النضْري في صمت وكبرياء لدفنه في مقبرة سيدي الزهّار من غير تغسيل. ومثل الشهداء لم يقَم له عزاء.

«كنت نبشت في حافظة أوراق جلدية أخرجتها أمي، من بين حجرتين داخليتين من دعامة بئر الحوش، فوجدت بينها قوائم بأسماء من كانوا يدفعون له اشتراكات دعم الحرب. وأخفيت عنها دهشتي إذ قرأت اسميكما أنت وحاييم ومقابلهما مبلغ كل منكما. وطلبت منها أن تخبئ كل تلك الأوراق».

بعد أيام، عاد سي فراجي إلى البيت واستأذن من الأم أن يختلي بزليخة في غرفتها. وهناك طلب منها أن تنفذ المهمة. ثم سلمها صورة نقشت ملامحها في ذاكرتها وأعادتها له. فذكر لها اسم آلان بورسييه. وعيّن لها مساره وعنوان بيته ومكان الفعل وتوقيته. فتمثّلت ذلك كلّه. ثم حدد لها مخططا لانسحابها بعد التنفيذ. فقبلت بلا تردد.

لتتأكد، قاطعت زليخة آلان بورسييه في شارع إيزْلي الغاص في مساء ذلك السبت الخريفي البارد. واجتازت إلى الرصيف الآخر ودارت فأسرعت خطاها. صارت الآن في توازٍ مع آلان بورسييه. راقبته. تجاوزته بأمتار. وقطعت الطريق نحو الرصيف الذي يسير عليه. ووقفت بجانب واجهة أحد المحلاّت.

مر آلان بورسييه. كان يلبس معطفا وقبعة. وكانت هي في معطف أيضا وفولارة على رأسها. مشت وراءه على بعد أمتار. وفي الشارع الفرعي، بجانب سينما پالاص، انحرف يمينا. كانت الأضواء خافتة. زليخة تعرف الآن أن آلان بورسييه اقترب من بيته. أسرعت قليلا. شددت قبضتها على المسدس في جيبها. نادت: «مسْيو!» التفت. صارت على بعد ثلاثة أمتار تقريبا. وضعت إصبعها على الزناد. توقفت. حيته. لم يرد. سألته: «مسْيو آلان بورسييه؟» نطق، في عصبية: «من تكونين؟» أخرجت المسدس. اندهش. تراجع. ترددتْ لحظة. نقل يده في حركة خاطفة إلى جهة صدره اليمنى. عاجلتْه بطلقة أولى فثانية. ترنح. وكان قد أخرج مسدسه. أطلقت الثالثة. لم تعد تسمع شيئا. أحست فقط مثل وخزة في ساعدها. ركضت. دارت مع شارع فرعي مُقاطع منه خرجت إلى آخر. ومن هذا عادت إلى شارع إيزْلي. ظهرت لها لافتة الصيدلية. شاهدت السيارات تتوقف والراجلين على الرصيفين يسارعون في اتجاه سينما پالاص في تشوش كبير.

«كان دوي الطلقات لا يزال يصم أذنَيّ. لكني كنت استعدت إحساسي بيمناي وهي لا تزال تقبض على المسدس، بينما كانت يسراي تدمي. كان ساعدي يؤلمني كثيرا».

دخلت الصيدلية من بابها الخلفي حسب مخطط الانسحاب. وجدت حاييم في انتظارها. أدخلها المخبر. وربط على ساعدها ضمادة لإيقاف النزيف. ثم تكلم في الهاتف. بعد حين حضر ممرض لم يكن من الأهالي خاط جرحها الذي تطلب ثلاث غرز. وهمس، كأنه يخبر حاييم الواقف عليها برباطة ملأتها ثقة، أنه من حسن الحظ أن العظم لم يصب.

«لا أتذكر حين خرجت سوى أني وجدت سي فراجي عند الباب الخلفي مع خيط الاتصال الذي رافقني تحت المطر والظلام مشيا عبر مسلك في وادي الوكريف إلى غابة الكرارمة ومنها إلى جبل عين السلطان حيث وجدتك في انتظاري مع فوج من الجنود».

وتنهدتْ.

«كيف فعلتُ ذلك؟».

فسألتها إن كان انتابها إحساس مّا حين أطلقت النار على المفتش آلان بورسييه. ردت، سريعا، أنها لم تشعر إلا بأنها تنفذ أمرا.

«لأنها الحرب. ثم إن آلان بورسييه قتل والدي مثلما يقتل أهلَنا وأطفالَنا المظليون ومرتزقة اللفيف الأجنبي والحرْكي»، أضافت.

وبعد صمت، على صمتي.

«يا لَهذه الحرب! إن لم تقتلك سلبتْك لذة التمتع بما تتيحه لك الحياة التي جئت إليها!»، قالت بصوت ذاهل.

«نامي الآن. وغدا لن يكون إلا كما نريد»، قلت.

وطفقتُ أداعب خدها بأطراف أصابعي وقد سكن ذهني وجه جدتي بجانبي على فراشي تفعل ذلك وأنا طفل تنهش جسدي حمى الحصباء.

فجرا، استيقظنا على صوت قائد الفرقة، الضابط زياد، واقفا علينا. فقمنا وقدمنا التحية.

«تفطنت ولم أعترض. فأنا أثق في شهامة الأستاذ أرسلان»، قال مخاطبا زليخة.

ثم تولى. فصدر الإيعاز باستئناف سير الفرقة الذي كان لا يتوقف إلا ليبدأ.

مثلما خرجت زليخة من صيدلية حاييم في تلك الليلة، كنت، في ليلة شتاء آخَر ممطرة كهذه التي يقصف رعدُها مدينة وهران حد أن أسمع أزيز زجاج نافذة مكتبتي، دخلتُ عليه فيها من بابها الخلفي نفسه بالمفتاح الذي كان سلمني إياه قبل ثلاث سنين.

للمفاجأة، نهض من كرسيه فوقف في استقامة تمثال، وقد غمرت وجهَه حمرة عرفتُها له منذ أعوام المدرسة تظهر عليه لانفعال إيجابي - بعد أعوام كان حاييم لدى إعادة فتْح صيدليته إثر إحراقها سيذكر لي في مخبرها أن هيئتي هي التي أدهشته أكثر من غيرها في تلك الليلة.

تفحّصني إن كنت أنا الذي تعودت عيناه أن ترياني في ثيابي المعتادة؛ غير شاش أخضر على رأسي وجلابة صوفية سوداء يرفعها قليلا، عند كتفي اليمنى، طرفُ ماسورة سلاحي.

تحاضنّا، على نحوٍ لم يسبق لنا من قبل، إذ كنا نلتقي بعد غياب، ضاغطين بعضنا بحرارة صامتين. ثم انفككنا فتبادلنا ضربات خفيفة بقبضتينا على صدرينا، كيوم نجاحنا في البكالوريا.

لقد أطلقت عيني، بغبطة، في أرجاء المخبر وكأني لم أره من قبل بقواريره وأقماعه ومحاليله، من مختلف الأشكال والأحجام، وبروائح مستحضراته. ثم حدجت حاييم، بافتتان، في هيئته بمئزره وهو يشبه الدكتور مابوز؛ بتلك الصورة فاكهته.

«أما أنت فيدو لي أنك خرجت من إحدى الروايات!»، رد علي.

فنبهته إلى أن جلابتي لم تلبسها أي شخصية في أي رواية كنا قرأناها. فأخذ كمي وشمّ، متعجبا للرائحة.

«أجدها مزيجا من الصوف، مبللا بالمطر، والبارود والعرعار!

- وأنا أجد روائح مخبرك أريج سلام».

فهزني من كتفي.

«كم ازددتَ شدة ووسامة!

- أنت الجميل الأنيق!»، ردَدت وقد أمسكت يدا له لا تزال على كتفي التي عليها سلاحي.

فعلى طاولة المخبر، التي فوقها أقلام وسجلات وأوراق ووصفات وجريدة أيضا، قابلني حاييم. وقال إنه كان على وشك أن يغادر بعد إتمام حصيلة اليوم.

«كنت سأتصرف.

- لا أشك»، رد.

وابتسم لي قائلا إنّه صار يتوقع أن تُنسَف الصيدلية في أيّ لحظة أو أن تحرق أو تداهمها عناصر من الكومندو لتصفيته، لا أن أدخل عليه كما فعلتُ فجأة! وأخبرني، لأني سألته كيف هي أحوال المدينة، عن إقامة حواجز من الأسلاك الشائكة فاصلة في بعض شوارعها التي كان يعبر منها الأهالي إلى وسطها من الجهة الغربية خاصة. وقال إنها تزداد كل يوم شحوبا. وتمنى لي أن أخرج منها في أمان. فطمأنته، مبتسما، على أني تحت حراسة أحد الجنود التابعين للجيش الفرنسي. فحسِبها مني مزحة. فأسررت إليه أن مع خيط الاتصال الذي ينتظرني في السيارة عند الزقاق الخلفي صهرَ سي فراجي.

«الرقيب هاشمي في صفوف كومندو جورج!»، نطق متفرسا إياي بدهشة.

«بالضّبط. وبزيه الرسمي وسلاحه. وهو ثمل في حال قصوى من الانتشاء. وهو الذي يقود»، قلت بنبرة تأكيد - الرقيب هاشمي كان من بين القلائل الناجين من الانتقام بعد الاستقلال كما أخبرتني زوجة سي فراجي يوم زرتها في بيتها لأطمئن على أحوالها إن كانت في حاجة إلى معونة من البلدية.

فأصدر حاييم نهنهة استغراب. وقال إنه لا يصدق. فقلت إننا نحن أيضا قادرون على اختراقهم. فصمت لحظة قبل أن يلقي ما كان سيتردد لمدة في سمعي «لا شيء أخطر في حرب من الخيانات». وسألني عن زليخة فأجبته أنها تقاوم. فسحب الجريدة على صفحتها الأولى. وأدارها في اتجاهي، على تأثر. ثم أشار بسبابته إلى الصورة التي تتوسطها.

سنوات الجامعة الأربع ونادي الطلبة وحي القصبة واللقاءات والاجتماعات ولحظة فزعي ليلة هروبي قبل وصول البوليس وكل الذكريات الصغيرة انثالت علي إذ نظرت إلى وجه حسيبة وصّال الجميل مضرجا بالدم. كانت تبدو مغلقة العينين مفتوحة الشفتين، كما في حال استرخاء من تعب، بين عمر بلا ذراع وجمال ممزَّق الصدر. زفرتُ. أحسست صدري التهب وعينَيّ ستنفجران.

«القتلة! ونسفوا المخبأ بمن فيه من أعضاء الخلية»، نطقت بصوت مذبوح.

«لا بد لخيانة»، قال حاييم.

وأشار إلى علبة كرتون بجانبه.

«جمعت كل الأعداد التي بها موضوعات تهمّك. تستطيع أن تحملها معك إن وجدت إلى ذلك سبيلا».

حاييم كان يعرف أنه لن يحرجني -وذلك لصداقتنا التي ضُرب عليها سور مودة يمنع كل تشويش على حميميتها- إذ سألني إن كنت أبغي أن أشرب شيئا، حتى أتجاوز صدمة مقتل حسيبة، كما قدّرت أنّه قصد. وقام فأخرج من خزانة، ذات بابين زجاجيين مدمجة في الجدار، قنينة ماحْيا* وضعها مع كأسين على الطاولة وجلس.

فكرت فقط في ما يمكن أن يلحق بحاييم إنِ اكتُشف أمره. وكان ذلك شعورا ركسته إلى داخلي إذ طلبت من قائد الفرقة في الجبل أن أقوم شخصيا بمهمة النزول إلى المدينة، وأنا أعي أني أفعل ذلك بدافع عاطفي أيضا.

صب حاييم في الكأسين تدريجتين من الشراب بالحجم نفسه، بحركات الصيدلي اللبقة ذاتها، كما كان يفعل بين حين وآخر في الأستوديو أيام الجامعة، قائلا إنه يعلم ما قد يسببه لي خرْق حظْر على كأس شراب.

«اطمئن يا حاييم! ما زلتُ أرى أن الحياة، برغم الحرب ومحظوراتها كلها، يجب أن نعيش ما تتيحه لنا من سعادة عابرة. لحظةً بلحظة.

- أرأيت؟ لذا أنت تُبهج قلبي».

ورفع لي الكأس.

«لكل المقاومين!

---

* ماحْيا أو ماء الحياة. شراب روحي اختص بتقطيره يهود الجزائر والمغرب. ويعصر من التين. يقابله في تونس وليبيا شراب البوخة.

- للذين ذهبوا!».

لبرهة، تخيلت حاييم في قبضة جلاديه بجسده غير الصلب كيف يكون انكساره مؤلما لأول ضربة يتلقاها. كنت أعرفه أكثر مما كان لأي أحد غيري أن يعرفه؛ لا سي فراجي ولا الضابط زياد؛ فهو الآخر سألني عنه ليطمئن عليّ منه فأجبته بأنه أوثق مما يتصوره.

«تعرف يا أرسلان؟ كل يوم أزداد شعورا بأن مكاني يجب أن يكون إلى جانبك. أحمل السلاح مثلك من أجل شعب يستحق الحياة!»، قال حاييم مرفقا ذلك بإيماءات الرغبة من يديه.

فهو لم يزايد يوما في شيء. يتحفظ. ويزن كلماته. وتلك كانت رغبته الصميمة في أن يكون إلى جانبي في الجبل. قال لي مرة، مثل حكيم، إن الكلمة التي لا تشعر بثقلها على لسانك ابتلعْها لأنها لا تستحق أن تخرج. وكنا إذّاك نتحدث في الحب عن گولدا وسيلين.

«ولكنّك هنا في صيدليتك تقدّم ما يسند السلاح. ولولاك ما كانت زليخة لتنجو في تلك الليلة»، أجبته.

فقد وجدته أمرا طبيعيا أن يرد حاييم بأنه لا يقوم بغير واجبه. وكان أخبرني عن سي النضْري يوم جاء إلى صيدليته متذرعا بأخذ دواء ليستلم مبلغ الاشتراك.

«كانت تلك آخر مرة رأيت فيها وجها تقيا غاب إلى الأبد!»، أضاف. ثم عرض علي أن يحضر لي شيئا آكله.

«شكرا. يجب ألاّ أبقى أكثر مما بقيته لهذه اللحظات السعيدة! أريد فقط بعض الأدوية»، ردَدت باستعجال.

فنهض وأشار إلي بأن أتبعه. وفي داخل الصيدلية دار نصف دورة.

«هذه الرفوف بكل ما فيها تحت تصرفك.
– فقط، مورفين، ضمادات، مراهم، أسبرين، پينيسيلن، كحول وقطن.
– أمْرك!».
وإذ أنهى حاييم تجميع ذلك سألته إن كان لا يخشى أن تكتشف لجنة مراقبة، تنزل عليه فجأة، نفاد أدوية مهمة مثل الپينيسيلين في ظرف قصير. فأجابني مبتسما، وهو يهيئ علبة الكرتون، أن بعض الأدوية يجلبها من غير تسجيل لأنه يعرف مسؤولا شيوعيا من الأوروبيين في الصيدلية المركزية لا يُخفي تعاطفه مع القضية هو الذي يتواطأ معه.
«يتواطأ معك؟ حاييم! أنت لا تفقد شيئا من ألطاف مرحك حتى في مثل هذه الظروف.
– يجب أن نقهر فينا شيئا من الخوف!».
وفي المخبر، أضاف لي حاييم علبة كرتون الجرائد وهو صامت.
ثم، وهو يصرف نظره عني.
«رافقتك السلامة.
– إلى اللقاء».

وقفت للحظات أمام صورتَيْ والديّ، حين دخلت المكتبة في هذه الليلة، فأحسست في جسدي كله كمثل دبيب النّمل لِما كان يسكن قلبي في الجبل من فزع خوفا عليهما من تصفية أحدهما أو هما معا في خضم حرب كانت قد ازدادت، في عامها السادس، ضراوة وشدة، مخلفة الموت والخراب والحزن اليومي؛ في المواجهات الدامية كما في التجاوزات من جانب الجيش الفرنسي بحق المدنيين في الأرياف بالتهجير والتقتيل واستعمال الأسلحة المحظورة. ومن جانب ج.ت.و.* في الذبح والتنكيل في صفوفها هي وبحق الأهالي لأي اشتباه أو تقاعس أو وشاية.

ثم اكتفيت بزفرة حسرة.

فضابط الفرقة الإدارية المتخصصة** نفسه -قبل أن أبعث إلى والدي رسالة بواسطة خيط الاتصال أترجّاه فيها أن يغادر المزرعة باتجاه المدينة إلى حين- كان سعى، منذ أن تأكد من شيوع خبر التحاقي بالجبل، إلى إقناع صديقه القايد حنيفي، أعني والدي، بالانتقال إلى قرية بهلول المجاورة؛ تلك التي يقطنها معمرون وأهالٍ وبها ثكنة صغيرة للعسكر ومقر للدرك. لكن والدي اختلق له أعذارا كثيرة. وادعى أن مغادرته لن تكون في صالحه هو نفسه لأنه سيفقد

* ج.ت.و. تعيّن، اختصارا وفي الوقت نفسه، جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني، خلال حرب التحرير. وبعد الاستقلال، تعيّن الجبهة التي تصير الحزب الحاكم.
** المشهورة بـ SAS والمتخصصة في الحرب النفسية.

امتيازاته الشخصية معه، بل إنّه سيخسر، بالإضافة إلى ذلك، عينا وأذنا ولسانا في المنطقة كلها. ولم يكن يخفى على أحد أن والدي يملك فوق ما يكفيه لشراء أي مسكن أو بنائه في أي مكان إنْ هو قرر المغادرة أو أُلزم إياها إلزاما.

وكوْن والدي، المنوّر حنيفي، غنيا ومالك أرض وأحد الأعيان ومتعلما، مثله مثل والدتي، حاز تقديرا وهيْبة لنيله الشهادة الابتدائية في المدرسة الفرنسية وحفْظه القرآن وتفقهِه في الدين، رفعته الإدارة الفرنسية إلى مرتبة قايد القبيلة؛ وهي مرتبة تساوي أو تفوق منصبا إداريا واعتباريا ذا وزن في التقدير العام لدى الأهالي في المنطقة وخارجها.

أما والدتي، تركية بنت سليمان، فلأنها من عائلة شريفة وثرية من أهل السهوب، كانت تقرأ وتكتب. ولكن لأنّها امرأة خداجية، لم يعش لها، من بين خمس بطون، سواي. وبرغم ذلك، لم يتخذ عليها والدي ضرة.

ولِما كانا يتمتعان به من حكمة وسَعة نظر، استطاعا أن يسيّرا أحوالهما، منذ الأعوام الأولى من الحرب، بتوازنات سياسيّين محنكيْن، وأن يتواطآ على تقاسم الأدوار.

فوالدي ظل لا يُظهر في كلامه مع غيره، من دون والدتي، أي تعاطف تجاه ج.ت.و. بل إنه استمر، كلما سنحت فرصةٌ في مأدبة أو خلال اجتماع أو لقاء في سوق، يضمّن أحاديثه رسائل إلى مسؤولي التراتبية العسكرية والإدارية في المدينة، ليطمئنهم على أنه لا يزال محل ثقتهم، وأنه سيبقى إلى جانب فرنسا العظيمة، وأنه لن يتوانى عن إرغام مَن هم ملزَمون بدفع الجباية من الفلاحين في المنطقة؛ بينما كان غالبا مّا أرسل

عثمان إلى هذا الفلاح أو ذاك بمبلغ مالي يساعده على تسديد ديونه تجاه البنك أو على تخليص رهن، وأنه، لِما يقوم به المغامرون من أعمال خارجة عن القانون، لن يسكت عن أحد في محيط منطقته صعد إلى الجبل ليحمل السلاح؛ وكان، من حين إلى آخر، يرسل ليلا معونات إلى أكثر من عائلة في الريف يعرف أنّ رجالها التحقوا بجيش التحرير.

ومع خُدامه الذين يأتمرون بأمره ويرهبونه لقسوته التي كانت على قدْر سخائه، لم يسكت يوما عن أولئك الذين يؤدون منهم خدمة سيئة له؛ وغالبا مّا سمعت منه ذلك ورأيته.

«أنتم وجوه الشر! تركتم نصف صوف الغنم وشَعر العنزي! وين تعلمتم الزج؟».

أو عملا غير متقن.

«وأنت يا امراة! شكون علمتك النساجة وضرْب الخلالة كما هكذا؟ هيا نثّروا المنسج كله!».

أو أظهر أحدهم تقصيرا.

«شبعت ورقدت يا الراعي! وخليت الذيب أكل النعجة! هيا اغرب عن وجهي!».

وكان أشد قسوة على المتحايلين من الفلاحين في محيط منطقته.

«وجاي تشتكي لي من اليهودي المرابي للي أخذ أرضك؟ واش عملت بدراهم القمح اللي خلصتهم من البنك؟ حرقت كل شي في الاعراس والشراب؟ وجهك وجه خماسة!*».

* صفة ذم. ومنها الخمّاس والخمّاسون: العاملون في الفلاحة والرعي بمقابل الخمس من محصول المزروعات أو المواشي.

بينما تضطلع والدتي بترتيب المعونات العينية، من دقيق وسمن وسكّر وقهوة. فتكلف عثمان شحن ذلك نحو الجبل على ظهر البغل، بعد أن يضبط الموعد مع خيط الاتصال الذي يكون لاقاه في سوق القرية الأسبوعية. وكان ذلك لا يتم إلا ليلا عبر مسلك مؤمَّن تُمحى آثار السير فيه بفروع الشجر ذهابا وإيابا.

صحيح، فضابط الفرقة الإدارية المتخصصة غض الطرف عن ترحيل والدي، لألطافه عليه هو شخصيا بما ينظمه له هو ومساعديه من مآدب ويقدمه له من هدايا. ولكنه، عِوض ذلك، أقام مركز مراقبة بالقرب من مزرعتنا، في الطريق المؤدية إلى المدينة، لرصد كل تحرك حولها - ذات يوم وأنا أرقب المزرعة بمنظار ميداني من مرتفع الجبل المطل عليها سألت قائد الفرقة الضابط زياد لأنه مازحني بأني أستطيع أن أنزل لأشرب قهوة ثم أعود.

«هل اصطدت يوما سمكا بالصنارة يا حضرة القائد؟

- في وادينا. وليس في البحر.

- والدتي تعرف أن ضابط لَـSAS يتخذ منها طُعما لي في صنارته.

- أتخيله في المركز هناك يمسك القصبة.

- لكن شص صنارته لن يهتز. لأني لن أكون سمكته المنتظَرة!».

يومها، كشف لي الضابط زياد عن قصة والدي مع العقيد بيجار، قائد المظليين، كما بلَغه عنه من أحد الفارين من الجيش الفرنسي. ويومها كان صدري قد امتلأ كرها للعقيد؛ للغطرسة التي أبداها تجاه والدي والإهانة التي ألحقها به.

ففي مكتبه بالمدينة دار ما كان لا بد أن يدور بينهما على خلفية حرب أمست شاملة.

«ابن واحد لم تتحكم فيه! شكرا للربّ على أنه لم يرزقك غيره! والآن هلا أخبرتني كيف لم تقنعه بعدُ بالرجوع إلى جادة الصواب؟

– سيدي؛ مدرستكم ثم جامعتكم هي التي دوّرت رأسه. قهرَنا أنا وأمه بفلسفته. وحتى أعبّر لكم عن عدم رضاي عمّا كان انتهى إليه تفكيره كنت أخبرتكم بأنه التحق بالمغامرين».

آخذه العقيد على أنه لم يكن أطلعهم من قبل على نواياي، أنا النجل الذي جحد فضل فرنسا عليه، فتذرع له.

«كنا أنا والشريفة نأمل أن نُثنيه.

– تأملان!

– وكنت هددته بأني سأبلّغ عنه!

– طبعا! تبلغ عنه الفلاڤة* أنه تأخر في الالتحاق بهم!

– أبدا يا سيدي! أنتم تعرفون ولاءنا لكم.

– وأعرف كذبكم الذي هو طبيعة فيكم!».

هنا، أسرّ والدي الإهانة في نفسه. وافتعل للعقيد تأسفا.

«كان يطمئننا على أنه لن يفعل إلا ما يرضينا. ولكننا لم نشعر إلا وقد اختفى فجأة.

– وهو منذ ذلك الحين لا يقوم فعلا إلا بما يرضيكما!

– أرسلان ابني يا سيدي. ولأن لك أبناء، كما أفترض، فأنت تقدّر أنه غالبا ما تغلبنا عاطفتنا تجاههم فلا نقدر على كبح حماقاتهم.

– حماقاتهم التي يقترفونها في حق أعدائهم الكبار. طبعا!

* الفلاڤة، بتشديد اللام الثانية وتفخيمها، صفة أطلقتها الدعاية الفرنسية خلال الحرب على جنود جيش التحرير. وتعني من يقتلون بشكل وحشي.

- سيدي. أرجو أن تثق بي. سأعمل جهدي على إعادته إلى جادة الصواب بعد رجوعي من مكة».

توليتُ عن صورتي والديّ فجلست إلى الطاولة، لساعتين أخريين، وهمست لروحيهما: «كم كان يلزمكما أيها الكريمان من أساليب التحايل لتجنب شقاء كان يمكن أن يحل بكما في أي لحظة لأي قرار تأديبِي تتخذه الإدارة الاستعمارية بحقكما، وموت مؤكَّد لأي وشاية كاذبة من حاسد تصل عنكما أذنَ مسؤول ج.ت.و. السياسي في الناحية!».

لقد تصورت، لذلك، صورا شتى مما كان يرعبني عنهما في يقظتي وفي كوابيسي. ولكني لم أتوقع أن مصير والدي يشاء له ألاّ يعود من حجته إلى مكة، في نهاية ربيع ذلك العام، حتى يُقتل على يد هذه الجهة أو تلك. فهنالك قضى نحبه. وثَمّ دُفن. ويوم نعاه لي قائد الفرقة الضابط زياد، بينما كانت الحرب تشارف نهاية سنتها السادسة، فلم أردّ على تعزيته، رابَه صمتي. فقد كنا انسحبنا قبل ساعات من اشتباك مع مجموعة من الحرْكى، نصبنا لهم كمينا لدى عودتهم من عملية تمشيط في الناحية أسفر عن قتلى منهم استولينا على أسلحتهم بعد أن تخلى عنهم الناجون منهم، وقعدنا للعشاء قبل غروب الشمس فلاحظت زليخة أني لم أتناول نصيبي من خبز الشعير والبلوط. فحاذتني وسألتني عن شرودي.

«الوالد!»، أجبتها بصوت مجروح.

فقبضت على معصمي وضغطت. ثم فكت عني، مبتعدة.

لا الضابط زياد ولا زليخة ولا أي جندي كان له أن يحس لهيب دمي.

«يا لَحزنك أنتِ! ويا لَشماتة الفراغ من حولك الآن! تترملين، تتألمين وتكابرين. أعرف ذلك. وأعرف أنك لن تقومي من محنتك، كما كنت قائمة من قبل. أحس قلبك ينفطر علي كل لحظةٍ أن يأتيك نعيي أنا أيضا. فكيف لك أن تقاومي وحدتك يا جميلة الروح والجسد!».

لم أكتب تلك الكلمات يوما، إنّما أحسستها فحسْب. لعلني بها استشعرت ما كان سيحدث على بعد ثلاثة أشهر من وقف إطلاق النار. فيوم أخذني قائد الفرقة، الضابط زياد، على حدة، كنت حدستُ ماذا وقع.

لذت بصمتي، مرة أخرى. وانتبذت من الفرقة شجرة فَرْنان فجّرت خلفها حزني نحيبا. كانت زليخة لا تزال واقفة تنتظر عودتي لتواسيني – لم أكن نسيت إن لم أذكر أني عقب الاستقلال زرت قبر أمي كلما عدت إلى المزرعة لأن ذلك شأن يخصني في علاقتي بها مثلما أذكر الآن أني بعد أيام من دفنها في مقبرة بطون آل حنيفي وفروعهم الواقعة على ضفة غابة من أراضي العائلة نزلت من الجبل ليلا ضمن فوج من جنود الفرقة يتقدمنا خيط الاتصال وعثمان اللذان أمّنا المسلك فقمت على قبرها وبدمع حزني قرأت آيات على روحها ثم بماء منقوع بمقطّر الزهر قدّمه لي عثمان في دلو رشّشت ترابها وإذ رفعت وجهي إلى السماء تراءى لي في قرص القمر وجهها الندي الجميل.

وها ذاكرة شمّي تستعيد لي رائحة بشرة أمي ممزوجة بطيبها، أنا الذي كانت تقول لي حينما تحدثني عن طفولتي إني ظللت لحولين كاملين عالقا صدرها مثل قرادة أطلب ثديها. كيف لا أتذكر هدهدتَها إياي بمفصل ركبتها على طقطقات حطب الفرْنان في الكانون. ركوبي

بجانبها على عربة الكليش ذات الحصان الواحد يقود بنا عثمان عبر أراضي المزرعة في أيام الربيع المشمسة. قُبلتَها الأخيرة يوم خاتلتها قبل مغادرتي البيت، آخر مرة، قائلا إني راجع إلى سعيدة لأسافر إلى مدينة سيدي بلعباس، موهما إياها بأني سأشتغل أستاذا في مدرستها الثانوية. فأرعشت جسدَها زفرة، لا أزال أحسها ساكنة بين جلدي وعظمي. وقالت إنها ستحرص على جعل كذبتي تنطلي على والدي. فخرجت حاملا طيف صورتها، كما لم أحمل شيئا آخر مثلها، بشامة سوداء تطبع خدها الأغر. فاتنةً كانت! وكانت معصّبة شعرها الأسود بمَحرُمة زهرية يتدلى من أذنيها قرطاها الذهبيان الكبيران من نوع الونيسة لابسة عباءة بيضاء من جوخ الفِينة مشدودة الخصر بحزام من قطع لويسْ الثالث عشر الذهبية وفي جيدها من المعدن النفيس ذاته سلسلة مضفورة بقطعة الخامسة.

ثم، يا لَحزني!

إذ توليْت عن قبرها، اقترب مني خيط الاتصال وأبلغني أن المنظمة المسلحة السرية* أحرقت صيدلية حاييم.

* المعروفة برمزها الثلاثيOAS .

«لدي حدس بأنك ستقرأ هذا يوما».

ولكن لماذا أعيد كتابة تلك الجملة في أول سطر أخطه في هذه الليلة إن لم يكن السبب، من غير صدى وقْعها الذي لا يزال يتموج في ذهني، هو هذا الأثر الموجع الذي خلفته في نفسي قراءتي مذكرة حاييم، حتّى أحسست دمعي يصّاعد إلى عيني.

كان، كما كتب، قد غادر سريره، في قلب ليلة مضطربة، مقهورا مُثقَل الرأس والركبتين، مستسلما لأرقه، مُمنيا نفسه بالعودة إلى النوم إن استطاع أن يجد ما يُبعد به عن ذهنه مشهد حريق أمس؛ وقد أولج في منخريه، على التوالي، أنبوب دواء ڤيكس واستنشق مرة أخرى وأخرى لإذهاب رائحة الاحتراق عن مشمه وألم الصداع من صدغيه ورأسه.

وكان إذ دخل المكتبة، وجلس إلى الطاولة، نظر إلى مذكرته ذات التجليد البني، الساكنة بين قلم من نوع پارْكر وقارورة حبر أسود من ماركة وترْمان، مترددا في فتحها خشيةَ أن يلْفح ذاكرتَه، بعصفةِ حزنٍ إضافيةٍ، ما كان سجله قبل الحرب بقليل وخلالها! وفكّر؛ إنّها حربٌ لو قُيض لأبويه أن يعيشا مثله ظروفها، أكان سيكون لهما هذا الشعور الذي يملؤه، هو، بأنه لم يخطئ خياره فيها.

فها قلبه حدثه بأنه إن كانت والدته زَهيرة ستميل بمشاعرها إلى من عاشت تعتبرهم أهلها فإن ربما داخَله بشأن والده. من يدري؟ غير

أن حرب تحرير لا تمنح أيا كان خيار الوسط. ولكنْ، فأمه أو أبوه كلاهما سيظل فقيدَه وذكراه.

وفي نهاية الأمر، قرّب المذكرة وأمسك برأس الخيط المؤشر على ما كان قد توقّف عنده خلال قراءة سابقة.

ثُم، فتح.

والدي العزيز. تذكرتك اليوم، لمرور عام على التحاق والدتي بك. وكان يمكن أن أسجل هذا بعد خروجي من أيام الحزن عليك. لكن ذلك لم يحدث؛ مع أنك كنت لا تفتأ توصيني بألاّ ننسى أننا أصحاب كتاب مقدس منه نستلهم سر كل كتابة، وبأنه لا يجدر بمن له كتابه ألاّ يترك أثرا مخطوطا، وبأنه عليّ، من موقع المتعلّم، أن أعوّض عنك ما فاتك أنت لانصرافك كليّا إلى تأمين خبزنا وبقائنا.

فأنت، من جهتك، قضيت حياتك كلها، إلى يوم مماتك، في الكد والتعب وفي الكسب لتراني يوما أفضل حالا من حالك. ولتزهو بي.

فاعذرني، إذًا، إن كنت قصّرت. فقد انشغلت، من جانبي، بما كان سيريك مني بعض حلمك يتحقق. واليوم أجد أنه يحزنني أكثر كلما تذكرت أننا لم نتقاسم، إلا لماما، وفي المناسبات النادرة، ما كان لأب وابنه أن يتقاسماه في مسار حياتهما قبل أن يفرّق بينهما الدهر والموت؛ وقد تدخّل العاملان معا، وتباعا، فحالا دون ذلك. فلم ننسج، حينئذ، علاقة فوق الأبوة والبنوة. ولم نتحدث عن شؤون الرجال كرجال؛ وكان ذلك انتظاري وأملي لو لم يكن سبق في لوح القدر أن شيئا من ذلك لن يقع.

أخيرا. يجب أن تعلم، حتى لو لم تكن أوصيتَ بهذا، أن والدتي، شريكة حياتك، دُفنت بجانبك. فقد أحببت أن يكون لك ذلك لأني

كنت أشعر أنكما في حاجة إلى التلاقي من جديد لتستريحا وإلى الأبد من أعباء حياة كانت قاسية عليكما كليكما.

وشبك أصابع يديه إلى قفاه، ملقيا برأسه إلى الخلف، مغمضا عينيه فأشرق له من ظلمتهما وجه والدته. ثم فكهما ورجع إلى المذكرة.

والدتي الغالية، عدتُ من عِلْمِين بإحساس أن السماء قد تحطّمت من فوق رأسي فلم يعد هناك ما يسترني.

مشيت وسط المشيعين. كانوا قلة. ولم يكن هناك في السير بنعشك ولا في مراسم الدفن ما يظهر أي تكلف؛ ليس لأنك فقيرة، وكلنا إلى الإله فقراء، ولكن لأن حياتك كانت بسيطة. وتلك نعمة إلهية، كما كنت تحدثينني، تصْرف عنا الغواية والطّغيان.

أتصورك، حين طهّرتك مُغسلتُك ولفّتك في كفنك بسبع طبقات، كيف ابتسمتِ لها كما فعلت أول مرة لأمك في قماطك. لا أشك في ذلك. فقد عبرتِ من طهر الرحم إلى طهر القبر؛ أعرف هذا الآن. من التراب جئت وإلى التراب عدت. كنت أسمع مثل هذا بين ما كنت ترتلينه.

أخبرك أني تلوت عليك القاديش. ووضعت على صدرك الحجرات السبع، وأني خلعت نعلي ومررت بين الصفين ثم وضعت فيه ذرات من التراب ولبسته، وأني غسلت يدي ووجهي. وعند الخروج تباطأت قدر ما وسعني أن أكون وحدي. فوحدي غادرت المقبرة، ووحدي مشيت في طريق غير تلك التي مشيت فيها أحمل مع الحاملين نعشك على الأكتاف من دار دنيانا هذه إلى الدار الأزلية هناك، وأني ببيعة لارودوتْ صلّيت. وهناك رأيت وجهك، على نحوٍ لم أره به من قبل أبدا، وضّاحا كريما زاخرا حبّا.

اعلمي أني دخلت في حدادي عليك؛ لا التزاما بما تفرضه الشريعة فحسب، وأنا أعرف أنك تريدين لي ألاّ أقصّر في أي جانب من جوانبها، ولكن لأفرغ ذهني من هموم هذه الدنيا كلها ومشاغلها ومكارهها حتى يصفو لي وجهك، أنت أمي، فأحدثك بكل ما كنت أكنّه لك من حب كانت كلماتي تعجز عن التعبير لك عنه؛ وكنت في الحقيقة أخجل، إن لم تكن الشجاعة هي التي تخونني؛ وها أنا الآن، فجأة، أشعر أني أستطيع أن أرصف لك كلمات الدنيا كلها لأقول لك إنك كنت ستْري ولباسي وزينتي وأمني وأماني ومودع أسراري.

ولكن كم يؤلمني أن أقول لك أيضا إني اليوم، فقط، أدرك أنك إنما كنت تخفين عني ما كان ينتابك من قلق علي بما كنت تبدينه لي من سرور، كلما غادرت هذا البيت راجعا إلى ثانوية معسكر وبعدها إلى جامعة الجزائر. وكان يفوتني أن أقدّر درجة خوفك ولحظات أرقك وكوابيسك وصلاتك ودعاءك.

بعد أيام سأعود إلى الجامعة. أعدك أني إن تزوجت يوما ووُلدت لي طفلة اشتريت لها المجوهرات نفسها التي رهنتِها من أجل دراستي. أعدك أن أطلب منها، حين تبلغ، أن تتزين بها لأرى من خلالها أنك لا تزالين تلك المرأة التي أعطتني الحياة وفتحت لي بسخائها طريقا إلى الكرامة.

برعشة في سبابته وإبهامه، ورّق أكثر من صفحة. ثم توقف. تذكّر. تخضخض. أمعن في الكلمات حتى غدت في ناظريه مجرّد سواد على بياض.

الحب! أي حب في هذه الدنيا غير الذي تمنحك إياه أمك؟ كنت أتصور، وأنا لم أعرف من النساء غير أمي، أن تكون گولدا تعويضا لي في الفقد والحب.

گولدا. ألذلك لم أطمئن يوما إلى أن أناديك حبيبتي؟

تذكرين! كنا أطفالا لِستّ سنين في مدرسة جول فيرّي. وكنا لا نشعر أننا نكبر. ولم يكن يراودنا، في أي لحظة من تلك السنين الست، أن نصير بالِغَين، مثلما نحن الآن، وأن نمتلئ بمثل هذه المشاعر المضطربة المرعبة والمضنية التي أجد قلوبنا عاجزة عن استيعابها، بسبب هذه الحرب.

لطالما تساءلت، منذ التقينا، بعد خروجنا من صلاة المساء في بيعة لارودوتْ، إن كانت الديانات صارت عاجزة تماما عن التقريب بين أبناء آدم، إذ يبدو أن الصلوات كلها في كنيسة هذه المدينة ومسجدها وبيعتها لم تزد هذه الحرب إلا أوارا.

كنتُ عبّرت لك عن ذلك بصدق فسخرت من رومانسيتي؛ بل، كما قلتِ، من صوفيتي التي لا تعني لك سوى العجز الذي ينخر روحي ويمنعني من النهوض من سباتي وتبديد أوهامي لأرى الواقع، كما تفرضه هذه الحرب التي لن يكون لنا، أنا وأنت، بعدها، موضع قدم على أرضها حين يستعيدها الأنديجان.

آه! ليتك تدرين كم كان يوجعني أن تنطقي كلمة أنديجان باستعلاء واحتقار؛ بل بعنصرية! إني لا أخجل من أن أصارحك بهذا.

على طول الطريق التي قطعناها من لاورودتْ إلى حي المحطة، عبر شارعي إيزلي وگمْبيطة، كنا نرى حالة الحرب التي حولت هذه المدينة

إلى معتقل مفتوح على السماء؛ لا حركة فيه للأهالي إلا تحت حراسة مشددة، بالأصابع على الزنادات ونظرات العيون الْمُدينة، من عساكر المظليين واللفيف الأجنبي، كما من هؤلاء الذين يَكرههم الأهالي، كرههم للخنازير، لأنهم من جلدتهم ودينهم وهم مع ذلك يرفعون السلاح في وجوههم ويهينونهم ويعذبونهم ويقتلونهم أيضا!

كنت قلت لك أنِ انظري! هل هناك فرق بينهم وبين ميليشيات حكومة فيشي والمتعاونين مع النازيين؟ وكنت لا أنتظر منك أن تردي بأنّ الأمر مختلف. فأي اختلاف كنت ترينه في الخيانة! وكنتُ أدركت لماذا صمتِّ.

كم وددت أن أقبّلك عند باب بيتكم لولا أنك أسدلت على وجهك، دون قلبي، قناع گولدا المهمومة بما كنت ترينه لي واجبا وخلاصا يكتمل به حبنا الذي يظل هنا ناقصا ما لم نغادر إلى أرض الميعاد فيكتمل!

بعد ساعة من منتصف نهار هذا الأحد، كنت غادرتني على توتر. ولا بد أنك قدّرت أني، حين دعوتك إلى الغداء هنا في البيت، كنت أنوي أن أخرجك قليلا من أجواء الحزن التي لا تزال تخيم على بيتكم. فأنت تعلمين أني ما كنتُ لأتلكأ لحظة لو امتلكت ما كنت سأصرف به عن والدك السيد سيباستيان رفاييل أن يُدعى ضمن صفوف الاحتياطيين، لضرورات هذه الحرب الفظيعة، وأن يقتَل في اشتباك مسلح مع فرقة ج.ت.و. التي ينتمي إليها أرسلان، بحسب اعترافات أحد المقبوض عليهم جريحا، كما أخبرتِني.

يجب علي أن أقول لك إني، مراعاةً لحزنك، تجنبت مواجهة غضبك بغضب. لقد آسفني جدا أنك كنت، خلال تناول الطعام،

لا تكملين مضغة من غير أن تلفظي عبارة جديدة بحنق أكبر على من قتلوا والدك. وكنت حاولت أن أنبّهك وأسلّيك بأنها الحرب. فرددت أنها ليست حربا بل هو تمرد تخوضه عصابات الأنديجان من القتلة والمجرمين.

كنتِ، وأنت تلفظين تلك الأوصاف، لا تسيطرين على ما ينفلت من فمك من رذاذ. ثم لا تلبثين أن تمسحي شفتيك بالمنديل وتنظري إليّ مشتعلة العينين إن كنت سأرد بما كنت تتوقعينه مني. ولم يكن وجهك الذي يثلمه قلق دائم، أنت تعرفين هذا، يزداد إلا احمرارا من فرط ما كنتِ أرجأته في داخلك. كنت أحس ذلك. إني أعلمه.

غير أنك كنتِ، إذ التزمتُ أنا الصمت والسكون أمام تلك الأوصاف، لا تدرين أنه كان يمر في ذهني وجه أرسلان وزليخة ووالدها سي النضْري؛ هؤلاء فحسْب، لأننا نتقاسم معرفتهم. وكنت لا أنتظر أن يبلغ بك الغضب والحنق حد أن ترمي بعصبية الشوكة والسكين في الصحن أمامك وتواجهيني بقولك إنه لا يرضيكِ أن ترتبطي بشخص مثلي بدأت تدور حوله شبهات ستورطه. أجل. قلتِها حرفيا: تورطك!

كان علي أن أجيبك، لا لأطمْئنك، فقد كنت أشعر أنك تبتعدين عني كل يوم مسافة، ولكن لأؤكد لك أني لم أكن أنتظر لجنة تفتيش تنزل علي في الصيدلية عشية ليلة عيد الميلاد. وأخبرتُك أن العسكري الذي كان يقود اللجنة توعدني بأنه سيعثر على ما يدينني به. وفي حال التعذر فإنه يعرف كيف يؤدب شخصا مثلي تفوح من صيدليته رائحة الخيانة.

وكنت توقعت منك رد فعل آخر غير أن تنهضي فجأة وتعلني بغضب أشد، اشتعل له وجهك كله، أنه لم يكن لك أن تلبي دعوتي

إلى بيت دنّسه أنديجان مثل أرسلان. وجلس حيث كنت جلست. وربما أكل الأكل نفسه في الصحن نفسه وبالسكين والشوكة. وشرب من الكأس نفسها.

وكم شعرتُ بألم الذبحة إذ سألتني إن كان بقي في نفسي شيء من كرامة اليهودي وحبه لأرض الميعاد يساعدني على لملمة شملي الممزق استعدادا للرحيل عن هذهِ الأرض اللعينة! وانتظرتِ مرتجفة الفك. فكان جوابي، مرة أخرى، صمتي وسكوني. لم أكن أستطيع أن أقاوم بغيرهما تيار غضبك الجارف الذي يجب ألاّ أخفي عنك أني أحسسته يتدفق حقدا أيضا.

گولدا. ليتك تعلمين كم تسيئين إلى روحي!

ثم نهض في پيجامته المختلة التزرير عند الصدر فلم يسوّها. وتقدم حافيا إلى الرف الأوسط من المكتبة فوقف أمام صورة گولدا النصفية، المكبرة في برواز متوسط الحجم. حدّق فيها، متأملا جبهتَها البارزة لِمسكة شعرها المذهب إلى الخلف تكاد لا تطلقه، وعينيها المدورتين يشع منهما بريق حاد، وأنفَها الكبير قليلا ووجنتيها غير العامرتين، عكس شفتيها الممتلئتين، وجيدَها الخالي من الحلي مثل أذنيها.

قلَب الصورة قرب مذياع فيليپس من نوع فيليتا. وعاد فجلس فطوى من المذكرة صفحة، صفحتين أو أكثر. ومن التي ثبتها بأصابع يديه اليسرى.

أرسلان صديقي.

ينبغي أن أعترف لك، وكان يجب أن أفعل هذا قبل افتراقنا في تلك الليلة عند دارة الساعة، أني أرجأت أمرا كان يجب أن أصارحك به قبل اليوم لأني لم أكن أجد المسوّغ.

حفل تسليم الإجازات كان، بالنسبة إلي، الشَّفرة التي حزت الشعرة. فقد تم التنويه بي نموذجًا حيا على نجاح الاندماج في مجتمع الجزائر الفرنسية الجديد. وذلك يعني في المسكوت عنه تدجين الأنديجان. لحظتَها، ازددت شعورا بالوزر، لتجنُّس والدي، واعتباري، تبعا لذلك، فرنسيا.

هل تذكر كيف صمتُّ للحظات، وأنا أنظر إليك شارد الذهن عنك، أتساءل أكانت بشريةً وجوهُ واضعي قانون الأهالي قبل حوالي قرن من الآن؛ ذلك القانون الذي كنتَ قرأت علي منه هذه الفقرة: «إن الأهالي، مسلمين أو يهودا، هم فرنسيون ولكنهم لا يحوزون حقوقا مدنية ولا حقوقا سياسية: إنهم يحوزون جنسية الرعية، بصفة افتراضية» - كان ذلك في الأستوديو خلال مناقشة بيننا يوما عن الميز العنصري الذي يكرّسه ذلك القانون تحت الاحتلال.

كنت مثْلك، لم يتكرموا علي بشيء مما حققته. إنه جهدي. لذلك اعتقدت، كما تعلم، أني لم أكن يوما فرنسيا، لا في السلوك ولا في الروح.

تعرف؟ جادلت والدي يوما في أمر تجنُّسه فكان رده أنه فعل ذلك لأن العثمانيين، هنا، كانوا يهينون أجدادنا باعتبارهم ذمّيين لهم عليهم حق الحياة نفسه. وكانوا يفرضون عليهم الجزية. ويلزمونهم بلبس أثواب ذات ألوان صفراء. ثم خلص إلى أنه يكفينا مع النصارى أن نحافظ على ديننا ولغتنا، كما ينادي بذلك رجال الدين المسلمين في البلد أيضا.

أرسلان صديقي.

أفتقدك في خضم ظروف هذه الحرب. أتذكر أفضالك علي. إنها كثيرة، كبيرة وسخية جدا؛ ليس لكونك ذا سَعة ومن عائلة ميسورة فحسْب، بل أيضا لنفسك النبيلة وسماحة خلقك وهذا الوفاء الوطيد المستمر والخالص.

إني لا أنسى أعوام جامعة الجزائر معك. كنتَ، خلال أربع سنين، لا تكتفي بأن تدفع إيجار الأستوديو، وتوفير مصروف الطعام والسينما والمسرح في الغالب؛ كنت أيضا تشتري، لا كتبك أنت فحسْب، بل بعض قواميس الصيدلة الغالية الثمن لي أنا أيضا. وكنت كثيرا ما تلزمني بمرافقتك في مساءات أيّام السّبت، من سداسي إلى آخر، وعند اقتراب رأس السنة الميلادية الجديدة، لنقتني لباسين فصليين أو حذاءين. وعند الدفع عني تلاطفني بأنك ستسترد ذلك مني يوم أفتح صيدليتي الخاصة.

إني أبتسم لك، برغم هذه الحرب ومآسيها. إني أحييك بقلبي ووجداني.

وراح فطوى أكثر من صفحة.

قُتل اليوم، 19. 05. 1959، في حي لامارينْ، رميا بالرصاص، في حدود الساعة الخامسة والنصف مساء، المساعد حَمّة زْگا الحارس الشخصي للعقيد بيجار وأحد أشهر الحرْكى المعروف بغطرسته وفظاظته وقسوته تجاه الأهالي. يبدو أن من نفذ العملية فدائي من الحي نفسه يدعى فارس زگاي ينتمي إلى خلية سي فراجي. حتى هذه الساعة، لا حديث بين الأهالي إلا عن الجرأة التي قادت الفدائي إلى أن يقترب من شخص قوي مثل عملاق وخطير كالسم لما نزل من سيارة الجيب التي كانت كالعادة تنقله إلى بيته، وأن يطلق عليه طلقتين مصوبتين إلى قلبه كانتا كافيتين لأن تسقطاه أرضا مثل صخرة. بعض الزبائن تحدثوا في الصيدلية عن

الهلع الذي أعقب ذلك، وعن نوبة الانفعال التي أصابت العقيد بيجار نفسه لما بلغه الخبر. حي لامارينْ كله لا يزال مطوقا حتى هذه اللحظة.

رجعت قبل حين من ساحة ريموند پْوانْكاري، مقابل البلدية، وقد غصبت بالأقدام السوداء والأوروبيين ومن يسمون كبار الجماعة والقِياد ومن الفضوليين ومن عيون ج.ت.و. وآذانها، بلا شك، ومن أهالي المناطق الريفية، نساء ورجالا وأطفالا حفاة غالبا وفي ألبسة تقليدية بائسة، ومن نُقلوا غصبا في مقطورات الجرارات؛ لاستقبال الجنرال دوگول الذي ما إن ظهر من شرفة دار البلدية، في هذا اليوم، 27. 08. 1959، حتى ارتفعت أصوات مرددة شعار «ألجيري فرانساز»* الذي كانت اللافتات تكاد لا ترفع غيره. ولم يكن الجنرال يبدو مقتنعا كثيرا وهو يتحدث في خطابه عن المشروع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لاندماج الجزائر نهائيا في فرنسا، في ذروة هذه الحرب.

إثر انفضاض التجمع، عبّرت لگولدا، في حانة گوميز الواقعة بزاوية نهاية شارع إيزْلي مقابل فندق الشرق - وكانت لا تكف عن التندر على الجنرال خلال وقوفنا للاستماع إليه - عن كون الزيارة مجرد حملة لتحويل اهتمام الأهالي عن مطلبهم الأساسي وتخلّيهم عن مساندة المنظمة التي تخوض الحرب باسمهم منذ خمسة أعوام. فردّت علي بأني تأخرت كثيرا في الالتحاق بصفوف مجرميها. وحذرتني، لأول مرة، من أن أنسى أني فرنسي. وذكرتني بمصير فاردنون إيڤتون**.

* Algérie française حرفيا: الجزائر فرنسية.

** مناضل شيوعي من أصل يهودي مناهض للاستعمار. أعدم بالمقصلة في 11 فيفري 1957، بتهمة محاولة تخريب منشأة بواسطة متفجرات، لانتمائه إلى إحدى خلايا ج.ت.و.

أخذ القلم ففكك قطعته الأولى والثانية. وراقب خزان الحبر، وهو يشمّ رائحته. ثم أعاد تركيب القطعة الثانية وأدخل طرفها الأخير في القطعة الأولى. وبشِماله فتح على صفحة جديدة.

عدت إلى البيت أمس السبت، 13. 01. 1962؛ أي قبل حوالي خمس عشرة ساعة من الآن. وكان الوقت منتصف النهار. كنت فاقدا الشهية والرغبة في تحضير شيء للغداء. يجب أن أقول إني شعرت ببعض الراحة من دفقة قيئي في الحوش حيث بدّدت غثياني. لكن رائحة الحريق كانت لا تزال تزكم أنفي. وأحسست أنّ مسالكي الهوائية لا يزال يسدها هباب الدخان. إني لا أستطيع أن أزيح عن ذهني صورة الخراب. كل شيء؛ الرفوف بما فيها والمخبر وبقية الأثاث؛ كل شيء وقفت عليه كان متفحما. كان يوما أسود في حياتي، أغبر كالحا.

لقد أحرقوا صيدليتي!

أرسلان صديقي. لدي حدس بأنك ستقرأ هذا يوما. وآمل ألاّ تكون مزعجةً تلك الهوامشُ التي أضفتُها لاحقا مسندةً إلى ضمير الغائب! إني لا أدري لِم فعلتُ ذلك. ولكن انتظرْ! ألم تكن تقرّظني زاعما لي أني أحْسن منك إنشاء؟

تبسمتُ لروح حاييم. تذكرت رسالته الوصفية عن جِيريڤِلْ. وكنتُ واصلت من المذكرة.

ليلتها، أقفلت القلم وأغلقت هذه المذكرة. ثم قمت، راجعا إلى غرفة نومي لعلّي أغفو. فغدا سيكون يوما آخَر.

منذ أن أكدت الإذاعات العالمية وصحافة المتروبول الأنباء عن بدء المحادثات بين طرفي النزاع في الثامن عشر من فبراير الماضي،

ونحن اليوم في 18. 03. 1962، تلك المحادثات التي تلتها في الثامن مارس الجاري مفاوضات إيڤيان للإعلان عن وقف إطلاق النار وإعداد المرحلة الانتقالية ونقل السيادة، تزايدت شراسة غلاة دعاة الجزائر فرنسية.

قبل أيام فجرت المنظمة المسلحة السرية بناية مسرح المدينة. ومن سيارة بلا ترقيم أطلقوا النار بدم بارد على عابرين من الأهالي في بعض شوارع المدينة. ومروا على سي فراجي في دكان الخياطة فألقوا عليه قنبلة مزقته.

گولدا أوفت بوعيدها وغادرت، مع أمها، إلى المتروپول. لست حزينا جدا. فغدا، الاثنين التاسع عشر من مارس، سيعلن رسميا، كما تبثه الإذاعات، عن وقف إطلاق النار. إني أشعر أن هذه الأرض ستتنفس أخيرا هواء السلام.

«وأنت أرسلان، أين تكون الآن؟».

«أنا، يا حاييم، مثل زليخة وبقية جنود الفرقة، كنا يوم ذاك الاثنين قد شرعنا في التأهب للنزول من الجبل نحو مراكز للتجمع فيها بعد أن أبلغَنا القائد بأن قرار وقف إطلاق النار دخل حيز التنفيذ، بدءا من منتصف النهار في كل مناطق البلد!».

كذلك كنت أجبت إذ أغلقت المذكرة وأرجعتها، كما وضعها حاييم بين القلم والمحبرة آخر مرة. وخرجت فأقفلت باب الدار التي أمست خالية.

5

1962. نعم! لا!

ظل حاييم خلال الأعوام التي استمرّ فيها القتال ينتظر بثقة أن تقع الواقعة الفاصلة بين مرحلتين وتاريخين؛ لكن ليس بالمد البشري الطوفاني من الأهالي الذي اجتاح مكاتب التصويت منذ الصباح لإطفاء نار الحرب نهائيا.

كذلك أخبرني في بيته عن يوم الأحد، الأول من جويلية سنة ألف وتسعمائة واثنتين وستين.

وقال:

«كان المشهد عظيما، استثنائيا وسرياليا!».

مدٌّ بشري كان كاسحا؛ للإجابة عن سؤال واحد بإحدى الكلمتين المدموغتين على ورقتين صغيرتين مربعتين، بثقل تاريخ وزنُه قرن واثنان وثلاثون عاما من المجابهة؛ كلمتان تقْطعان أو تمددان العلاقة القهرية بين مُهين ومُهان: نعم أو لا تريد أن تصبح الجزائر مستقلة!

أمّا حاييم، وقد انتخب ورقة نعم في مكتب مدرسة جول فيرّي نفسها، فكان طاف في سيارته ببقية مكاتب التصويت فشاهد، لأول مرة، انغمار الأقدام السوداء والأوروبيين في بحر الأهالي الذين أذهله منهم أنهم كانوا يخزنون كل ذاك التوثب الذي أظهروه.

وبعد يومين، أصبح حاييم على الإذاعات -ما أمكنه التقاطه منها- وهي تقطع برامجها بين حين وآخر لتعلن النتيجة الساحقة لكلمة نعم!

وكان قد خرج من بيته، في الدرب، فمر من الجهة الشرقية للبلدية التي كانت ساعتُها تشير إلى السابعة صباحا، ودخل ساحة ريموند پْوانْكاري فخالَها، للسكون الموارب الذي بدا يخيم عليها، ميدانَ معركة انسحب منه المتنازعان فجأة تاركين للرصاص صمته.

وعند دارة الساعة، شاهد شاحنات نقل الجند الفرنسية تغادر المدينة في اتجاه الشمال، نحو ميناء وهران ومطارها، وبين واحدة وأخرى أكثر من سيارة مدنية تُقل عائلات بأكملها من الأقدام السوداء والأوروپيين، وفوق حواملِ أمتعتها حقائبُ وحِزم.

وعلى غير دأب بدايات الصيف، في المدينة ذات المناخ السهبي، وجد أن الجو أكثر حرارة وجفافا وثقلا. حتى إنّه لا تكاد تظهر للعين، من أشجار التوت والدلب على أرصفة شوارع إيزْلي وشارْييه وگمْبيطة، ورقةٌ تهتز. وكان ممّا وجده استثنائيا أيضا أن المخابز ودكاكين المواد الغذائية التي تفتح في العادة قبل هذه الساعة كانت مغلقة كلها.

فشارعا گمْبيطة وإيزلي ظهرا له خاليين، ونوافذ البيوت المطلة عليهما موصدة، ظُلاتها مطوية وشرفاتها فارغة صامتة، مثلها مثل فندقي الشرق وإيزْلي المغلقين ككشك ساحة ريموند پْوانْكاري ومحطة الوقود پايا والسوق المغطاة خلفها، وكذا بقية الحانات والمقاهي التي يقدم بعضها في مثل هذه الساعة فطور الصباح.

وكان حايم قد رجع إلى بيته، لما تناهت إليه في التاسعة، وهو في المطبخ يشرب قهوة، أصواتٌ متموجة مثل هدير. فلبس على عجل ما خف وخرج. وبعد خطوات من محطة نقل المسافرين من جهتها

الغريبة، توقف لدهشته من جموع الأهالي المتدفقين على ساحة البلدية وعلى دارة الساعة. ثم تقدم، كما لو أنّ الأمر حدث بجاذبية، منصهرا فيهم؛ كانوا يتظاهرون ردا على ما حدث مساء الثالث من جويلية من اشتباكات دامية عرفتها مداخل المدينة بين شبان من الأهالي جاؤوا من الأحياء المحيطة يحملون أسلحة بيضاء ومقاليع وعصيا وسلاسل، وبين غيرهم من الأقدام السوداء الذين كان بعضهم يحمل أيضا مسدسات وبنادق صيد، في معركة متأخرة وأخيرة.

وفيما كانت ترتفع نداءات بالثأر للقتلى في صفوف شبان الأهالي، ولعلّها هي التي جعلت من بقي من الأقدام السوداء والأوروبيين لا يغامرون بالخروج، ظهرت سَرية من سرايا ج.ت.و. قادمة من شارع إيزْلي. فأخذ الهياج يتنازل درجة أخرى كلما توغلتْ وسط المتجمهرين الذين راحوا يتدافعون إلى الخلف، مثل سكارى، منزاحين عن الطريق إلى الرصيفين.

«كنت أتابع حلما يتجسد أعظم من الحقيقة! منجذبا بإعجاب إليكما أنت وزليخة إذ كنتما تمران في الصف الأول بزيكما العسكريين وبسلاحيكما مثل فاتحين يدخلان المدينة! لحظتها شعرت وكأن ما تراه عيناي يتجاوز الخيال!».

كذلك كان حاييم سيقول لي أيضا. ففي منتصف النهار، كان يحضّر غداءه لما طرقتُ عليه الباب ففتح؛ فإذا هو لا يتمالك ألاّ يشهق؛ وقد توهج وجهه بلون الزهر، لرؤيته إياي واقفا في لباسي العسكري ذي اللون الغابي. نعم! بكينا لأول مرة فرحا إذ تعانقنا. ونظر كلّ منّا إلى وجه الآخر عينا لعين. وهز أحدنا الآخر من كتفيه بما وسعت الغبطة.

قال لي حاييم إنها العناية أني عدتُ سالما. وقلت له إنها السعادة أن أراه بعافية - أيّ عودة وأيّ عافية إن لم يكن من الموت الذي ظل يبسط جناحيه الأسودين لسبعة أعوام ونصف العام على الوليمة التي هيأتها له الحرب!

وعلى قهوة، أعاد علي حاييم أنه كان سيخرج ليسأل عني في الشكنة. فقلت إني سبقتك. فنوّه بأني كنت في خطواتي شامخا. فقلت أحسست أنك كنت في مكان ما على الرصيف لدى مرور السَّرية.

سألني عن زليخة فأخبرته أنها الآن مع أمها.

«يا لسعادة أمٍّ تعود إليها ابنتها من الحرب مجللة بالفخر!»، قال بنبرة حنين خيّلت إليّ أنه كان يرى وجه أمه.

وطفق يتحدث، بابتهاج غامر، عن يوم الاستفتاء وما تلاه، وكأنه يعلق، بلغته الآسرة، على شريط أخذت مشاهده الاستثنائية تتتالى في ذهني، كما على شاشة أمام عينَيّ. ثم، إذ استأذنت، دعاني إلى البقاء من أجل الغداء فاعتذرت، لالتزامي بالعودة حينا إلى الشكنة - تلك التي كنت سأغادرها نهائيا مع زليخة يوم وُلّيت مسؤولية البلدية.

«نلتقي غدا. نحن ثلاثتنا»، قلت وأنا أخرج.

في صباح الخامس من جويلية، تبادل حاييم مع زليخة قبلتين على الخدين إذ دخلنا عليه في زيّنا العسكري. وشد على يدها بحرارة.

«غبطة عظيمة أن أراك في هذا اللباس. أنت به فاتنة!

- كل السعادة لي والفرح بلقائك».

ومن مذياعه* تابعنا نشرات الأخبار المفصلة عن الإعلان الرسمي للاستقلال في أكثر من محطة، كما لو أنّنا أردنا أن نتيقّن أخيرا ونهائيا من أن الأمر بات حقيقة. وكان حاييم، على لهفة مثل لهفتنا، يدير زر البحث عن المحطات الإذاعية ثم يلتفت إلينا، مشرق الوجه، كلما التقط واحدة؛ فقد استمعنا لصوت القاهرة وباريس وتونس والرباط ولندن وواشنطن والجزائر.

لصمتنا الذي تلا، شعرت أن الكلمات التي كنا نعرفها صارت فجأة في تلك اللحظة عاجزة عن حَمل ما في قلوبنا من أحاسيس وما في أذهاننا من صور عما يحدث. وتخيلت، لأن عيوننا نفسها كانت في حال شبيهة بالدهشة، أن صمتنا إنما كان للاستماع إلى أصوات لغة جديدة تأتي من لامكان ومن كل مكان تعلو على لغة الميز والقهر والحرب.

وكنت إذ عرضت برنامجنا للساعات القادمة قال حاييم إنه يضع سيارته تحت تصرفنا. وتهلل وجهه لدعوة زليخة إياه أن يرافقنا.

كانت الساعة التاسعةَ صباحا لما ظهرت للحشود المحتفلة، من بداية شارع إيزْلي، سيارة مدنية من نوع سِتروانْ مكشوفة، مطوية السقف، مزينة الجوانب برايات النجمة والهلال، في خلفها زليخة واقفة بالزي العسكري تكرر نداءها، عبر ميگافون تحمله بيدها، أنْ أفسحوا الطريق. فأخذت تلك الحشود، مثل انفلاق بحر، تنزاح على الرصيفين؛ بينما كان يتناهى إلى سمعي، بين نداء وآخر، صوت من هنا وآخر من هناك.

«هذي زليخة بنت سي النضْري!».

---

* منذ اندلاع حرب التحرير منعت السلطات الاستعمارية على الأهالي شراء أجهزة الراديو واستعمالها، مثلها مثل السلاح.

حاييم هو الذي كان يقود. وكنت أنا على يمينه. خلْفنا سَرية جنود بألبسة الجبل يحملون أسلحتهم المختلفة في صفوف خماسية متراصة، موقعين بجزماتهم مارشة باهرة، منْشِدين بصوت فخم «من جبالنا طلع صوت الأحرار...» رددته الحناجر على الرصيفين في تناغم مثير للدموع «ينادينا للاستقلال» امتد إلى شارع كَمْبيطة الذي تفتّق هو الآخر عن سَرية ثانية تصعده بالنشيد نفسه، وسط الزغاريد والترديد، حتى تَلاقيهما في دارة الساعة حيث اندمجتا ثم خاضتا شارع شارْبيه، نزولا نحو ثكنة محطة القطار.

في ذلك الوقت، كنا نعبر بسيارة السيتروان، وسط الحشد، شارع گالْييني. وقريبا من دار البلدية، أشرت إلى حاييم بالتوقف. ثم التفتُّ إلى زليخة خلفه. وأعلنت أني ملزم بتنفيذ التعليمات التي تلقيتها البارحة من القيادة. لا أنسى أنّ حاييم رد ضاحكا إذ قلت إني سأكون مسؤول البلدية رغم أنفي:

«بزيك العسكري؟».

الليلةَ وأنا أسترجع ذلك ازدادت عندي وضوحا الدلالة التي كانت تحملها عبارة حاييم وكأن حسّه سبق زمانَه إلى ما كان سيحصل بعد ثلاثة أعوام.

«إن هي إلا خطوات. سأنزعه في البيت»، قلت بلا خلفية لأن غمرة الفرح كانت فائقة.

«سنلتقي إذاً يا رئيس!»، رد حاييم.

وقالت زليخة، مبتسمة:

«سألتحق بك بعد أن أغير لباسي أنا أيضا!».

كنت قد خرجت في ثيابي المدنية. وقريبا من مدخل دار البلدية، توقفت أشاهد وأسمع، بتأثر، فرح المتجمهرين في الساحة ودارة الساعة اللتين كان شارعا جيريفيلْ وگالْييني لا يزالان يصبّان فيهما؛ مثلهما مثل شارعي إيزْلي وگمْبيطة من أقصى الأول شرقا، عند نصْب آنومور*، إلى أقصى الثاني غربا، عند سياج معبَر محطة القطار.

كانوا، في ثيابهم التقليدية والأوروبية المختلطة، كبحيرة تطفو فوق سطحها رؤوس حاسرة وعمائم وشيشان وشاشيات وطرابيش بألوان صفراء وخضراء وحمراء، تتخللها، هنا وهناك، مثل بقع بيضاء، هاماتُ النساء في الملحفة أو الحايك، على أكتافهن، إلا قليلا منهن، رايةُ النجمة والهلال بمقاسات لا تحصى.

وهَا هي هتافات «تحيا الجزائر» ترتفع من وسطهم، فتتموج إلى أبعد نقطة في الشوارع الخمسة. ثم تخبو. ثم تتلوها أخرى في إيقاع كوريگرافي مثير وخالب، تتخلله زغاريد قوية وحادة كأنها من حناجر نحاسية. بينما بدا الأطفال، في ألبستهم البائسة الفقيرة وسيقانهم العارية وأقدامهم الحافية، إلا قليلا منهم، مثل عصافير حقول الحصاد، يتصايحون. يرددون تلك الهتافات. يقفزون. يرقصون. يتسللون بين النساء والرجال. يشرئبون بعيدا بعيدا. يتسابقون في كل اتجاه، تملأ قلوبَهم الصغيرة هذه الفرحة العجيبة التي تحرروا لها فجأة. يقفون هنا وهناك عند المحلات والدكاكين والمقشدات؛ وهناك يتذكرون أنهم كانوا يحلمون بأن يشتروا منها يوما الحلوى والمثلجات مثل أطفال الأقدام السوداء والأوروبيين الذين كانوا وحدهم يدخلونها.

* حرفيا: A nos morts تخليدا لجنود الغزو.

لكن ها هم لا يجدون لأولئك الأطفال، أولاد النصارى، أثرا ولا زيّا. ولا يرون لآبائهم وأمهاتهم بين الجموع وجها ولا رأسا. وهم يحسبون أنّهم –وكانوا لا يعلمون بمغادرتهم المدينة على متن تلك السيارات– إنما اختفوا، كعادتهم، كلما حلت العطلة الصيفية.

كنت دخلت دار البلدية، وقد أشارت ساعتها إلى الحادية عشرة، لمّا تفاقم بين الجموع في دارة الساعة تململ ظهر من وسطه رجل ثلاثيني، كما كانت زليخة ستخبرني، وقد حُمل على الأكتاف، وهو يعتمر بيريه من النوع الباسكي ويلبس بدلة بْلُو مازْسيّه، وما لبث أن رفع ذراعيه، مثل خطيب.

ثم صاح:

«أعيروني سمعكم! أنصتوا!».

فاشرأبت الأعناق إليه.

«لا تتركوا من تبقى من أولاد النصارى بلا عقاب! ابحثوا عنهم! انتقموا منهم لقتلانا!».

وأشار شمالا إلى من هم عن يمينه نحو شارع شارْبيه.

«أنتم ستنزلون إلى حي بومارْشيه!».

وجنوبا إلى مَن هم عن يساره نحو شارع جيريڤيلْ.

«وأنتم من هنا إلى الكاستور!».

وغربا، بيديه معا فوق الرؤوس أمامه، نحو شارع گمْبيطة.

«وأنتم إلى حي المحطة!».

وسكت لحظة. بينما كانت الهتافات والزغاريد لا تزال تسمع من هنا وهناك وقد داخلها الآن نقر الطبول ورنّات الزرْنة. ثم ضرب

ضربات حزمٍ بقبضته الشِّمالية على صدره. وأشار شرقا بإبهاميه معاء، فوق كتفيه.

«وأنا سأتكفل بمن تبقى من يهود الدرب!».

فجأة، دوت طلقتان في الهواء فتداخلت صراخات بزغاريد أُنزل الرجل في خضمها من فوق الأكتاف لظهور زليخة في جبيّة سوداء وقميص أبيض وعصابة حمراء على رأسها، متقدمة بخطوات موقَّعة، حاملة محفظة يدٍ بشمالها وبيمناها مسدسا من نوع موزير، لا تزال ماسورته موجهة إلى أعلى. ثم توقفت، وقد ضُربت من حولها دائرة أطبق عليها الصمت. وحركت سلاحها بإيماءة تهديد.

«أنا التي سأضع بهذا حدا لمن يعتدي على غيره!».

ودارت حول نفسها دورة كاملة، مستطلعة.

«أين الزعيم الذي كان يحرضكم على الاعتداء على غيركم؟».

وبينما ازداد نقر الطبول ورنّات الزرْنة تصاعدا واقترابا.

«أنتم الآن أحرار. انتهى زمن القهر! أنتم الآن أسياد. والأسياد لا يعتدون على غيرهم من العزل!».

فارتفعت زغردة أولى وثانية وثالثة ثم أكثر متلاحقة، متناغمة كأنها من حنجرة واحدة عمّت دارة الساعة كلها. خلالها اقترب شاب، يبدو في سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، من زليخة التي كانت تنسحب. وقال لها، على انفعال، إنه سمع مَن سَمّته الزعيم يطلب ممن معه أن يبدؤوا بدار الصيدلي في الدرب!

حدث ذلك بينما كانت بيوت الأقدام السوداء والأوروبيين والكولون الذين غادروا أو تخلفوا تتعرض، في أطراف المدينة كما في القرى،

للمداهمة والنهب والاعتداء. وفي الحين، كانت أولى دوريات ج.ت.و. قد خرجت من بعض مدارس المدينة ومن ثكنة كومندو جورج، سابقا. وانتشرت على الأقدام، بالسلاح في اليد، عند منافذ المدينة الرئيسية من الجهات الأربع وفي الأحياء الكبرى.

ولمّا ظهرتُ من شرفة دار البلدية المقابلة لساحتها، أحمل ميگافون، ولّت الجموع أنظارَها شطري، فسألني أحد الرجلين، وكانا مثلي في قميصين بيضاوين بنصف كُم يقفان على جانبَيّ، إن كنت أريد أن يقدمني. فأجبته بألاّ داعي. وحين قرّبت طرف الميگافون من فمي، لأحيي الجموع وأهنئ وأعلن أن دار البلدية أصبحت من اليوم بناياتها وإدارتها ملكا لهم، نادتني زليخة من وراء ظهري فالتفتُّ فقالت، بتوتّر، وبجانبها ذلك الشاب الذي كان قد اقترب منها في دارة الساعة:

«إنهم يحاصرون دار حاييم!».

سلّمت الميگافون أحدَ ذينك الرجلين من دون أن أهتم لاستغرابه، مشيرا إليه بيديّ معا نحو الجموع، قائلا إنه يجب، كما اتفقنا، أن يسمع من ينظرون إلينا الآن أن البلدية ستكون في خدمتهم. فتململ الرجل. فحثثته على أن يقول ذلك بالطريقة التي يراها مناسبة. وتبادلت مع زليخة سؤالا وجوابا عن الشاب الذي طلبت منه بعد ذلك أن يدخل قاعة الانتظار. ونزلنا سلم الأدراج مسرعيْن. ومن باب البلدية الرئيسي استدرنا شِمالا، مارين بمحطة الحافلات المغلقة، مقابل بناية البريد والتلغراف والهاتف، حيث كان أنفار من الرجال يسارعون نحو الشارع المؤدي إلى الكنيسة، فركضنا خلفهم. ومثلهم انعطفنا شِمالا في التقاطع الأول ثم يمينا في شارع ضيق موازٍ.

كانت زليخة تتأخر عني بضع خطوات. ولمّا تجاوزت دار جدتي عن يميني، قاطعا الطّريق إلى الرصيف الآخر، رأيت سدا من المتجمهرين الهائجين ضُرب حول باب دار حايم. فسحبت من خلف ظهري مسدسا من نوع بيريطا، كان الضابط زياد سلمني إياه في الجبل، وصحت أنْ أفسِحوا! ثم أطلقت عيارا في الهواء. فانشقت لي الطريق. ثمّ أطلقت عيارا ثانيا، فتراجع المتجمهرون من أمام الباب مذعورين، مشكلين نصف دائرة، إلاّ ثلاثة منهم.

ويظهور زليخة، مشهرة مسدسها هي الأخرى، تراجع الهياج حتّى استحال همهمات مذبوحة، فصمتا مطبقا، حين واجهتُ أولئك الثلاثة الذين التفتوا إلي. فنظرت بحدة إلى الزعيم، صاحب البيريه الباسكي والبْلو مازْسيّه، وكان بيده ساطور جِزارة، وهو يقف قريبا من الباب بين الاثنين الآخرين الأصغر منه سنا وهما يحملان قضيبين حديديين أحدهما نزّاع مسامير. وصوّبت نحوه المسدس - كان الباب البني الذي أنوي أن أجدد طلاءه خلال عطلة الصيف القادمة يبدو أخرس مقهورا.

«هاه! رجال آخر زمان»، قلت بازدراء لا يخفى.

فنقل الزعيم، بحركة مرتبكة، الساطور إلى يده اليسرى، وهو يدير عينيه كسارق فوجئ؛ أجده، برغم السنين، لا يزال يحتفظ بخيوط من تقاسيمه القاسية منذ مدرسة جول فيرّي وببرودة نظراته كلما تلقى توبيخا أو عقابا وكما يومَ طُرد نهائيا في السنة الخامسة لسرقته حافظة نقود معلمنا.

مر ذلك كله في لحظة بذهني مثل صور ثابتة؛ وعليه وجهت المسدس إلى صدره، على ارتعاب صاحبيه وذهول المتجمهرين. وصرخت فيه.

«سي المهدي بوشجرة! تذْكرني؟».

فاهتز، متراجعا إلى الخلف، كأن يدا قوية دفعته. لم ينطق. ومثل نقار الخشب حرك رأسه، بحثا عن منفذ، فصوبت زليخة مسدسها نحوه؛ فيما رحت أقول على مسمع المتجمهرين إن من بينكم من يعرف أن هذا الشخص الذي أمامكم مجرد لص. فلم يأت رد إلا همهمات. فحوّلت عينا إلى الاثنين الآخرين، موجها مسدسي إليهما واحدا واحدا، مضيفا أنهما لصان مثل صاحبهما. ثم أمرتهم جميعا بأن يضعوا أرضا ما بأيديهم. فترددوا فصرخت فيهم.

«هيا!».

فامتثلوا فاعلين مطأطئين. وكانوا سيرفعون رؤوسهم لما زجرتهم.

«انبطحوا!».

فترددوا، مرة أخرى. فهددتهم بأني لن أكررها مرة ثانية. وأمرت ثلاثة من المتجمهرين.

«أنت. وأنتما. قيدوا هؤلاء اللصوص!».

حتى إذا طرقت الباب ففُتح أحسست ما كان تكثف من رعب مثل زفة ريح اندفعت من الرواق إلى الخارج أطل علي إثرها حاييم بهيئة المعذَّب المغشي عليه من الموت. فما أفلح في أن ينتزع لي ابتسامة، ولا استطاع أن يسيطر على رعشة يده، لما صافحته ولمّا رد على إيماءة طمْأنة من زليخة نحوه؛ بينما انبعثت من بين المتجمهرين أصوات:

«هذا اليهودي كان مثله مثل الأقدام السوداء يحمل الجنسية الفرنسية».

«لماذا لا يرحل مثلهم!».

«ولكنه لم يؤذ أحدا».

«يقال إنه كان يرسل الدواء للجبل».

«ولذلك أحرقت OAS صيدليته».

ألقيت يدي على كتفه فزفر. ودفعته قليلا إلى الأمام إلى أن صار بيني وبين زليخة التي كانت بسطت مسدسها.

«السيد حاييم بنميمون هذا الذي جاء هؤلاء الأشقياء ليعتدوا عليه ويسطوا على بيته أصبح جزائريا مثلكم، مثلي، مثل هذه المرأة أمامكم»، قلت للمتجمهرين الذين بدوا الآن أكثر انتباها.

وحرّفت طرْفي إلى حاييم الذي خفض نظره.

ثم عدت إليهم:

«هل فيكم واحد مثل السيد حاييم خاطر بحياته ورزقه من أجل أن يصبح الحلم بالحرية حقيقة كما ترونها اليوم؟».

ورفعت يديّ متصالبتين ثم نشرتهما، كما جناحين، منفعلا.

«انتهت الحرب! ومعها يجب أن ينتهي كل تفكير في الثأر».

وسكتُّ لثوانٍ، خلالها خيم الوجوم على الوجوه أمامي - كانت زليخة ستقول لي إذا انفضوا وأخذت هي القضيبين والساطور إنها خالتْهم في تلك اللحظة صاروا مخلوقات تحجرت.

ثم أضفت:

«كنت سأقول هذا أيضا لغيركم وأنا على شرفة البلدية. لا بد أنكم ستعرفون كما ترون لصوصا آخرين من نوع آخر أكبر وأخطر».

والتفت إلى حاييم، على نظرات المتجمهرين المتسائلة وغمغماتهم المهموسة. وطلبت منه إن كان يريد أن يقول شيئا. فحرك رأسه، وآثار رعبه لا تكاد تنجلي عن وجهه.

«لا. لا!».

عدت إلى المتجمهرين.

«أسأل السيد حاييم ماذا يرى أن نفعل بهؤلاء الأشقياء؟».

تأمل حاييم الثلاثة الذين قيّدت أيديهم إلى خلف ظهورهم بأحزمة جلدية. كنت أتابع كيف رفع له الزعيم نظرة استرحام - كان حاييم سيقول لي عنها لاحقا إنها ذكرته بذاك التلميذ المشاغب الشرس والقاسي في مدرسة جول فيرّي.

ثمّ التفت إليّ مبتسما نصف ابتسامة:

«أطلقْ سراحهم!».

فارتفع هتاف «تحيا الحرية» متضخما، متناغما ممتدا عبر شارع الدرب الضيق.

«هل كان لغير السلام أن يتيح لنا هذه الفرصة الاستثنائية لنلتقي!»، رد حاييم علينا أنا وزليخة برقرقة دمع في عينيه إذ اعتذرنا له عن الغداء مكتفيين بتلبية دعوته إلى شرب قهوة بعد أن وضع في الحوش الساطور والقصيبيين وعاد.

ففي غرفة الجلوس، تلك التي تبيت في هذه الليلة، مثلما سبق ومثلما سيلحق، مهجورةً فارغة من حرارة الأنفاس واجمةً، تحدثنا عن المباهج التي تعم المدينة، ناسين ما وقع قبل لحظات. فقد بدت زليخة، وهي بجانبي على الأريكة، أكثر تأثرا، مُعلية إعجابها بالنساء اللائي خرجن، أمهاتٍ وأزواجا وصبايا، لأول مرة في حياتهن إلى الشوارع التي لم يسبق لهن أن مشين فيها أبدا، كما مشين منذ يومين! ونزعن عن وجوههن غمامة القهر. وزغردن انعتاقا وغنين ابتهاجا فضحكت لهنّ السماء.

ونظرتْ بهفوة سرور إلى حاييم الذي كان يقابلني وإياها على كرسي؛ ثم إلي بما حوته عيناها المكحّلتان من نضارة - ما يمنعني أن أقول لها حين ألتحق بها في سريرنا بعد لحظات إنك كنت يومها فاتنة؟

وحدّثتْ بأنّ أمها زغردت لها لما دخلت عليها في زيّها العسكري ثم حضنتها وبكتا فرحا. وقالت لحاييم إن فرحة أمه كانت ستكون عظيمة. فرد بأنه شاهد تلك الفرحة وقد لبست كل امرأة رأتها عينه.

وقالت تخاطبني إنها تمنت أن ترى امرأة مثل والدتي في زينتها في ذلك اليوم.

«المجد للأخريات ممن كانت مقاومتهن بيولوجية لتستمر السلالة في خضم الحرب»، قلت - كنت سأدهش لعدد الأطفال الذين تم تسجيلهم في الحالة المدنية تحضيرا لدخول المدرسة من المولودين خلال أعوام الحرب السبعة والسنة التي تلت الاستقلال!

قبل أن أستأذن من حاييم سألته عن سيارته، لأني لم أكن شاهدتها مركونة، مضيفا أني أتمنى ألاّ يكونوا استولوا عليها. فأخبرني بأنه تركها بين بنايتَي البلدية والمحكمة، بعد أن عاد بزليخة من حي لامارينْ، وترجل إلى بيته لحاجته؛ على نية أن يعود في الحين ليلتحق بنا، أنا وزليخة، فوقع ما وقع. فاستثرتُه:

«ألم أكن أقول لك إن كل شيء في هذا الوجود محكوم بالصدفة؟

- بل بيد القدر!».

فأبدت لنا زليخة استغرابها بعلامة من وجهها ويديها، قائلة:

«فُكا لي ألغازكما!».

فانحنينا لها، بتواطؤ، مثل ناسكين بوذيين. فضحكت ضحكة رائقة جاريناها فيها. ثم طلبتُ إلى حاييم مفتاح السيارة، لأن عثمان لم يكن بعدُ قد أوصل إلي سيارة والدي التي صارت سيارتي. فقد كانت لهفتي على استعادة صلتي الحميمة بالمدينة، وقد مر على غيابي عنها حوالي ستة أعوام، لا تعدلها سوى عودتي إلى بيت جدتي.

ولكن هل كان لي، لو قمت لوحدي بتلك الجولة عبر أشهَر أحياء المدينة وأكبرها، أن أشعر كما شعرت بقلبي يعمره فرح مضاعف؟

ثم هل كنا، أنا وزليخة، سنرتبط لو لم يقترب أحدنا من الآخر في ذلك اليوم أكثر مما كُنّا عليه في الجبل، وقد تحررنا من قيود الحرب؟

لعلها الصدف!

كانت ساعة دار البلدية قد تجاوزت نصف الثانية عشرة لما أقلعنا عبْر شارع گالْييني نحو ڤيلاج بودية فشدّتنا فيه أبوابُ أزقته ونوافذ بيوته وسطوح أحواشه المزينة بالأعلام، وتلك الحلقاتُ من الشيوخ والفتيان يتناولون الكسكس، وصراخُ الأطفال الراكضين في كل اتجاه، والنقر على الطبول، وأنغام الزرنة، والناي أحيانا، وزغاريد النساء. حدث ذلك، بينما كان يدعونا، بين حين وآخر، صوت من هنا أو إشارة من هناك فيرد أحدنا أو كلانا في كل مرة «شكرا! شكرا!».

ولمّا غادرنا الحي، لزم أن نمر بطريق المسبح البلدي الذي كانت ترابط قريبا منه دورية مسلحة. فدخلنا من باب معسكر المدينة القديمة التي بدا كل شيء فيها يؤول إلى ذكرى، كما قلت لزليخة: تاريخها وسورها - أبتسم لوجه حاييم يمر بذهني وهو يؤدي لي حركة استعداد حارس ذلك الباب.

عن يميننا ظهرت البِيْعة ساكنة، منسحبة إلى الخلف قليلا، بجانب أقواس الشارع القصير الذي كانت محلاته التجارية مغلقة ورصيفه خاليا من الحركة. وعن شِمالنا الكنيسة الصغيرة المهجورة، وقد التصق بها المستشفى، يقف عند باب دخوله حارس غير أوروبي في زي مدني بيده رشاش من نوع ماتْ، قلت عنه لزليخة إنه من الفدائيين، أحد أفراد خلية سي فراجي الناجين.

ومن باب تْيارتْ شرقا، وقد التصقت به ثكنةُ اللفيف الأجنبي الصامتة بلا علم، خرجنا فقابلَنا ملعب التنس بسياج معدني مشبك

تحيط به أشجار السرو في حال من الهدْأة لا تعكّرها، إن كانت لا تزيدها هدهدة، غيرُ أصوات طيور الدوري تأتي في منتصف النهار لتستظل من الهجير. وقد أثار ذلك حنين زليخة.

«وأنا مراهقة طالما حلمت بأن أدخله هو والمسبح يوما، مثل البنات الأوروبيات!».

لم أكن لَمّحت إلى شيء آخر إذ قلت:

«الملعب والمسبح والشجر والعصافير والأرض والسماء كلها صارت اليوم ملكا لأطفالنا».

وعالجت محول السرعة منحرفا باتجاه الجنوب، بينما هزت زليخة رأسها بابتسامة. وفي المنحدر، نحو حي الكاستور الأوروبي الذي في مدخله كانت دورية أخرى ترابط، ظهر سور مقبرة اليهود – لم أتوقع أبدا أني كنت سأزورها بعد ثلاثة أعوام.

ونحن ندخل حي الكاستور، قالت زليخة، كأنها تحدث نفسها، إنها طالما تمثلت لها ڤيلاته، بقرميدها الأحمر، وسط الأشجار والأزهار، جنةً كما تُصورها كتب الحكايات الساحرة! كان محرك سيارة السيتروان وحده يسمع في الشارع الرئيسي، غير الطويل الخالي تماما من المتاجر والمحلات، وكان يبدو مهجورا لولا بعض المصاريع المفتوحة وظهور هذا الرجل الهرم عند ذاك الباب أو تلك المرأة العجوز من تلك النافذة.

وقالت:

«وجود الأهالي به ظل محظورا إلا لضرورة الحاجة إليهم لتأدية خدمةٍ مّا لأحد ساكنيه».

كنت أعلم ذلك. فقد حدثني حاييم، ليلةَ دخلتُ عليه في صيدليته، عن الأسلاك الشائكة التي نُصبت.

«ذلك حتى يظل النموذجَ المعماري المعبّر عن الفارق بين الجنس الأوروبي وجنس الأنديجان»، ردَدتُ على زليخة.

«تعتقد؟

– كل ما أنشئ من بنيان لصالح الأوروبيين في البلد كان لتأكيد ذلك. وإلا لماذا ظل الأهالي معزولين في أحيائهم الفقيرة عند أطراف المدن وفي أكواخهم البائسة بالأرياف من حول مزارع الكولون؟».

اليوم لم تعد هناك شقة واحدة فارغة في تلك العمارة الزرقاء الكبيرة، عند معبَر السكة الحديدية الذي يفصل بينها وبين قنطرة الوادي الفوقانية التي لاحظنا إذ مررنا عليها، مقابل حقل الرمان المتهدلة أشجاره ثمارا، أنّ مداخلها ونوافذها كانت مغلقة. لا حركة أمامها. وعند زاويتها، إلى اليمين نزولا، بقايا أسلاك شائكة حديثة التفكيك كانت تفصلها عن ڤيلاج نيگر* لأنها بوابة الدخول إلى وسط المدينة من تلك الجهة. ومن ثَم بدأت المناوشات بين أبناء الأقدام السوداء الذين كانوا يسكنونها من جهة وشباب الأهالي من گُرابة الوادْ من جهة ثانية منذ إعلان وقف إطلاق النار، كما كان حاييم أخبرني.

في المرتفع المطل على البساتين الممتدة عبر الجهة المحاذية للوادي، وقد خفضتُ السرعة لقطع معبر السكة الحديدية المخترقة جانبَ المدينة السفلي في اتجاه المحطة، ظهر لي، ولزليخة بجانبي،

---

* village nègre حرفيا، حي الزنوج في لغة الأقدام السوداء والأوربيين ذات النبرة العنصرية. وگُرابة الواذ في تسمية الأهالي: أي أكواخ الوادي الواقعة على ضفته الغربية.

هناك من الفج، ذاك الصليبُ الضخم لا يزال مرشوقا في قمة الجبل -وهو لم يعد اليوم موجودا لأنه نُزع وردم في مكان مجهول- وإلى أسفله، في السفح، حرْبيةُ حراسةٍ من الحجر المنحوت بطابق أول وأربع كوى مفتوحة على الجهات الأربع للتسديد.

في المنحدر، ونحن نقطع الطريق بين معبر السكة والقنطرة الفوقانية، على يميننا ساقية غزيرة المياه على ضفتها الأخرى أجمات وشجيرات من التوت الشوكي بألوانه وكروم متسلقة وأشجار تين ورمان وسفرجل وعلى شمالنا بستان الزيتون الكثيف، حدّثت زليخة بما تذكّرته من مغامرتنا، أنا وحاييم، مع ألفونسو پاتست. فضحكتْ. وقالت:

«منذ ذلك الزمن وأنتما متحالفان متواطئان على غيركما!».

على شِمالنا، غير بعيد عن القنطرة الفوقانية باتجاه مقبرة سيدي الزهار جنوبا، كانت حانة سيگورَا المطلي خشبهما بالبني مثل حانات الويسترن تبدو مهجورة. فهزتني رعشة لشخير محرك سيارة ألفونسو باتيست خلفنا أنا وحاييم في ذلك الصيف.

«كأنها تندب حظها على الذين كانوا يرتادونها ليل نهار للشرب والاستماع إلى شيوخ الغناء البدوي مع راقصاتهم»، قلت لزليخة.

فنظرت على الجانب الأيمن من طريقنا.

وقالت:

«وفي هذه الطحطاحة كانت تعرض جثامين القتلى من الحرْكى للمناحة التي تندبهم خلالها أشهر الندّابات».

وعند مدخل ڤيلاج نِيگْر، طلبت منّي أن أتوقف.

«لحظة. أحب أن أحدّثك بشيء عن هذا الحي الذي تربطه إلى المدينة القنطرة الفوقانية التي تجاوزناها والأخرى التحتانية. وتقسمه إلى جهتين هذه الطريقُ التي تعبره إليهما. وأنت قد لا تكون دخلته يوما.

– فعلا. وإن كنت سبحت في واديه»، ردَدت – بعد سنة من ذلك كنت سأعاين رفقة حاييم تلك الجهة التحتانية الأشد فقرا من نظيرتها الفوقانية المثيرة للحزن والأسف بمسالكها التي تشبه متاهة بلا إنارة ليلا وبسكناتِها الطوبية الواطئة الملتصق بعضها ببعض التصاقا البائسة غير الصحية بلا ماء ولا كهرباء ولا قنوات صرف تقيم فيها عائلات غالبيتها من ذوي البشرة السوداء جاؤوا من الجنوب.

خلال لحظة توقفنا، حدثتني زليخة، لأنها علمت ذلك من جدتها التي تقيم في الجهة الفوقانية، بأن سكان الجهة التحتانية يضطرون، لقضاء حاجتهم، إلى النهوض فجرا أو انتظار تخييم الليل ليخرجوا إلى حافة الوادي. فيما يتوجه ساكنو الجهة الفوقانية، من الرجال والنساء والأطفال الذين لا مراحيض لهم، إلى سفح الجبل جنوبا فتتعرض مؤخراتهم من ليلة إلى أخرى، وهم يُقعون لقضاء حاجتهم، إلى ضوء المسلاط الدوار بعيد المدى يرسله عليهم، من تلك الحربية، حراس فوج المشاة الثالث*.

وأنا أدير مفتاح المحرك لأقلع أضافت زليخة أن ساكني الجهتين يكتفون، في ليالي الشتاء الماطرة أو المثلجة، بأن يقضوا حاجتهم بجانب أبواب بيوتهم. وتفعلها، في الكاغط، النساء اللواتي يتعذّر عليهن الخروج. فقلت، بشعور بغيظ نقع نبرتي:

* وكلهم من الأهالي ملحقون بالجيش الاستعماري الفرنسي.

«هل هناك شيء أفظع إهانةً من هذا في حق الإنسان!

- كانت جدتي تقول إنهم كانوا يشعرون بأنّهم أُنزلوا إلى درجةٍ ما دون القطط الضالة»، مشيرة شِمالا إلى أحد الأحواش: «هنا كانت تسكن»، ويمينا: «بهذه الجهة التحتانية كانت أيضا مراكز للدعارة يقصدها الحرْكى».

فرددت في داخلي: «لأن ماخور المدينة الوحيد نفسه كان ممنوعا على غير الأوروبيين والأقدام السوداء».

مثل زليخة، دُهشت للأطفال، من البنات والبنين، الذين أحاطوا بالسيارة، متكاثرين راكضين بسرعتها المخفَّفة؛ يرفعون أذرعهم في الهواء هاتفين «الراية! الراية!» وقد عوّم الرجال والنساء جانبي الطريق في بحر من الأعلام.

فاستسلمت زليخة لبهجتهم، قائلة:

«إنهم أجمل وأكثر فرحا من العصافير!».

سألتها إن كانت لها رغبة في التوقف لتنزل. فهزت رأسها قائلة إنها لن تستطيع مقاومة انفعالها، بينما كانت ترتفع نحونا دعوات إلى الغداء من هذه المرأة أو من ذاك الرجل، على أهازيج خالطتها أنغام الزرْنة والطبل.

فردت مجهشة:

«شكرا لكم. شكرا!».

وفي نهاية الشارع، لأني صرت أنا الأشد انفعالا وتأثرا، أوقفتُ السيارة، ناظرا بطرْف إلى زليخة تمسح دموعها. ثم نزلتُ والتفت إلى الجموع، واجدا أمْرَ أن أرفع لهم يدي بتحية غير كافٍ. فأخرجت

مسدسي. وأطلقت في الهواء ثلاث طلقات التهبت لها حناجر النساء بالزغاريد. وعلى تنازلها خرجت زليخة من السيارة والتفتت، رادة بزغردة بكْر، حادة وطويلة. فأحسست قشعريرة لذيذة سرت في جسدي ألهبتُها بطلقة أخرى تلتها طلقات متقطعة صدرت من الدورية المرابطة في مخرج المدينة الغربي قرب دار نقيب لَـ SAS التي كانت مغلقة الباب والنوافذ واجمة.

وسط تدفُّق العائدين من قلب المدينة، رجالا ونساء وأطفالا، عالجت محول السرعة غير مرّة في المسافة القصيرة بين القنطرة التحتانية ومعبَر السكة المحروس، الذي واجهَ سيارتنا حاجزُه الحديدي المشبك المضروب باللونين الأحمر والأبيض، وقد استدار نحوه من كانوا تجاوزوه لصفير القطار يدخل المحطة، قادما من الجنوب يحمل مئات الجنود الفرنسيين باتجاه الشمال، وكان يُحدث، بكتلة قوقعة محركه الصماء الخرساء المدمدمة ذات اللون الرمادي، هزهزةً ترتج لها الأرض من تحت الأقدام وعجلات السيارة نفسها، ويصدر بكوابحه اصطكاكا للحديد على الحديد.

لكثرة عربات القطار التي بقي عدد منها خارج مدخل المحطة، تأخر فتح الحاجز. فسألت زليخة إن كان الأمر يقلقها. فحركت رأسها، مبتهجة، وقالت إن المشهد يبدو مسليا.

وخلال الدقائق التي استغرقها التزوّد بالوقود، كما تبيّن، راح أولئك العسكر ينظرون مندهشين، من خلف مربعات زجاج العربات، إلى هؤلاء الواقفين خلف الحاجز، على الجانبين؛ هؤلاء الذين كانوا أمس مجرد رعايا وأنديجانْ، يواجهونهم الآن عينا في عين، بلا خوف،

ملوحين في وجوههم برايات النجمة والهلال، هاتفين «تحيا الحرية»، على زغاريد نسائهم بأعلى أصواتهن في العبايات والْحِياك، وقد كشفن عن وجوههن!

لقد عاين كلانا، بعد أن نزلنا، على وجوه أولئك العسكر المطلّين أيضا من نوافذ العربات نصف المفتوحة، علاماتِ سلام؛ بل إشارات من أيدي بعضهم. وكلانا رأى أولئك النساء وكأنهن لم يَخفْن يوما! لأن ما يولّد في نفوسهن الإحساس بالانتصار على القهر، كما قلت لزليخة، كان أقوى. فلم يشتمن، بقول ولا بإيماءة، أولئك العسكر الذين كانت تظهر على وجوه بعضهم بقايا سيما من طفولتهم. فإنك لَتخالهم، كما قلت لزليخة أيضا، يكادون لا يتحققون من أنهم في يقظة. هم الذين كانوا قبل أيام، في الثكنات والمراكز البعيدة في السهوب والصحراء، لا يتوقعون أن يشاهدوا جوّا من الابتهاج العارم الغامر كهذا يذكرهم بما جرى في المتروپول يوم تحرير باريس قبل ثمانية عشر عاما، جوّا يثيرهم، ولا ريب، بأن يصفوه، في رسائلهم إلى ذويهم وأزواجهم وعشيقاتهم، بالاستثنائي والمذهل؛ كما خيّلتْ إليّ زليخة.

ولئن بدا بعضهم، ممن رفعوا أخيرا أيديهم بحركة سلام من خلف مربعات زجاج العربات، مستأنسين إلى حلمهم بأنهم يغادرون أرض الحرب هذه أحياء راجعين أخيرا إلى أهليهم هناك وراء البحر، فإن آخرين، كما صوّرتُ لزليخة، كانت الحسرة تنهش قلوبهم على ما يضيع منهم. فكيف لا يتألمون ولا يبكون إذ يتذكرون أنهم، قبل شهور فقط، حين يعودون من تلك الثكنات والمراكز البعيدة، كانوا يجدون، وقد نزلوا هنا في هذه المحطة، معارف أو أصدقاء وغالبا عشيقات!

وإن صادف نزولهم نهاية الأسبوع احتلوا أرصفة شارعي گمْبيطة وإيزْلي وساحة ريموند پْوانْكاري، وأخذوا صورا تذكارية، وعاكسوا، وقهقهوا، وقاموا بدورة الدوقات الكبيرة في حانات المدينة، وقصدوا البيوت المغلقة، أو دخلوا الماخور، وانتهى المشاغبون منهم إلى الحبس غالبا، بعد أن ذاقوا من هراوات دوريات الشرطة العسكرية.

بارتفاع آخر تصفيرة للقطار، وهو يختفي بين أشجار الزيتون على جانبي السكة في اتجاه الشمال، كنا عاودنا ركوب السيارة وتجاوزنا المعبر. ومن تقاطع شارع گمْبيطة الأول استدرنا شِمالا فظهرت لنا راية النجمة والهلال الكبيرة مرفوعة على باب ثكنة المحطة. غير بعيد عنها، إلى اليمين، دورية من جيش التحرير تُوقف جماعة بدا أنها كانت تنهب ممتلكات أوروبيين. وقريبا من ميزان البايْلك، كان أفراد من المواطنين يحملون شارت النجمة والهلال على أذرعهم، ويقيمون الحراسة عند مداخل أحواش إسپانية تقطنها بقايا من عائلات الأقدام السوداء.

حي لامارينْ الذي دخلناه من جهته الجنوبية عبر شارع الحديقة الموازي لسينما پامْ پامْ بمحاذاة بناية كهرباء وغاز الجزائر، كان هو الآخر محتفيا تملأ فضاءه، برغم حرارة شمس الظهيرة، الأهازيج والهتافات وزغاريد النساء.

في وسطه، أشارت زليخة نحو أحد الأحواش، قريبا من الگاراج الكبير. وطلبت منّي أن أتوقف.

«أمّا غزالة تحب أن تراك»، قالت.

فأدرت وجهي إليها، مغطيا على ارتباكي، بابتسامة خفيفة عابرة.

«الآن؟».

فأكدت، ضاحكة العينين:

«نعم. الآن!

- أمرك!».

«أمّا!».

نادت زليخة، بجانبي، في صحن الحوش. فإذا امرأة تظهر، في عباءة بيضاء وحزام أحمر وعصابة خضراء، وكانت ذات ملامح كريمة، أطلقت زغردة دوّرتها بكفها حد احتباس أنفاسها؛ فارتفعت إثرها من الأحواش المجاورة زغاريد أخرى. ثم تقدمت نحوي بخطوتين مهيبتين، فثار لهيئتها شعوري بما كنت لا أراه إلا على وجه جدتي من سَمْت وبهاء.

وتفرستني، وهي ترى في شاربي وملامحي زوجَها سي النضْري عندما كان في سنّي. إنه لا شكّ إحساس خالجها إذّاك. ثم بسطت لي راحتيها برغبة أمٍّ تود لو تحضنني كما تحضن ولدا لها يرجع من الحرب. فمددت لها يديّ دون تردّد، وفي ذهني صورة أمي. فشدت عليهما، وهي تجذبني إليها قليلا فاستنشقتُ رائحة مسكها، فوجدته مثل الذي كانت جدتي تتطيب به. ومثلما كانت جدتي تفعل، لمست خدي بأصابعها الناعمة.

وقالت:

«فيك شيء من سمات الشهداء».

فقلت:

«طوبى لك أنت بسي النضْري!».

فشهقتْ. ومسحت خديها بمنديل نزعته من حزامها وقالت، محولة ناظرها إلى زليخة، إنها حدثتها عني وعن عرْقي الطيب.

فقلت:

«زليخة فخْرك يا خالتي غزالة!».

فكرمشت منديلها، كأنّها تريد أن تمسك على انفعالها.

وقالت:

«زليخة! لماذا أنت واقفة هكذا؟ إنه وقت الغداء!».

فرفعتُ يدي، في حركة اعتذار. وقلت ألاطفها:

«يكثّر الخير».

ورجوتها أنْ تعذرني. ووعدتها أني سأرجع مرة أخرى. وقلت، إذ استخبرتني بعينيها إن كنت سأفِي:

«الآن عرفت الدار».

وتراجعتُ. فاقتربت منها زليخة وقالت لها في ما يشبه همسا إنّها قد تتأخر قليلا. ثم تقدمت نحو الباب ففتحته لي وخرجت في إثري. وعند باب السيارة، من الجهة الأخرى، نظرت إليّ نظرةَ مَن نسي أمرا كان سيقوله. فحركت لها رأسي بإيماءة ماذا. فردت بمثلها. فتبادلنا ابتسامة عذبة، عليها ركبنا.

وأنا أدير مفتاح التّشغيل، رمقت زليخة ترنو، كما في مرآة، إلى شيء ابتسمت له مثل طفلة تنتظر مفاجأة. كانت عواطفها في ذروة جيشانها. كذلك أحسستها، مثلي تماما. ومثلي كانت، بلا شكّ، ترغب في أن نمكث مزيدا من الوقت معًا.

«الخادمة تكون في انتظاري للغداء. ماذا لو تقاسمينني إياه. بعد ذلك سيكون لنا وقت لأشياء أخرى»، قلت من غير أن أكون رتّبت أي شيء في ذهني من قبل.

فلم تكن سوى ثوانٍ مرت على صمتها حتى أدارت رأسها نحوي واستجابت بإيماءة، على خجل ناعم جَمّل وجهَها.

لا أذكر أني تمثلت نفسي شخصا آخر من مشاهير أبطال الحرب أو السينما، كما كنت أقرأ أو أشاهد خلال أعوام الثانوية والجامعة، لأن بجانبي، في السيارة، امرأةً أوصلتني معها مغامرة الحياة في النهاية إلى بداية جديدة. كنت أشعر أني إياي فحسْب في ذاتي وفي أحاسيسي، وأنا أصعد شارع شارْبيه نحو دارة الساعة التي انعطفت منها شِمالا فيمينا إلى حي الدرب وزنقة طفولتي أنا وحاييم حيث ركنت السيارة. ولكني في الوقت نفسه كنت أشعر بقلبي يهفو إلى زليخة كما لم يهفُ من قبل إلى أمر شغله. وتلك كانت بداية البداية الجديدة.

كنت أعرف تلقائية زليخة وزهدها، وفوقهما رغبتَها في أن يكون ما بيننا عاديا وطبيعيا؛ وإن كان لا يخفى عنها ما أحظى به، بالقياس إلى وضعها الاجتماعي إذا ما قارنته بما أملكه - زليخة الجميلة المستلقية الآن في السرير وهي تقرأ رواية عن وهران امرأة منحوتة من رخام الكرامة نفسه.

على طاولة هُيئت بكراسيها في قلب الحوش، جلست زليخة تقابلني، مسرّحة ناظرها في أشجار الليمون ومسك الليل والياسمين وأصائص ورد، هنا وهناك، ونافورتين صغيرتين في الزاويتين الأماميتين، وقفص كناري معلق في شباك الدالية المتسلقة.

«من قال!»، نطقتْ ناظرة إلي كأني في أبعد نقطة عنها.

لم أكن أحتاج إلى سحرِ منجّمٍ كي أدرك أن شعور زليخة كان رماها إلى أيام الخلية في المدينة، ولحظات الجبل القاسية بجوعها وأمطارها وثلجها وعطشها؛ تلك اللحظات الممتزجة بالخوف والمرض وفيض الرغبة المكبوتة، وإلى من غيّبهم الموت عن هذا الوجود.

في الوقت، انتبهتْ إلى الخادمة تحمل صينية فضية كبيرة وضعتها بيننا؛ فيها قصعة الكسكس الخشبية الصغيرة وإناء المرق والماء وكأسان وملاعق ومنديلان وسلة عنب.

«هذه عَونية. إنها مثل أختي»، قلت أقدمها لها.

فانحنت لها عونية ثمّ تولت. وكانت، بعد أن أنهينا، ونحن على حديث لم يتجاوز لذة الكسكس وطراوة لحم الخروف ونكهة السمن البلْدي، قد رجعت فوضعت صينية الشاي الصغيرة ورفعت الأخرى. ثم استأذنت في الانصراف من غير أن ترفع عينا.

وبرغم ما أضْفته علينا لحظة تناولِنا الشاي من انشراح، فإن شجنا عنيدا طفر على وجه زليخة إذ راحت تتساءل كم وقتا يلزم لتندمل الجراح وتتعافى الأرواح من كل ما خلفته الحرب. فمازحتها، حتى أصرفها عمّا اعتراها، بأنه كان يجب أن نلتحق بالجبل حتّى يلمس أحدُنا الآخرَ.

حينها، ابتسمت.

«لمسة؟

- فحسْب!»، أكدتُ.

وقلت لها ألاطفها إنّي وجدتها يوم رأيتها في اجتماع الخلية الأول أنيقة، جذابة وواثقة. فأغرقت نظرتها في كأسها بين يديها - قلت لزليخة

يوما لما تذكرنا هذا ونحن في الفراش هناك في مزرعتنا إني كنت أحس قلبي ينفطر لفكرة أنها وهي في عمر الزّهور ذاك قد تُقتل أو يُقبض عليها فتُعذب أو تُغتصب.

وها هي ترفع عينيها عن كأسها لتقول لي إنها كانت لا تصدق أني صرت على تلك الجاذبية والمهابة بعد افتراقنا في آخر عطلة صيفية إثر إعلان نتائج مسابقة دخول السنة السادسة في 1944. عامذاك، توقفتْ عن الدراسة مضطرة. ولكنها لم تتوقف عن القراءة. فتلك كانت، إلى جانب كرامتها، قوة جعلت منها المرأة التي أعرفها الآن.

«كم كانت عذبةً تلك السنون الست في مدرسة جول فيرّي!»، قالت.

وسألتني إنْ كنت أذكر يوم أرتني، أمام باب مدرستنا تلك، قرْصَ الحناء في كفها، محاذرة أن يتفطن لنا أحد التلاميذ من حولنا. فهززت لها رأسي. وكما تخبئ شيئا سرّيا أقفلت يدها الصغيرة. وأخبرتني بأن أمها هي التي ربطتها لها ليلة المولد النبوي. وعندئذ رن جرس الدخول رنته الفاترة الحنون.

وذكّرتني أنها كانت أرتني أكثر من مرة دفتر الاختبار، متفاخرة بأنها تحتلّ رتباً أحسن من رُتب كثير من البنات الأوروبيات.

«وكنت تتفوقين على گولدا»، قلت مزكيا.

«آه تلك! كانت تقول إنها لن تدرس مرة أخرى في مدرسة يوجد بها أنديجانْ»، ردت بابتذال – زليخة كانت قد نجحت مثل گولدا في مسابقة السنة السادسة فلم تواصل لأنه لم يكن في مقدور عائلتها أن تكْفل لها مصاريف الدراسة في الطور الإكمالي بمدينة معسكر واكتفت بالشهادة الابتدائية.

ثم تنهدتْ.

«كم كنا نكبر بسرعة!

– وكم من الأطفال في عمرنا كانوا يرحلون في تلك السنين السوداء عن هذا العالم بالسرعة نفسها!

– وكانوا لا يحظون، لفقرهم، بكفن أبيض نظيف. كنت أرى أحيانا غيرهم يُحمَلون في توابيت من خشب السنديان فوقها الوَرد.» – في الجبل حدثتني زليخة مرة خلال مسافة سير عن صديقة لها قضت مسلولة وعن خالها التهمته الكنگرينة وجارة شابة ماتت إثر ولادة متعسرة فيما كان ذهني منصرفا إلى العناية الصحية التي يحظى بها، في مقابل ذلك، الأقدام السوداء والأوربيون في الميدنة وأريافها.

ثم رشفت. وفاجأتني، بصوت جادّ جدا، أنها غالبا مّا تخيلت أيامي في مدينة معسكر.

«كما في مدينة الجزائر أيضا! أليس كذلك؟»، قلت ضاحك القلب. وطاردتُ عينيها إلى أن بسطت يديها على الطاولة، قريبا من كأسها. وقالت إنها لا تتصوّر تلك المدينة إلاّ وهي على درجة من الجاذبية والسحر. فتخيلتُني في المزرعة رتبتُ آخر حقيبة في السيارة ثم ركبتُ فوضعت يدي على ركبتها، قائلا: «والآن إلى دُزاير!».

«فعلا. وهي مدينة كبيرة. قد نزورها يوما!

– حقا؟».

فمسدت على ظاهر يدها بأطراف أصابعي.

«إن شئت»، ردَدت بما في صدري من رغبة.

فتنهدت، محركة يدها من دون أن تسحبها، متورّدة الخدين.

«سيكون ذلك حدثا استثنائيا.

- ولكن قبل ذلك لا بد من استشارة خالتي غزالة.

- إنها تثق فيك ثقتها في ملاك.

- ستكون استشارة من نوع آخر».

عندها، خفق ذقن زليخة وأزهر وجهها كله. فحضنت يدها كاملة بين يديّ وانتظرت إلى أن أعادت إلي ناظرها في ما تخيلتُه رحلتَها الأثيرية نحو باب السعادة.

«أحب أن ترافقيني يوما إلى تلك المدينة الجميلة ونحن في وضعية شرعية. فقد وعدت خالتي غزالة بالعودة. وسأوفي لأطلب هذه اليد منها».

فشبكت أصابعها بأصابعي، شاهقة بحرارة، وقد مار الدمع في عينيها.

6

كفرْحة عابرة

إن لم أكن ناقشت أمر قيادة ج.ت.و. مع مسؤولها السياسي، إذ أبلغني قرار تعييني مفوضا* لبلدية المدينة شهرين بعد إعلان الاستقلال، فقد طلبت منه إضافة حاييم بنميمون ضمن المستشارين ليعضدني في عملي.

كان ذلك، كما أذكر في هذه الليلة، بدايةَ شهر سبتمبر. وفي أسبوعه الثاني، وقد جلست منذ لحظات إلى مكتبي لفترة دوام ما بعد الظهيرة المخصصة للاستقبالات، أدخل علي الحاجبُ ذلك الشابَ الذي كنت طلبت منه، يوم حصار بيت حاييم، أن يدخل قاعة الانتظار.

يجب القول إن مفاجأتي كانت على قدر نسياني إياه تماما. فقد اعتذرت له. ودعوته إلى الجلوس على كرسي قبالتي. فارتبك وشكرني. وبقي واقفا. فسألته ماذا يعمل. فردّ أنْ لا شيء؛ وكان ذلك يعني أنه عاطل. فطلبت منه اسمه ولقبه وتاريخ ميلاده وعنوانه، مسجلا ذلك كله أمامي على مفكرة. ثم وعدته بأنْ تصله مراسلة. وصرفته. ثم ضغطت على زر جرس الحاجب لإدخال التّالي من المنتظرين. فعلت ذلك مرات لا أحصي عددها، في النهاية، إلا حين أعاود، في السجل، قراءة أسماء النساء والرجال الذين استقبلتهم واستمعت إليهم ووعدتهم أو أولئك الذين لم أعدهم بشيء عرفت أن لا قدرة لي عليه.

* كذلك كان يسمى مسؤول البلدية الأول قبل أولى انتخابات بلدية عام 1967.

يا لَتلك الأيام! كنت أصبح أكثر انشغالا. وأمسي أشد إرهاقا؛ لِما تفرضه مسؤولية تسيير إدارة صار ملحا علي أن أعيد تنظيمها، بعد أن غادرها الموظفون من الأقدام السوداء والأوروبيين غداة نهاية الحرب. فما رجعتُ إلى البيت، في حي الدرب، إلا متأخرا ومتعَبا.

فلطالما استنزفني سؤالي عن كيفيّة رفع حجْم العمل وتسريع وتيرته مع موظفين جدد وجدت إرادتهم وحدها غير كافية. فأعلاهم مستوى، كما تبيّنتُ، كان يحمل الشهادة الابتدائية. كان ذلك واقعا أحزنني. ولمواجهته، خصصت لهم ساعة تكوين في نهاية دوام ما بعد الظهيرة، لمدة سنة كاملة. كنت أتذكر جنود الفرقة يحملون دفاترهم إلى جانب أسلحتهم في الجبل.

اليومَ أسألني إن كنت سأصمد حتى النهاية إن لم يكن بجانبي حاييم؛ فمعه أيضا، لإعادة شحن العزيمة كما كنا نقول، كنت أقضي من نهايات الأسبوع، في بيت أحدنا بالتناوب أو خارجهما، أوقاتا حميمة وممتعة. نأكل ونشرب. نسمع الموسيقى ونغني أحيانا. ولكن لماذا لم نرقص يوما وحدنا أو مع غيرنا من الفتيات حتى في تلك الحفلات المقامة في الجامعة!

ذات مساء سبت، من أواخر الصيف الثاني للاستقلال، كنا، أنا وحاييم، أنهينا جلسة عمل لتوزيع المعونات على المحتاجين والمعوزين، لَمّا دعوته إلى العشاء.

«أنتظرك»، قلت بإلحاح.

«طيب. سأمر على المستشفى. لن أتأخر.

– في التاسعة، إذاً!».

من أعلى الأدراج المشرفة على ساحة البلدية رحت، إذ خرجت، أتأمل، ناسيا تشنجاتي العضلية من أثَر الجلوس، أولئك النساءَ والأطفال والرجال يمشون في سلام متداخلين تحت الأنوار التي تلت الغروب.

ثم، كما لو أنّ الأمر حدث بجاذبيّة، نزلت. وها أنا أمشي بينهم؛ فقاطعتني وجوه خُيل إلي أني أعرفها كلها. سمعت أصواتهم، وكلماتهم وضحكاتهم. شممت روائحهم وعرقهم أيضا. وغبطت من جلسوا، من الشيوخ والعجائز، على تلك المقاعد العمومية. ولكني تذكرت أيضا مشاهد من حفلات رقص، من نوع البالْ، كانت تنظم في تلك الساحة التي كنت أشاهد فيها عن بعد، وأنا صغير، أزواج الأقدام السوداء والأوروبيين حين يبلغون ذروة الجنون في رقصة التْشا تْشا تْشا أو التويست فيحركني الإيقاع مكاني.

غير بعيد عن الكشك، في أعلى الأدراج المفضية إلى المزْولة ودارة الساعة، وقفت. كانت سقائف المقاهي غاصة بمن شكلوا حلقات. فعمّ تُراهم يتحدثون، كما تخيلتُهم، إن لم يكن عن الذين كانوا أمس شغلوا هذه السقيفة أو تلك وتفسحوا في شارعي إيزلي وكَمْبيطة الرئيسيين وانتشروا في الساحة وجلسوا في مقاعدها! وماذا تُراهم يعدِّدون غير البنايات الرسمية والفنادق والحانات وقاعات السينما والمسرح والمسبح والحديقة التي كانوا لا يدخلونها كلها، أو وسائل النقل التي كانوا لا يركبونها، إن ركبوا، إلا مفصولين، أو تلك المزارع والأراضي وحقول الكروم والمعاصر والرِّحي التي كانوا يكدحون فيها للأسياد من حلكة الفجر إلى ظلمة المغرب!

وبرغم الذكريات التي لا تزال تنز ألما، كما كنت أشعر، يسترجعون، بمزيج من الغبطة والحسرة، وجوه أوروبيين غادروا؛ من أولئك الطيبين الذين لم يُظهروا تجاههم عنصرية أو أقدموا على إهانتهم أو إذلالهم أو قتلهم لأتفه الأسباب مثلما فعله غلاة الكولون والأقدام السوداء، من فصيلي الموت التابعين لليد الحمراء وللمنظمة المسلحة السرية، أولئك الذين اغتالوا مدنيين أبرياء بدم بارد لأن أقدارهم كانت، لسبب أو آخر، أوجدتْهم في شوارع وأحياء وأماكن لم يكن لهم، مع قرب نهاية الحرب، أن يوجدوا فيها. ونسفوا المسرح. وأتلفوا مخازن الحبوب.

وداخل هذه الحانة أو ذاك المطعم يذكرون، اليوم، أسماء من قضوا نحبهم في المعارك والاشتباكات ومن اغتيلوا ومن لا يزالون مفقودين. ويثيرون، بريْب حينا وبأمل حينا آخر، كلاما عن المستقبل، إذ يشْغلهم كيف يجهزّون أبناءهم لدخول مدرسي آخر كانوا محرومين منه. ولا يُضمرون شجْبهم حماقةَ المواجهة الأهلية بين إخوة السلاح، حسَب ما كان يُتناقل من أخبار عن الصدامات المسلحة بينهم في بعض مناطق البلاد، للسيطرة على الحكم. ويثلبون ثلبا من خانوا؛ أولئك الذين تخلفوا عن المغادرة مع الأفواج الأولى لجلاء الجيش الفرنسي فتُركوا لقدرهم في ثكنات مع نسائهم وأطفالهم مجرَّدين من أسلحتهم فسلِّطت عليهم يد الثأر ما لا يمكن لقلب أن يتحمله أو عقل أن يتصوره أو ذاكرة أن تنساه - حتى آخر ذلك الصيف كان لا يزال يسري من غير نفي أو تأكيد له أن تواطؤا على الصمت بين قادة من الجيش الفرنسي ومسؤولين في المتروبول

من جهة ومسؤولين عسكريين ومدنيين في ج.ت.و. من جهة ثانية وقّع ليأخذ الأهالي بثأرهم من الخونة.

كنت عائدا، لمّا مررت على أحد تلك المقاعد فاستوقفني كهل مبتور الفخذ. ودعاني إلى الجلوس بجانبه، ناقلا عكازيه كيلا يحولا بيننا. فاستجبت فسألني إن كنت أنا السيد أرسلان مفوّض البلدية! فأجبت أني هو.

«أنت فخر للمدينة.

– العفو». ردَدت.

وطلبت منه أن يعرفني بنفسه. فاكتفى بأن قال إن ذلك لا يهم. وأضاف أنه مجرد مواطن. فأصررت.

«أنا والد علي»، قال مفاجئا إياي بكل ما في صوته من رزانة.

«الشهيد علي! الذي أعدم بالمقصلة!

– أعرف أنه كان معك في الخلية.

– هل تريد أن ألبي لك طلبا؟

– لا. شكرا»، رد بنبرة الزاهد.

سألته عن عطبه، متوقعا أنه كان، بلا شكّ، في صفوف جيش التحرير، وأنه عالج في مستشفى غارديماو داخل التراب التونسي. فأجاب بأنه لم يشارك في حرب التحرير. ثم استدرك:

«ولكني شاركت في تحرير باريس، بصفتي مجندا.

– شرف لك أن تكون ساهمت في تخليص البشرية من آلة الدمار النازية!»، قلت.

فصمت لحظة. ثم ألقى:

«لا أدري.»

وأضاف -بينما كنت أسمع منه ذلك بخجل- أن ما استوقفني من أجله هو أنه أحب أن يعبر لي عما في قلبه من تقدير لشخصي.

وقال:

«أعلم أنك كنت تحمل السلاح. وأعرف أنك لم تشارك حسب علمي في أي عمل انتقامي».

وكنت سأسأله لِم يقول لي ذلك. لكنّي تراجعت لمّا راح يحدثني، بكلمات مقتضبة، عما حصل للمتعاونين مع النازيين في باريس من سحل للرجال منهم وحلق لرؤوس النساء، وعن فظائع الإهانات والإعدامات الجماعية رميا بالرصاص أو شنقا.

لم أعلق. كنت أدرك أنه يلمّح إلى وقائع الثأر من الحرْكى بعد إعلان الاستقلال.

«لم تخبرني عما وقع لفخذك!

- كنت أحد المكلفين بنزع الألغام في نهاية الحرب هناك.

- تقبل تقديري. وأهلا بك في البلدية، لأي طلب.

- شكرا. تمتع بعافيتك وشبابك!

- إلى لقاء».

في الحوش، تحت إكليل نور اللمبات الكهربائية، ونحن نتناول عشاءنا، وقد كان طبقا من الكسكس، أعدت على حاييم ما جرى بيني وبين والد علي. وقلت إنه أدهشني بكبريائه وأسرني بوصفه لِما حدث في باريس للمتعاونين من الفرنسيين مع النازيين - في تلك الليلة حدثني حاييم عما كانت الألسن قد شرعت تتناقله منذ إعلان

نتيجة الاستفتاء الساحقة عن تصفيات طالت العشرات من المخبرين الأهالي المعروفين المسلحين منهم خاصة وسحْل من تم القبض عليهم من حرْكى كومندو جورج* وسلْق بعضهم في براميل من زيت المحركات وتعليق رؤوس بعضهم الآخرين على الأعمدة أو على أبواب بيوتهم من أولئك الذين ارتكبوا خلال الحرب أفعال قتل واغتصاب ونهب وسبي.

«إنها تراجيديا حقيقية»، أنهى حاييم.

«لا شيء كان سيغسل أثر الخيانة غير الدم»، ردَدت.

مثل غيرنا، في تلك الظروف، تورطنا ليلتها، مرة أخرى، في الحديث عن الاحتلال وما ترتب عنه، عن وقائع الحرب، عن عمليات الثأر والفوضى التي تلت. ولا أذكر أيّنا كان أثار للآخر حديث أستاذ التاريخ في ثانوية مدينة معسكر يوم ألصق على السبورة صورة الداي حسين؛ تلك التي تُظهره يلطم بمروحته وجه القنصل الفرنسي دوڤال. وقال في الخلاصة إن مثل ذاك السلوك الوحشي هو ما دفع فرنسا العظيمة إلى أن تؤدب برابرة الجزائر!

قلت إن الأستاذ كان يعرف أنه يكذب على نفسه وعلى التاريخ. وقال حاييم إن ذلك لِيُظهر الغزاةُ الفرنسيون لمنافسيهم الأوروبيين، من الأنگليز خاصة، أنهم هم أيضا يملكون من القوة ما يجعل من بلدهم إمبراطورية مهيبة الجانب. فوافقته على ذلك.

«حادثة المروحة، إن وقعت فعلا كما صورها لنا أستاذ التاريخ، لم تكن سوى مجرد ذريعة لالتهام شمال إفريقيا كله.

* الذين كانوا أساسا من المرتدين من ج.ت.و. إلى جيش الاحتلال الفرنسي.

– والسيطرة على إنتاج القمح الذي كانت سوقه بيد محتكريْن، من عائلتين يهوديتين قدِمتا من إيطاليا واستقرتا في مدينة الجزائر، يلقّبان بِمَلِكي الجزائر، كما أخبرني الوالد يوما وهو يحدثني عن تاريخ العائلات اليهودية المهاجرة.

– بكري كوهين وبوشناق نفطالي؟

– بالضبط. وقد وظفا خبرتهما في الصفقات للتلاعب بأسعار القمح، وفي مقايضة مبالغ مديونيّته المستحقة للجزائر على فرنسا بالخردة والقهوة والسكر والتوابل، لأنهما كانا يملكان لتصديره عقدا حصريا مع الإدارة العثمانية التي كانت متورطة معهما في الفساد الذي نجم عنه الانهيار».

لم يكن ذلك مجرّد شعور مني، بل كان معاينة مؤلمة. وقلت لحاييم إنّ حرب التحرير بقدر ما كانت خَلاصا تاريخيا من الاحتلال فإنها لم تخلق التركيبة الاجتماعية الجديدة المؤمَّلة. فقال إنه ما زال يعتقد أن تلك التركيبة كانت، بتنوعها العرقي والثقافي، ستغني هذا البلد. فأبديت له تحسّرا وقلت إنها كانت خسارة تاريخية.

«ما وقع في العام الأخير من الحرب خُطط له ليحدث الشرخ القاضي، النهائي والمؤلم!»، قال حاييم مضيفا «وجنون الغُلاة من دعاة الجزائر الفرنسية ومنظمتاهم المسلحتان السريتان اللتان استهدفت عملياتهما الانتقامية الأوربيين أنفسهم هنا وفي الميتروپول، هو ما مزق، في الدم، ما كان سيبقى من نسيج. وعجّل برحيل آخر المترددين.

– حاييم. أنت تعرف أن يهود المدينة لم يكونوا جميعا مضطرين إلى المغادرة.

- صحيح.

- خاصة المرتبطين بحب»، أضفت مبتسما.

تلقفها حاييم، عاصرا شفتيه. وحرك رأسه كطفل، قائلا:

«أفهم تلميحك. گولدا ستظل إحدى أشد خيباتي وأقساها».

گولدا رفاييل كانت واحدة من أولئك الأوروپيات، من أصل يهودي، أولئك اللائي سارعن إلى المغادرة عشية وقف إطلاق النار، وقد خلّفت لحاييم جرحا في القلب، لأنه رفض لها شرطها، لتقبل به زوجا، وهو أن يغادر معها إلى فلسطين كيفما كان مآل الحرب. فمنذ أن بدأ يظهر أنّ المفاوضات ستنتهي إلى إعلان الاستقلال، كثفت من اتصالاتها بيهود المدينة لدفعهم إلى الهجرة. وكان تعجُّلها إقناعَ حاييم بحسم مسألة مغادرته إلى فلسطين قد تَحوّل عندها إلى هوس.

كانت قد جددت له دعوتها، لما زارته في بيته آخر مرة، من غير أن يستجيب. فقدمت له ضمانات، إن هو غادر معها إلى هناك، بأن يحصل على محل لفتح صيدلية وعلى قطعة أرض لبناء مسكن؛ وربما على حقل زيتون أو برتقال، حسب المنطقة التي سيحل بها. فردّها. وأمام تصلُّبه خفّضت له من شرط زواجها به إلى أن يغادر معها إلى المتروپول، فحسْب. لكنه أبدى لها رفضا قاطعا. فواجهته، كما روى لي، بما لم يواجهه به عنصريٌّ من الأقدام السوداء أنفسهم.

«أنتم معشر التوشاڤيم الأهالي ما أجبنكم! أنتم عار اليهود في هذا البلد!».

وقال إنه تجاوز عن رعونتها حفاظا على آخر خيط كان يربط بينهما. ورجاها أن تراجع نفسها لأن الحرب تسير نحو النهاية المعروفة.

وطمأنها على أنها تستطيع، إذا ما بقيت وتزوجا، أن تصير مواطنة كبقية الجزائريين، لأنه يعرف أن هذا البلد لن يلفظها.

فردت، بعصبيّة:

«مواطنة مثل الأنديجان؟ يا للمأساة! تعني ذمية من جديد! تعني أن أصبح واحدة من نسائهم اللائي يعشش في رؤوسهن الجهل والتخلف والحمق؟ لا يا سيد حاييم! كن أنت وحدك المواطن الجديد في هذا البلد الملعون!».

وقرّبت وجهها من وجهه، مسلطة عليه نظرات ملتهبة.

«كيف ليهودي مثلك أن يرهن شرفه ودينه وحياته لهؤلاء الحثالات! وفوق ذلك أن يتواطأ مع قتلتِهم من الفلاگة!».

ثم، وهي تتراجع:

«أعرف. إني أعرف كل شيء. وستدفع الثمن!».

فواجهها بانفعال:

«الآن تهددينني!».

فقابلته، بتعالٍ ساخر:

«فمن أين وصلت إذًا تلك الأدوية إلى الفلاگة في الجبل إن لم تكن من صيدليتك!».

واستدارت عنه وهي تقول:

«يجب أن تعلم أن أحد المستسلمين اعترف بأن رفيقك أرسلان الأنديجان هو الذي حملها! وبأن العميل المزدوج الأنديجان الآخر من ضباط الصف في سرايا كومندو جورج كان سائقه في تلك الليلة. لعلك تعرف أنه هو الذي دافع عن براءتك دفاع استماتة. وهو الذي أسكت إلى الأبد الأنديجان المستسلم حتى لا يقول أكثر مما قاله.

- خيالك باهر! يجدر بك أن تكوني كاتبة أو رسامة».

التفتت إليه، في ذروة غضبها. ورازته بنظرة سوداء، محركة شفتيها كأنها تبحث عن كلماتها، فيما كان هو يضيف.

«أبوك الفرنسي هو الذي جاء إلى هذه الأرض. وأهل هذه الأرض لم يدعوه ضيفا، ولا طلبوا منه عونا. وأمك، أمك اليهودية المهاجرة كيف تتزوج نصرانيا مثله من عائلات الغزاة فتكوني أنت هذه المخلوقة الهجينة الغريبة! أنت لا تبغين من مغادرتك الآن إلى هناك سوى أن تعوضي ما ضاع لأمك من حلم. ثَم هناك شعب آخر كان متعايشا مع غيره من اليهود. أنت تخطئين. لن تكوني أنت ومن معك وحدكم على تلك الأرض. ستجدين دائما أحدا آخر من شعبها الآخر يجاورك. ومهما تفعلي فتأكدي من أنك لن تتخلصي من حملك ثقْلين متلازمين: الشعور بالضحية المزمن وتبكيت الجلاد المؤرِّق!».

كان كل شيء في گولدا قد تحرك إذ دارت حول نفسها دورة كاملة وكرمشت منديلها في يدها - كنت أتخيل ذلك.

«ابق أنت ومن معك من التوشاڤيم!

- لأنكم أشكيناز فأنتم تعتقدون أنفسكم مثل الأوروبيين! فقط لأنكم لبستم لباسهم وتعودتم عاداتهم!».

فمسحت على جبهتها المتعرقة. وتنفست. واضطربت.

وقالت:

«أجدادك قبلك لبسوا العباية والبرنوس والحفّاظ وصبّاط زيطْ زيطْ مثل الأنديجان، وغنوا غناءهم، وتكلّموا لغتهم. وفتلوا الكسكس وأكلوه بأيديهم مثلهم قبل أن يعرفوا الملاعق!

- لأنهم من أهل هذه الأرض.
- لا تنس أن تستصدر لك بطاقة تعريف جديدة من دائرة دولة الأنديجان الجديدة!
- گولدا!
- أنا راحلة!».
وأنهى، متجنبا النظر إلي.
«كان يجب ألاّ أعرفها».
ثم ركز مرفقيه على الطاولة، شابكا أصابع يديه مسندا عليهما ذقنه، شارد الذهن.
كنت أتصور حاييم في لحظة صمته الذابح وهو يتابع گولدا تغادره. نقرتُ على الطاولة.
«حاييم. أسقطْ عنك هذا القناع!».
فانتبه إلي، فاكا أصابعه، على ابتسامة مجهَضة.
«لكن روحي، يا أرسلان، روحي!
- أعرف روحك الحقيقيّة الجميلة.
- الجميل أنت. ما أكرمك!»، رد.
واستأذن، قائما. وشعرت أنّه يضغط انفعاله إلى داخله. رافقته إلى خارج الحوش. وعلى الرصيف، في سكون الليلة المقمرة، شدَدت على يده.
«إنها الحياة يا حاييم تبغي لنا أحيانا أن نتألم من غير أن نكون اقترفنا ما يوجب ذلك.
- لتبتلينا. لتبتلينا يا أرسلان!».

وقد فككت عن يده.

«تعرف يا حاييم؟ أحن إلى جلسة في سقيفة ملعب الكرة الحديدية.

- وأنا أيضا.

- سيكون ذلك ممتعا.

- نبرمجها لعشية سبت.

- ليكن!

- شكرا على العشاء.

- العفو. ليلة سعيدة».

ليومين كاملين، الخميس والجمعة، من نهاية سبتمبر ذاك، وهي نهاية مؤذنة بخريف كان كعادته يرسل طلائعه رعودا وبروقا ورياحا جنوبية محملة بالأتربة وروائح الشيح، لم تكن السماء أقلعت عن المدينة إلا بعد أن طرقت سيولُها السقوف القرميدية طرقا. ونظفت الشوارع والحجر والشجر حتّى تشجأت البالوعات. وجُرِف ما خف من المرميات نحو الوادي في المنخفض.

ويوم السبت، انتشر الناس في المدينة كالنمل فامتلأت بهم الطرقاتُ والساحات والمقاهي والحديقة العمومية نفسها في ما بعد الزوال الذي كنا خلاله أنا وحاييم قد جلسنا، كما تواعدنا، تحت ظلة القصب في سقيفة حانة ملعب الكرة الحديدية بجانب محطة القطار.

وبسبب ما لا بدّ أنّنا شممناه من حولنا بفعل ما خلفته تلك السيول من روائح التربة الممتزجة بأنفاس أشجار الأوكالبتوس والصنوبر المحيطة، شعرنا بانتشاء مبكر منذ الكؤوس الأولى التي تناولناها، على خلفية غناء متواصل، منبعث من مكبريْ صوت معلقين في المدخل وفي الخلف، يتجدد بتغيير أسطوانات الخمس والأربعين لفة لأشهر الفنانين الأوروبيين والأمريكيين، دون أن يغطي ذلك تماما على أصوات الزبائن الآخرين المرتفعة بين حين وحين من هذه الطاولة أو تلك بضحكات أو قهقهات - ما ذكرني بأنفاس شجرة

الأوكالبتوس أن زليخة التي دخلت قبل لحظات المكتبة فوضعت لي فنجان القهوة وأخذت رواية جديدة لتبدأ قراءتها في هذه الليلة وقد عطستْ عطستين كانت هي مَن حرصت لما كنا سنعود إلى وهران هنا بعد عطلة الخريف على أن نأخذ معنا أغصانا من تلك الشجرة الكريمة الصامتة لاستعمالها شتاء في مقاومة الزكام وتطهير فضاء البيت من الجراثيم.

كنّا، أنا وحاييم، قد رفعنا كأسينا نخْبَ المدينة التي بدت لي، ونحن ننزل من حي الدرب راجليْن نخو المحطة، كأن كآبة شاملة طالت منها أبوابا ونوافذ ومداخل كانت تفتحها وتغلقها أيادٍ أخرى، على أنفاس أخرى. عبّرت عن ذلك لحاييم. وافترضت له أن المشهد كان سيبدو جميلا ورائعا لو أن من كانوا فيها من الأوروبيين، قبل عامين، يختلطون، الآن، بأولئك المواطنين الذين كنا نمشي وسطهم، يتقاسمون الشارع نفسه والفضاء. ويتبادلون التحيات ونظرات السلام - كنت عبّرت لزليخة عن تعجّبي من حال المدينة ونحن نعبُر وسطها في سيارتنا نحو مخرجها الشمالي في اتجاه وهران للالتحاق بدار المعلمين أول مرة كيف أمست تبدو كاسفة بعد الحرب فردت بأن المدن تشبه النساء أحيانا في إحساسهن بقسوة الهجر.

«وها هو الْمعلّم بوعَمرة خلَف في هذه الحانة صاحبَها مارسيلو، والنادل بِيزّة يتحرك مكان رودريگو»، قال حاييم إذ قرعنا الكأسين.

بعد حين، وقف علينا بِيزّة في السترة الخضراء وربطة الفراشة الحمراء والقميص الأبيض. فحيّا ووضع لنا دورة من البيرة، لم نكن طلبناها بعد، مرفقة بصحن مكسرات صغير وآخر كبير من السردين

المشوية والمعدنوس والليمون والزيتون. ثم طأطأ وهمس أنها من عند مسْيو موريس پيريه! فألقيت نظرة سريعة على طاولات هنا وهناك يحتلها زبائن لم أعاين بينهم أي أوروبي. وسألت بِيزّة إن كان مسْيو موريس في الداخل.

«المواطن غادر قبل لحظات»، قال.

وانتقل إلى طاولة أخرى، مخلفا في آذاننا وقْع كلمة المواطن. كلمة، مثل غيرها من كلمات ما بعد الحرب، كانت دخلت قاموس اللغة الجديدة - هي وكلمة الحرية أمسى وقعهما اليوم يَضمُر بعد أن كانتا هما ما يتحرك به لسان من فخامة وينفعل له وجدان.

«لا أعرف السيد موريس»، قلت لحاييم.

فرد أنه هو يعرفني. فسألته من يكون. فأجاب بأنه ابن نقابي عامل في شركة السكك الحديدية.

وأنا وإن كنت عرفت، كما أطلعني حاييم، أن السيد موريس اشتغل ممرضا في عيادة الطبيب ستيفانيني - ذاك الذي ألقي عليه القبض خلال الحرب وحكم عليه بالسجن عشرين سنة نافذة بتهمة تقديم العون لجماعة إرهابية في المدينة ومساندة الفلاگة - فإني كنت أجهل أنه هو الذي عالج زليخة ورتق جرحها في تلك الليلة. وهو الذي أشرف على تمريض والدتي في بيت جدتي إثر جلطتها الدماغية قبل أن تنقل في أيامها الأخيرة إلى مزرعتنا.

عبّرت لحاييم عن تعجّبي من ذلك كله. فرد:

«موريس، بالرغم من كونه من إحدى عائلات الأقدام السوداء، عاش قريبا جدا من الأهالي، مثله مثل والده الذي كان يدافع أيضا عن

العمال، خلافا لما كان يفعله الأوروبيون والأقدام السوداء، ليتمتعوا بالحقوق نفسها».

فسألته ماذا يعمل الآن. فأخبرني بأنّه يتوقّع أن ينتقل إلى وهران بعد مغادرة الطبيب ستيفانيني إلى مدينة الجزائر العاصمة.

«مستشفى المدينة هنا بحاجة إلى خدمات ممرض مثله. هل يمكن الاتصال به؟

– لا أعتقد أنه سيوافق. خطيبته ممرضة مثله وتشتغل في مستشفى وهران. وهما سيتزوجان قريبا»، أجاب حاييم.

وعصر نصف الليمونة على السردين – استجابة لنشاط غدتي اللعابية سأقترح على زليخة حين ألتحق بها في السرير أن نتغدى غدا السبت في أحد مطاعم الميناء المتخصصة في السمك.

كلٌّ مِن جانبه، أنا كما حايم، راح يتناول بأصابعه حبة السردين تلو الأخرى. يقطع رأسها. ويفلقها فلقين، فاصلا هيكلها الشوكي. وبين مضغة وأخرى يلقم، بشهية والتذاذ، حبة زيتون. أو يقضم عسلوج معدنوس. ولكن، ما الذي كان صعد إلى رأسي، وقد أتينا على ثلثي الصحن، كي أقترح على حاييم خوض جولة في الكرة الحديدية فينظرَ إلي نظرة استغراب سرعان ما أعقبها بابتسامة! فقد حذرني من أنه سيربحني. فراهنته على دورة شراب. ثم قمنا إلى المغسلة ومنها إلى الملعب الملحق بالحانة.

طبعا! كان ستور في ذهني ذكرى الشاب علي إذ وقفنا في الميدان الذي ألقى فيه، قبل سبعة أعوام، قنبلة. كان منتصبا، بوجهه الطفولي الصارم، خلف سياج السلك على رصيف نهاية شارع كُمْبيطة إلى اليمين

نزولا، بينما كان جنود من اللفيف الأجنبي يخوضون مباراة، وقد قدّر المسافة، مثبتا القنبلة في كفه اليمنى، جاذبا حلقة المسمار بشِماله، رافعا ذراعه، راميا في شكل قوس، فارتفع صوت من الملعب «حذارِ! قنبلة» فانبطح الجميع، وانتشر الهلع، لدوي الانفجار، بين مَن هم داخل الحانة أيضا. في الأثناء، كان صوت رصاص شبّ خلف علي وهو يقطع معبر السكة الحديدية.

«هيئته، ملامحه، صوته، كل شيء فيه كان ينبئ بأنه جاء إلى هذه الدنيا ليستشهد»، قلت.

«لنكون نحن هذه اللحظةَ في هذا المكان نفسه أحرارا»، رد حاييم ناظرا نحو الشارع من خلف السياج، وقد ارتفعت صافرة قطار من خلفنا.

«كم كان أنيقا مثل عريس!»، قلت أتخيل الشاب علي وهو يمشي بين جلاديه في رواق الموت نحو المقصلة.

بين رمية وأخرى، وخلال حساب المسافات بين الكرات والبولينغ، بعثرنا كثيرا من ذكرياتنا الأخرى عن المدينة؛ عمن كانوا تركوا بصمة أو أثرا لدى مرورهم بها، عن الأمير عبد القادر والجنرال بيجو، وعن كاتب شهير* طالما ولعت به لاكتشافي، في إحدى مطالعاتي الصيفية، أن قدميه، في عشرينيات القرن التاسع عشر الأخيرة، كانتا وطئتا منطقة اليعقوبية، خلال عبوره نحو السهوب بحثا عن المرابط بوعمامة قائد الأهالي ضد الغزو.

نقل حاييم الكرة الحديدية إلى شِماله، مستقيما، فتابعته وفي ظني أنه سيجرب رمية بتلك اليد، تحديا لي. ولكنه فاجأني، من يمناه،

* گي دو موپاسان.

بأداء تحية عسكرية. وبنبرة رسمية قدم لي نفسَه بصفته الحارس بباب المدينة الغربي الذي كان، مثل بابها الشرقي، خشبيا ضخما من مصراعين يُغلَق ليلا من الداخل بمزاليج معدنية ويفتح فجرا.

«وأنا من فتح لكاتبك. وقدمت له تحية كهذه وسط فرقة من الزُّواڤ*. وقضيت الليل واقفا عند بابه حارسا أسمع كوابيسه لمعاناته من رعب الذئاب، يا سيدي!»، أضاف حاييم مهربا عينيه عن عيني كابحا ضحكته.

فأصدرت إليه، بلهجة عريف، أمرا:

«استاااارحْ!».

فنفّذ. ولكننا انفجرنا مقهقهين.

كان عليَّ أن أثبّت قدمَيّ وسط الدائرة لأرمي، بحركة مستقيمة، كرتي التي تابعها حاييم إلى أن استقرت قريبا من الهدف. وتقدم فقاس مسافتها من البولينغ.

وحين رجع، ذكّرته بأنه كان ذات يوم كلما أَسمعته مقاطع من قصص كاتبي الغرامية ألحّ في أن أعيدها عليه. حدث ذلك خلال إحدى عطلنا الصيفية في حوش جدتي ربيعة، ونحن جالسان تحت ظل الدالية. فاعترف بأنها كانت مثيرة. وتعجب، بكيد، كيف لا تكون كذلك في مدينة صغيرة مثل سعيدة يُرى، في حرارة صيفها، الشيطان نفسُه امرأةً تتعرى!

«يا لك من تقيّ داعر!»، قلت بخداع.

«لأنك أنت شيخي الذي علمني العادة»، رد حاييم ضاحكا.

* فرقة عسكرية أسسها الأتراك في الجزائر وأبقى عليها الجيش الفرنسي بعد الاحتلال. كانت تلبس الزي التقليدي وتتميز بالقسوة.

لكني ذكرت لحاييم، ونحن نقف عند دائرة الرمي، بكلّ ما حمّلت نبرتي من جدية، أنه لم يرُقْ لي أبدا أن يقول كاتبي عن مدينتنا، على الرّغم من ولعي به، إنه ما إن يجن الليل فيغلق باب معسكرْ إلى الغرب وباب تْيارتْ إلى الشرق حتى تنتشر حول سورها قطعانٌ من الذئاب يُسمَع لها عواء متضوّر تقشعر له الأجساد لا ينقطع إلا مع طلوع الفجر.

«لذلك لم تستهوني استعاراته في كتاباته عن هذا البلد، لاتخاذه حياة الأهالي المقذوفين إلى الفراغ حبكةً لقصصه وكأن استكانتهم قدَر يلازمهم»، رد حاييم بجدّية أكبر.

واستعدنا ما كنا نثيره لبعضنا من نقاش، في الجامعة، حول المرأة والجنس كما طالعنا ذلك أو شاهدناه عند كتاب ومستشرقين وفنانين لم ينقلوا فقط عن نساء البلد استعراض أجسادهن نصف العارية في الحمامات أو العارية في البيوت المغلقة، وكأنْ لا شيء خلقن له غير تحصيل اللذة لغيرهن، لكنّهم نقلوا عن المرأة الشرقية أيضا.

وبين رميتين، تفاكهنا، فذكّرت حاييم بألاّ ينسى أن التاريخ الذي عُلِّمناه في ثانوية معسكر كان يوهمنا بأننا من سلالة الگُولْوَا. وعليه، فنحن بالمنطق أحفاد كاتبنا! فطمأنني، بمكره، على أننا كذلك. وقال إنه لن ينسى أيضا أن فانْسان جيتوريكس هو أبونا الأول! فضحكنا.

ثم إن حاييم مسح كرته وحركها في كفه، مقدرا قوة الدفع، مثبّتا قدميه. وأحنى قليلا، قالبا كفه إلى الداخل، فسوّى ذراعه بساقه. وفي حركة متناسقة، تراجعت ذراعه اليسرى إلى الخلف بالقدر الذي تقدمت به ذراعه اليمنى وهو يلقي كرته التي تابعتها إلى أن توقفت على مسافة متساوية مع كرتي في قربهما من البولينغ.

«تعادل»، قلت.

«تماما!

– دفْع رهان دورة الشراب مؤجل إذًا».

كان أصيلا باهرا بألوانه الخريفية النحاسية ذاك الذي غادرْنا خلاله. فتمشينا بلا وجهة محددة في جو منعش زادته بهجةً حركةُ الناس النشطة الآمنة، كما صار ذلك دأبا في عشايا كل سبت. وبشارع الحادي عشر نوفمبر، قرْب معمل تعبئة الجعة، على الرصيف المقابل، وقفنا أمام ما تبقي من بناية مسرح المدينة. كانت فاغرة بلا روح على سماء بلا وجه. هناك، وفي تلك اللحظة، روى لي حاييم:

«ليلتها، أيقظتني قوة الانفجار فأحسست باب الغرفة والنافذة اهتزا وسريري ماد بي فأشعلت الضوء. كانت الساعة في المنبه الثانيةَ عشرة ودقائق. استبعدت أن يكون الدوي ناتجا عن عمل فدائي. وانصرف تفكيري سريعا إلى المنظمة المسلحة السرية. فقبل ساعات كنت استمعت من الراديو إلى أخبار تفجيراتها في مدينتي وهران والجزائر. وفكّرت أن يكون الهدف إحدى البنايات الرسمية أو بيت أحد الأهالي لكنّي لم أفكّر أنّه قد يكون المسرح. في الصباح، وأنا أقف مع بعض الفضوليين من الأوروبيين، كما نحن الآن، هالني منظر الخراب: السقف، مثلما تشاهد، هارٍ والأبواب الثلاثة مبعوجة ونوافذ الشرفات الثلاث منسوفة وجدران الأطراف متصدعة وشظايا الزجاج والخشب والجبس والحجارة وقطع الحديد تملأ الطريق وبقايا أوراق طماها الغبار. ولا شيء في الداخل غير الفراغ العاوي. كان مشهدا مؤلما حد البكاء على تحفة نادرة كهذه تذهب أدراج الحقد!».

في أثناء ذلك، كنت ممعنا نظري في جرح الحجر فحسْب. ثم مررنا، جنبا إلى جنب ساكتين، بمحطة إيصّو للوقود وكانت مغلقة ومضخاتها تبدو مثل مومياوات واقفة بلا أذرع. وعرّجنا يمينا على معصرة لاسْكارْ للعنب فغزت أنفَينا رائحةٌ خَلّية؛ لأثَرها تمهلت، قائلا إني أجدها وحدها تحقق نشوة لمن هم في الجوار على شعاع مائتي متر من المركز - لقد خفّت تلك الرائحة اليوم قليلا لأن أعناب المنطقة لم تعد تعصر في المدينة.

وأضفت، كأني أحدث نفسي، ولكن بصوت مرتفع، حتى يتنبه إلي حاييم:

«عجيب! كلما تعتق صار ألذ!

- لأنه لا يبقى من العنب إلا روحه، مثل الإنسان بعد موته!

- صديقي حاييم! حتى في مثل هذه الأشياء؟

- أحدس سؤالك الذي يدور في ذهنك!

- كما أعرف أنا جوابك عنه!».

وبعد أمتار، جنبا إلى جنب:

«حاييم! ألا ترى أنه مهما تكن درجة يقيننا أو شكنا في نعيم هناك فإن هذه الحياة برغم محنها ومفارقاتها تبقى أجمل وأمتع. ولذا نشعر بالحسرة كلما تذكرنا أننا سنغادرها يوما.

- إنه إحساسي!».

فقد بدا شارع النخيل، إذ دخلناه هادئا، لبعده قليلا عن مركز المدينة. لا حركة فيه لافتة إلا بعض الأطفال يلعبون، وامرأة أو أخرى تمر، أو رجل يقعد أمام باب وآخر يتحدث إلى غيره على الرصيف. كما السيارات فيه تكاد تنعدم إلاّ واحدة هناك مركونة، ونوافذ بيوت،

كان يسكنها أقدام سوداء وأوروبيون، صارت الآن مشرعة المصاريع. ذلك، فيما كانت رائحة الحموضة قد تلاشت فخلّفتها روائح تراب الخريف وأشجار الميموزا التي رافقتنا حتى سور لارودوتْ الذي ظهرت جهته الغربية مهدمة ومعها البيْعة في طور التفكيك - كان ذلك لتوسيع ثكنة اللفيف الأجنبي التي دخلها جيش التحرير.

مثل ناسك متوحد، وقف حاييم للحظات متأملا المشهد. فأمسكته من مرفقه وسألته، بلا نية مسبقة، أين سيذكر الله. فأدار إلي وجهه، بنظرة ملتبسة. وقال إنه لا يمكنه أن يقيم الشعائر لنفسه حتى لو كان رِبّيا. وساءلني عن الفائدة من بَيعة لم يعد لها مؤمنون، فيما مرت بذهني صور لبِيَعٍ شاهدتها يوم دعتني حسيبة إلى جولة في حي القصبة الذي يشبه متاهةً، ما كنت لأخرج منها بمفردي، لتداخل كل شيء فيه وتماثله وتجاوره بين سكانه من الأهالي مسلمين ويهودا بأبواب مساكنهم الواطئة ومحلاتهم التجارية وزنقاتهم الضيقة الحلزونيّة الصاعدة دائما النازلة دائما ومصلياتهم وبِيعهم جنبا إلى جنب ولهجتهم العربية الصافية وملابسهم التقليدية وصخبهم المؤنس وملامحهم المنبسطة وروائح مطاعمهم ومطابخهم العبقة ومقاهيهم الضاجة.

ثم تبسم وضرب براحته اليمنى ضربات خفيفة على جهة قلبي، مغمضا عينيه، كما في خشوع أثناء صلاة.

«هنا يجب أن يكون الله الذي نعرفه! أنت تعلم!».

فمن دارة نُصْب آنُومورْ، وكان يظهر في طور التفكيك، نزلنا عبر شارع إيزْلي الغاص بالمشاة، على رصيفيه وفي قارعته، العاجّ بأصواتهم ومنبهات سيارات في الاتجاهين. وغير بعيد عن قاعة سينما

بالاص، إلى اليمين، وقفنا أمام الصيدلية التي كانت آثار الحريق لا تزال بادية على جدارها الأمامي.

واضعا يدي في جيبي سروالي، بجانب حاييم، تأملت بقايا الخراب الصغير الذي كانت تشهد عليه كلمة «juif ...» المتبقية من عبارة مكتوبة، في ما بين الباب والواجهة، بلون أحمر ادَّكن من أثر الدخان. ثم تقدمت وأخرجت سكينا صغيرا مطويا ففتحته وخرطت الحروف الأربعة إلى أن انطمست.

«إنه آخر توقيع عنصري»، قلت.

وتراجعت فانتهت إلي زفرة حاييم. نظرت إليه بطرف. كان يعض على شفته السفلى، محركا رأسه - مثل درويش كان حاييم يقف على الرصيف المقابل مقهورا يتأمل المشهد الكارثي في صبيحة سبت حزين على رقصة ألسنة اللهب تلتهم ما بداخل الصيدلية وتبعثه مزيجا من روائح لا يصنع تركيبتها مَخبر.

«ما آلمني أكثر هو عبارتهم التي كانت حروفها تُشع وتخبو بين موجة لهب وأخرى»، قال حاييم.

ورفع وجهه إلى السماء ثم أداره نحوي، مجتثا لي ابتسامة.

«كان ذلك وكأنه مجرد كابوس!».

أخرجت من جيب سترتي منديلا. وتقدمت خطوتين إلى اللافتة المثبَّتة إلى شِمال الباب، وكانت من النحاس الأصفر. وطفقت أمسح الهباب العالق بمساحتها، فبرز في أعلاها رمز الثعبان الملتف على كأس هيجي، ربة الصحة، مميلا رأسه ليشرب. وفي أسفلها الحروف المحفورة بالأسود: حاييم بنميمون. دكتور في الصيدلة.

وتراجعت، فيما كان حاييم يمسح عينيه بمنديله.

«من يقول إن هذه الصيدلية آوت زليخة! ومنها أيضا خرجت تلك الكميات من الأدوية نحو الجبل»، قلت.

«زليخة كانت في تلك الليلة على ثقة مدهشة برغم جرحها وملاحقة الموت إياها. إنها امرأة استثنائية»، قال حاييم.

وهزني من مرفقي.

«لا بد أنك تحبها».

وسّعت عينَيّ، باحثا عن إجابة. ثم أدرت إليه وجهي وأخبرته، فحسْب، أني قررت طلب يدها من أمها. فشد على يدي، بحرارة.

«أسعد التمنيات!

– عقبى لك.

– آمين!».

للنبرة المنكسرة التي نطق بها حاييم رجاءه، أحسست أنه ما كان علي أن أثير شجنه. فقد سارعت، مشيرا بيدي إلى الواجهة المسْودة، قائلا إنه لن تكون سوى أيام حتى تعود الصيدلية إلى نشاطها. وهززته من يده.

«حاييم صديقي. ليس بيننا كلفة. أُقرضك منذ الغد المبلغ الذي تقدره ضروريا لإصلاح ما تلف وإعادة بعث نشاطك، لأن المدينة في حاجة إلى صيدليتك. لا أحب لك، في ظروف الخروج من الحرب التي يعرفها البلد، أن تنتظر مزيدا من الوقت أي تعويض قد لا يأتي وإن هو أتى فلن يكون إلا زهيدا».

فضغط قليلا على يدي، مقاوما رعشة، كتلك التي تسبق البكاء.

«أنت تعرف أنه ليس لي صديق سواك.

– سنكون كما كنا دوما لبعضنا».

يوم حضر حاييم مراسم عقد قراني على زليخة، في دار البلدية نفسها، كان مضى على إعادة فتح صيدليته عام. وكان ساعتَها على ألطف سحنة، في بدلة زرقاء غامقة بقميص بنفسجي فاتح وربطة عنق صفراء وحذاء بني، وكان يحمل باقة ورد قدمها لزليخة، بعد انتهاء المراسم في مكتب ضابط الحالة المدنية بحضور شاهدين أحدهما عثمان! وهنأها. وقال لها متظرّفا إنّها في أبهى زينة لها. كانت في تنورة زهرية إلى ما تحت الركبتين وقميص أصفر فاتح وحزام بني وحذاء أسود، بتسريحة مرسلة على الكتفين ومسواك، بدل الأحمر، في شفتيها - قبل أن أجلس إلى الطاولة منذ دقائق استعدت مع زليخة هنا في المكتبة تلك اللحظة الباهرة من ألبوم الصور الذي يأخذ له مكانا بين الكتب إلى جانب مصحف أمي.

والتفت إلي فصافحني وبارك لي باللهجة العربية، كما فعل في كل وضعية كانت زليخة فيها ثالثتَنا.

ثم ألقى عليّ، بابتهاج، نظرة من رأسي إلى قدمي.

«أما أنت فبهي الطلعة والهيئة!».

كنت في بدلة سوداء فاتحة بقميص أبيض وربطة عنق حمراء داكنة وحذاء أسود.

لقد جرى حفل الفاتحة في بيت السيدة غزالة. وترأسه فقيه من أصدقاء سي النضْري. هو الذي أشهد الحضور، بعد أن صرح بمبلغ الصداق وعدّد ما احتوت عليه الهدية من القطع الذهبية بناء على التراضي بين طرفي

الأهليْن، على أنه زوّجني، أنا أرسلان ولد المنوّر حنيفي، بالبِكر زليخة بنت المعطي النضْري، على كتاب الله وسنة رسوله. ورفع دعاء لنا بطول العشرة والذرية الصالحة، وللحاضرين بالعافية والسلام؛ بالرغم من أن العرف لا يجيز أن أحْضر الحفل بنفسي لو كان والدي لا يزال على قيد الحياة وإلا أُعتبر ذلك عدم رضا منه على الزواج كله.

ثم ختم بقراءة جماعيّة لسورة الفاتحة التي رددتها مع المرددين منصرف الذهن إلى حاييم بجانبي صامتا في خشوع؛ لا أحد سواه يعلم ما يدور في خلده إلا أن يكون، مثلما احتملت، قد تذكّر حضورَه مراسمَ عقْد قران من أقارب لوالديه، في سعيدة أو في جيريڤيلْ، وجد طبيعتها لا تختلف كثيرا عما كان يشاهده.

فمع ضيوف من العائلتين ومن الجيران تناولنا أنا وحاييم غداء، كلّفته كلها على حسابي كما تقتضيه العادة، كان من التمر بالحليب، ومن المشوي من لحم الضأن، وسفّة الكسكس بالزبيب والرائب، ثم الشاي بالنعناع والكاوْكاوْ المحمص.

إن أذكر أن حاييم كان ضيفي للعشاء في بيتي فإني لا أنسى أن طقم الملاعق والشوَك والسكاكين من الفضة الخالصة، ذاك الذي قدمه لي هدية في تلك الليلة، كان من الأشياء الثمينة التي حملناها، أنا وزليخة، إلى هنا في وهران.

وفي الأسبوع الذي تلا، وقد زين حاييم سيارته المكشوفة بالورد والحواشي، ركبت إلى الخلف في بدلة العريس ذات اللون الأزرق السماوي وبجانبي زليخة في عباءة العروس البيضاء في كامل الفخامة والمزاج الرائق، التفت إلينا مبتهجا.

«أميرتي! أميري! وزيركما في الخدمة!».

ثم أقلع من أمام باب بيت عائلة العروس في حي لامارين، يتقدم، كما هو المألوف في الأعراس الحضرية، موكبَ السيارات على طول الطريق من المدينة حتى مدخل مزرعة العائلة حيث اصطف الخيالة صفين وأطلقوا طلقات بارود متتالية من أولهم إلى آخرهم عند مرور السيارة، احتفاء بنا نحن العروسين. وكنا، أنا وزليخة، ما إن نزلنا حتى غمرتنا الزغاريد وروائح العطور والأطايب.

كان كل شيء، كما تمنيته أن يُسعد والديّ في قبريهما، قد تجلى لي على أُبّهةٍ فخما، متناسقا وأصيلا؛ فلم يكن ليُريب عينا في أن من أشرف على ذلك هو عثمان الذي انحنى، في ثياب الخدم التقليدية، ثم أفسح لنا الطريق إلى الحجُرات.

إنها عادة عثمان، وقد اكتسبها من صرامة والدي، أن يتحرك بهيئة شيفْ ومهارته وانضباطه، في كل اتجاه له علاقة بالمهمة التي كلف بها. وذلك، لا ليقدم للضيوف انطباعا عن مكانة آل حنيفي، فحسْب، ولكن ليذكّرهم أيضا بأنهم في حضرة سيد «كان أول من دخل الجامعة من أبناء الأهالي المسلمين وأوحدهم في المنطقة كلها، في زمن الاحتلال. واختار بين أن يصير أستاذا أو يتجنس ليشغل وظيفة كبيرة، أن يرفع سلاح المقاومة» مثلما حدّث زوجته ليلا، وهما يضعان خطة تحضير الغداء؛ وأعادها علي إذ طلبتُه في حجرة الجلوس. وسألته إن كان كل شيء يتم كما أوصيته به قبل أسبوع. فطمأنني بأنه حريص على أن يشرّف روحَي المرحومين سيده المنوّر ولالاه تركية.

وفي ما يشبه التقرير، فصّل لي أنه أصدر منذ أول الصباح الأوامرَ والنصائح والتنبيهات، وبعض التوبيخات أيضا، إلى عشرين خادما وخادمة استقدمهم لتحضير المأدبة الكبرى. فكلف من النساء من فتلن الكسكس وفوّرنه في كساكيس من الحلفاء على بخار قدور من معدن لافونت، وكلّف من عجنَّ خبز المطلوع وأنضجنه ودلَّكْن المسمّن وقلينه، ومن أشرفن على تحضير الحريرة، ومن الرجال من قاموا بشواء واحد وعشرين خروفا وإعداد سفافيد ملفوف الكبد، في باحة المزرعة، على جمر حطب الفرْنان ونبات الشيح. فانتشرت رائحة ذلك في أرجاء المزرعة.

وأخبرني بأنه تم ملء خمس جِرار من سمن النعاج ومثلها من العسل المصفى، وتهيئة موائد دائرية وأواني شراب نحاسية للحليب والرائب، وأطباق من نبات الدوم للتمر والزبيب والمسمّن والخبز، وصينيات من مختلف السعات، وغرْفيات وصحون من الخزف، وأكواب بلورية، وملاعق -من غير سكاكين ولا شُوك- وأباريق من الفضة، وكؤوس مذهبة للشاي؛ عدّها كلها عدا وراقبها قطعةً قطعة.

وكما تقتضيه لياقة العرف، وقفت في مدخل الخيمة الوبرية الكبرى المضروبة في حوش المزرعة، المطيَّبة بعود القماري، المفروشة بزَرابِ حمراء ووسائد مرقشة، فتلقيت تهاني الضيوف الذين كانوا، مثلي أنا وحاييم، بعد أن نزعنا عنا بدلتينا العصريتين، في ملابس تقليدية فاخرة: عمائم توتية صفراء وبرانيس وبر وعباءات تيصورْ وأقمصة حريرية وأحذية جلدية من نوع البوسكالي أيضا. جلسوا، متقابلين على طولي الخيمة فيما تصدرتُ طرفها الأقصى، وعلى يميني حاييم.

لم أكن حركت يدا ولا عينا نحو عثمان، من أجل البدء في تقديم الغداء، ليدخل سبعة خدم في طرابيش وعباءات حمراء بأحزمة صفراء. قدّموا، لغسل الأيادي، صابونا معطرا وأباريق ومغاسل نحاسية ومناشف قطنية. وعلى الموائد، التي من حول كل واحدة تَحلق أربعة ضيوف، أخذوا لا يرفعون طبقا إلا وضعوا غيره مما حُضّر من الأطعمة والأشربة؛ على سريان أحاديث، همسا أو جهرا بانشراح وابتهاج، لم تخرج عن موسم الحصاد وأيام الحرب والاستقلال.

عقب القيلولة، كنا أنا وحاييم قد أنهينا تهيئة الحصانين في الإسطبل بربط السرجين لخوض جولة البارود الشرفية.

«يا لَهذه الأناقة والمهابة! أنت سلطان فعلا»، قال حاييم ملاطفا.

«وأنت الفارس يا حاييم»، ردَدت غامزا.

حتى إذا ظهرتُ، بالعمامة والبرنوس، ممتطيا حصان والدي بسرجه المطرز بخيوط مذهبة وركابيه الفضيين حاملا بندقيته من نوع الزويجة، ارتفعت لي، بطلقة بارود مشتركة، تحية الخيالة الذين انضم إليهم حاييم على حصاني الشخصي ببندقيتي. إثرها، تقدمتُهم. فاصطفّوا من خلفي بالعرض، على خيول عربية مسرجة، في ألبستهم التقليدية وبنادقهم المشهَرة، ككتيبة من كتائب الأمير.

عند خط الانطلاق، حيث وقف الضيوف على جانب من المضمار، كما وقف المتوافدون من الجوار رجالا وأطفالا ونساء على الجانب الآخر، رفعت بندقيتي بيمناي إلى أعلى، ممسكا اللجام بشِمالي. ثم صوبتها إلى الأمام وهمزت الحصان بالركابين، مرخيا له فحمحم مثيرا التراب بحافريه الأماميين كأنّه في تأهب لهجوم تراعدت له الخيول

خلفي على صكصكة حديد ألجمتها بين أسنانها – شاهدت ذلك من والدي يوم حفل نجاحي في البكالوريا إذ أخذتني مثل الواقفين على الجانبين هبّةُ الفرسان متراصين في خط واحد بالعرض على إيقاع وصفْن مدهشيْن وقد قدحت الحوافر قدحا وانبعثت الأنفاس انبعاثا ثم عُطِّفت الألجمة على مقابض السروج وأُمسكت البنادق باليدين في تصويب نحو هدف لا يُرى إلا في ذهن كل فارس.

وفي ذروة الركض لم أر بين عينَيّ سوى طيف زليخة حجب بيني وبينها شبحٌ صوّبت نحوه قرب نهاية المضمار وصحت، عاليا، مثلما كان والدي صاح يوما.

«المكاحَلْ* يا رجال!».

وكبست فدوت من خلفي طلقات الفرسان جميعا في تزامن مذهل؛ لكأنها طلقة واحدة من بندقية واحدة!

كان تصفيق الواقفين على الجانبين، وقد خرقته الزغاريد، لا يزال متواصلا، إذ لجمتُ الحصان واستدرت، بإحساس نشوةٍ كتلك التي تلذّذتها مع سيلين – ولكن لماذا أذكر هذا الآن وزليخة في السرير؟

وكان الفرسان من خلفي، كما كان حاييم سيصف لي، يظهرون في أعلى درجات الابتهاج راجعين إلى نقطة الانطلاق يتهزهزون في خبب، بينما كنت أتخيلني في مرج من شقائق النعمان أردف زليخة تطوق خصري.

على حصانينا، أنا وإياه، تابعنا عند بداية المضمار الفرق الثلاث التي تشكلت، يتقدم كلَّ واحدة قائد، تتناوب على الهبّات الأكثر انسجاما خلال

* جمع مُكَحْلة: بندقية.

الركض والصيحة الأعلى والطلقات المتزامنة، تحت التصفيق والزغاريد. تَواصل ذلك حتى المغيب الذي آذن بالرجوع إلى الخيمة حيث تناول الضيوف الشاي بالمسمّن والعسل قبل أن يغادروا، بمن فيهم حاييم الذي شيعتُه مثلهم كما سبق أن استقبلتهم.

كانت لحظةً من نعيمٍ تلك التي وجدت فيها نفسي أخيرا وحدي في حجرتي فتحممت وتعطّرت متوهما في الأثناء زليخة تتابع كل حركة من حركاتي. وعلى الجلد لبست قميصا أبيض من الحرير يصل حد الركبتين؛ فوقه رميت، كما يقتضيه العرف، برنوسا أبيض رقيقا من الصوف؛ هو ذاته الذي كان والدي قد لبسه ليلة عرسه.

كلا! لا يمكن أن تتكرر تلك الحال الأولى في حياتك التي تتتابك قبل الدخول على عروسك حتى ولو عاودت الزواج سبعين مرة. أحسست ذلك، وأنا لا أجد له كلمات تشرحه، إذ رأيت زليخة في حجرة حجْبتها جالسة كأميرة على الزربية الحمراء بمساند من لونها. كانت على أبهى صورة تخيلتها لها. بلا حُلي سوى زينة نَدية فاتنة بآثار المسواك على شفتيها. على يمينها، في ركني الغرفة المغطاة جدرانها بالقطيفة الحمراء، شمعدانان نحاسيان منيران. وعلى شِمالها فراش من حرير أبيض بوسادتين. وأمامها، غير بعيد، مائدة دائرية عليها صينية شاي وصحون صغيرة من المكسرات وشهد العسل، وسلة صغيرة من الفواكه الموسمية لنهاية ذلك الصيف، وطبق مرقوم من نبات الحلْفاء فيه سفافيد من ملفوف الكبد، وإناء ماء زجاجي وكوبان بلوريان. وعلى صوان في الركن الثالث فونوغراف وأسطوانات في أغلفتها من لفتي خمس وأربعين وثلاث وثلاثين. وعلى صوان آخر في الركن الرابع فانوس نحاسي ضخم

من تخريماته ينبع نور خافت. وفوق مرفع الكانون الرخامي صورتانا المكبرتان في بروازين مذهّبين؛ ذلك ما كانت زوجة عثمان، الوزيرة، حضّرته ونسّقته بذوق.

أشعر بسعادة سلسة عابرة، ولكن لذيذة حين أستعيد، كما الآن، استجابة زليخة لي بكبرياءٍ نبيلة، إذ أخذتها من يدها، قائمة في غلالة بيضاء من حرير وشِرْعة نزعتها عنها، في صمت، مستنشقا عبيرها. وفي صمت، مسدلة رمشيها، أدخلتْ أصابع يديها تحت برنوسي، عند كتفَي، وألقته إلى الخلف، على لمعة برق، اخترقت زجاج النافذتين، وهزيم الرعد، إيذانا بحلول فصل الأمطار.

7

يوم للخيبة. يوم للرحيل

إذا كان هناك شيء أسترجعه أكثر من غيره، مما آلمني في السنة الثانية التي تلت يوم الاستقلال، أي قبل عامين فقط، وقد وضعت لي زليخة منذ قليل هنا في المكتبة فنجان القهوة وانصرفتْ، فهو صدامي مع ممثل الجهاز السياسي، وهو ما كاد يؤدي بي إلى الانهيار في بداية شهر مايو ذاك، ولم أكن قد عرفت خلال مارسْ وأڤريل اللذين سبقاه راحة ولا استراحة.

فقد قضيت عطلي الأسبوعية نفسها في مكتبي بالبلدية، عاكفا أنا وحاييم على ملفات الأملاك الشاغرة، للتحقُّق من أنّ أصحابها من الأقدام السوداء والأوروبيين قد غادروها نهائيا، ولرصْد أسماء الأشخاص الذين استولوا على بعض تلك الأملاك، وتفقد حال المزارع بمعداتها وأنعامها ومخازنها التي خلّفها الكولون -وقتها عاينت أن الخنازير في حظائر تلك المزارع وغيرها أبيدت بمختلف الأسلحة والحرق إبادة مبرمة- وكذا حضّرنا لدخول مدرسي بدا، كما تدارسنا ذلك، سيكون صعبا وأكثر تعقيدا مما سبقه؛ نظرا إلى أعداد المسجلين المتزايدة من الأطفال الذين بلغوا سن التمدرس بالقياس إلى قلة المدارس والمعلمين. ونظرنا في إعادة بعث نشاط المصالح التقنية والمالية التابعة للبلدية، وتأطير مستشفى المدينة الذي قدم عنه حاييم خطة لجلب أطباء وممرضين جدد ممن كانوا في نَواحٍ أخرى ضمن السلك الطبي التابع لجيش التحرير.

وكنت أبديت لحاييم تخوّفي من أن الوقت سيدركنا، ونحن لم نركّب بعد حصيلة إجراءات لاقتراحها في اجتماع هيئة العمالة*. فطمأنني على أنه لا يزال أمامنا لذلك يوم آخر لنكون في الموعد - يلازمني شعور بالحسرة على أن حرب التحرير لم تكن وحدها التي نَمّت خميرة العبثية كما الشّأن في جميع الحروب ولكن أيضا اليد التي ترعاها الآن منذ أربعة أعوام.

وفي الثاني من شهر مايو كان علي أن أقدم، أمام هيئة العمالة التي ترأسها بدلَ عاملها مسؤولٌ سياسي عائد من وراء الحدود الغربية غداة إعلان الاستقلال سبق أن نصّبني مفوضا للبلدية، حصيلةً لم أكن أتوقع أن تخلّف في نفوس الحاضرين بقاعة الاجتماعات ارتباكا، لهول الفراغ الكبير الذي بدا سده في وقت قصير أمرا مستحيلا، انطبع على ردودهم في المناقشة المحتدمة التي رفع خلالها المسؤول السياسي يديه معا من أعلى المنصة، وعلى يمينه عامل العمالة وعلى شِماله مساعداه. وطلب الهدوء. ثم راح يرطن رطنا عن تحويل ج.ت.و. إلى حزب خلال مؤتمرها المنعقد قبل أسابيع.

«وإنه لمن دواعي سعادتي ومن عظيم الشرف لي أن أكون مسؤوله في هذه العمالة»، ختم يحدجني بنظرة تحذير.

للكِ أن تتصوري لغة مسؤول جهاز سياسي يطمْئن بها من يراهم، أسفل منصته، صبيانا على أنْ ليس هناك ما يدعو إلى القلق لأن ما صدر من مفوض بلدية مثلي مجرد تقرير ما دام هو يحمل في ذهنه نموذجا لتقارير على المقاس تُرفع إلى هيئته العليا. قلت مثل هذا

* التي تسمى اليوم ولاية في التقسيم الإداري.

لزليخة لَما عُدت من الاجتماع إلى البيت، وكنت على حال من الكآبة والانسداد لا أُحسَد عليها.

وماذا كنت تنتظر من سياسة لا تتأسس على واقع حقيقي مرير وقاسٍ ولا تقوم على غير العبثية، قال لي حاييم غداة ذلك الاجتماع إذ مررت به في صيدليته لأخذ مسكّنات لأوجاعي واصفا له ما كان جرى بيني وبين المسؤول السياسي بأنّه أمر عبثي، إذ انتفض في وجهي، وهو يكاد ينهض من كرسيه، لأني أجبته بأن تصورات الحزب للمرحلة مجرد نوايا قاصرة، وأن كل شيء سيؤول إلى الفشل إذا لم تسنَد المسؤوليات إلى الكفاءات.

وكان مسؤول الحزب -كما أصبح يسمى الآن- قد ضحك مِلء شدقيه حتّى بدت لي ضحكته تكشيرةَ ضبع. ثم مدّ ذقنه نحوي وسط الصف الأمامي بين الحاضرين من التقنيين والإداريين، أسفل المنصة.

«هل فشلنا أيها السيد المفوض في حربنا؟

- الأمر يختلف.

- لا! لا اختلاف. فنحن أدرى».

ما كان أفظع الإحساس الذي دهمني فأراني نفسي في الجبل وقد وجهتُ بعقب مسدسي ضربة شديدة إلى فم مسؤول الحزب فتناثرت أسنانه دامية! قد أكون لذلك قمت من مقعدي والتفت يمينا وشِمالا، ثم إلى المنصة. إني الآن لا أشك في أني نطقت بمثل هذه العبارات: كيف يدري من لم يخض الحرب هنا في الداخل ومن لا يملك كفاءة ولا معرفة لمواجهة ما تَرتب عن مغادرة الأوروبيين، ليس في المزارع وحدها ولكن في القطاعات كلها! وإلا ما كان مسؤول الحزب قاطعني.

وذكّرني، مشيرا إلي بسبابةٍ تهديد، أن قذفا من متفلسف مثلي كان جزاؤه قبل وقت قريب إنزال العقوبة القصوى به. فردَدت بأني أعرف أن مثل ذلك الجزاء كان ينفّذ في ما وراء الحدود أيضا.

وكنت نظرت من جديد إلى من يجلسون على يميني وشِمالي، مضيفا: «قدّم البلد ضريبة دم ليتحرر من السيطرة. فكيف يأتي الآن من يريد أن يبسط عليه تسلطه!» - للنزاهة يجب أن أقول إنه ليس باستطاعتي الجهر بذلك اليوم لأن العسكر كانوا قد نزلوا إلى الشارع في جوان الماضي.

واستقام مسؤول الحزب في مقعده وأرغى:

«أحذرك، للمرة الأخيرة!

- من جانبي أحذرك من العواقب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الوخيمة التي ستنجر عن تنفيذ مخطط سياستكم بهذه الارتجالية.

- أنا أعرف نواياك.

- مثلما أعرف كيف تُحوَّل عن وجهتها المساعدات الإنسانية المرصودة للمحتاجين. وأعرف من استولوا على ڤيلات في المدينة تركها أوروبيون بما فيها، في الوقت الذي يحتاج فيه البلد والمدينة خاصة إلى التضامن والعمل للانتصار على الفوضى والفراغ!».

ما الذي كان سيحصل بعد ذلك غير أن تلتهب نظرات مسؤول الحزب شررا ويرتجف ذقنه، وسط ارتفاع بلبلة في القاعة، ثم يضرب على الطاولة، معلنا رفع الجلسة، ويشير إلي أن ألتحق به في مكتب مجاور!

بين مرافقيْه الاثنين، مثل رئيس محكمة بين قاضيين أمامهم متهم، أرعد مسؤول الحزب، إذ واجهني، مرتجف الحاجبين والخدين والشفتين.

ثم وزّع نظراته على مساعديه كأنّ الأمر حصل باتفاق مسبق. وقال إنهم سيتركون حصيلتي الفلسفية جانبا. لأنهم يعرفون على أي أفكار بنيتها أنا وصاحبي الصيدلي، وأنهم ملزمون تجاهي بأن يقنعوني باعتقادهم أن مستقبل البلد لن يكون على غير الذي يريدونه له هم -كانوا يبدون وكأنهم أحالوني على مقعد أمام خشبة مسرح يمثلون عليها- لأنهم هم الذين رسموا خطوط ذلك المستقبل. وهم الذين سينشرون آفاقه عبر وسائل اتصالاتهم، ويثبّتونه في سنداتهم المدرسية، ويجعلون الأساتذة والباحثين والصّحافيين والفنانين والكتاب والمؤرخين خاصة دعاته وحراسه الأمناء.

ثم رفع مسؤول الحزب في صدري، فجأة، إصبع تحذير بأن السلطة لن تترك، تحت أي ذريعة، لأي كان أن يتصور مستقبلا آخر غير الذي ترسم خطوطَه الهيئة السياسية. فهل سمعتُ لفظة السلطة خلال الاجتماع؟ إني أتخيل الآن من بعيد مسؤول الحزب هو السادي ومساعديه هما المازوشيين. عبثية رخيصة! ردّدت في نفسي.

وعاود مخاطبة مساعديه، مناوبا بينهما حركات رأسه، بأني، أنا الذي درست الفلسفة، أعْلم إذًا أن الشعب في لاوعيه يدرك أن هناك من يحفظ عنه مستقبله. إنهم نحن، قال واضعا راحته على صدره، وأني أعلم أيضا أنهم هم المؤتَمَنون على أي مستقبل، لأنه ليس للشعب وقت ولا وعي كافيان للتفكير في مسألة مجردة كالمستقبل. الشعب يحلم. يحلم فحسْب كما يحلم الأطفال! أضاف.

خلال الاستعراض كله ظللت مركّزا، من بين الاثنين الصامتين المستقيمين في جلستهما، على هذا الذي عرفته في الجبل؛ قائد الفرقة سابقا، الضابط زياد.

مسح مسؤول الحزب فقاعتي زبد على طرفي شفتيه بمنديله وأرجعه إلى جيب سترته التي كانت من النوع الماوي.

«نحن ندرك أنك تَعدّ ما نقوم به انحرافا إن لم أقل انقلابا! وبرغم ذلك سنستمر في التحفظ بشأن توجيه تهمة رسمية إليك، لأننا، لتاريخك ومكانتك، نثق في أنك ستحكّم عقلك في التحلي بما يفرضه الواجب الوطني في هذه الظروف»، قال ملطّفا نبرته.

«ما تقومون به عبثية. فقط»، ردَدت بكامل البرود.

فالتفت، في حركتي غضب إلى مرافقيه اللذين بقيا متحجرين. ثم نقر على سطح المكتب بسبابته اليسرى، وهو يحدجني.

«عبثية أو كوميديا؟ لا يهم. نحن الذين نكتب تاريخ هذا البلد. ونحن الذين نقرر مستقبله كما نقرر رفع هذه الجلسة!».

ونهض فغادر مع مرافقه الثاني، فيما تأخر عنهما زياد. وفي ساحة مقر العمالة صافحني، منوها لي بما قدمته في الحصيلة. وقال إنه لم يكن موافقا على تصرف مسؤول الحزب تجاهي ولا على أفكاره. واعتذر لي على أنه لم يجاهر بذلك علنا حتى لا يوسع في شق النزاع ورقعة التشتت.

«مع أني كنت عرفتك في الجبل مسؤولا عسكريا شجاعا ونبيلا»، قلت - وتلك كانت حقيقة.

«آه يا أستاذ! ما كنا نتوقع أن يحدث بعد نهاية الحرب كل هذا الذي نشاهده اليوم.

- سيكون القادم أسوأ.

- أنا آسف جدا.

- أقدر لك هذا الشعور. ثم إني لا أنسى لك تعاملك الإنساني مع الجندية زليخة فجر تلك الليلة المثلجة.
- وبعد يا رفيق؟ لم نكن ملائكة! ثم ها أنتما، كما سمعت، تزوجتما.
- فعلا».

فتمنى لي كامل السعادة وطول العشرة. ثم أخرج لي من محفظته ظرفا.
«ستجد هنا شيئا قد يهمك عن مسؤول الحزب.
- أشكرك».

وفي سيارتي فتحت ما في الظرف وقرأت. ثم طويته وأدخلته حافظة أوراقي.

«حثالات!»، كان ذلك كلّ ما قلته.

وأدرت مفتاح تشغيل المحرك، مرتعش اليد، تجتاحني رعدةُ برْد تصاعدت درجتها خلال الطريق إلى البيت الذي إذ وصلته ركنت السيارة ودخلت، فلم تنتبه إلي زليخة، وهي في المطبخ تُعد العشاء، إلا عندما حييتها. فالتفتت وسكنتْ للحظة تفحّصتني خلالها على قلق. ثم سألتني ما بي. كنت أعرف أنه لا تخفى عليها حالة اكتئابي. وضعتُ حاملة الأوراق على طاولة المطبخ. وجلست على أحد الكراسي، مسندا جبهتي براحتَي معا؛ أحس رأسي صار أثقل من صخرة. فعطستُ عطسات متتالية حاصرتها بمنديلي. ونخرت. ومسدت على حنجرتي، إذ أحسست كمثل دبيب النّمل في حلقي وجفافا في جيوبي الأنفية. ثم أجبت زليخة.

«مجرد تعب فقط. اطمئني.
- يبدو الأمر أكبر من مجرد تعب.
- شيء عارض. فنجان قهوة من فضلك.»

لكن سعالي الجافّ الحادّ قال عكس ذلك لزليخة التي وضعت صينية القهوة. وصبّت لي فنجانا وضعت فيه السكّر. ثم جلست تقابلني. فرشفتُ رشفتين متتاليتين.

«حدثني!»، قالت وكأنها على علم بما جرى.

«هؤلاء المتهافتون! حثالات الاستقلال»، نطقتُ ببحة.

ونظرت إليها بما في عيني من الإحساس بالشقاء النفسي. فأخذتْ يدي ودعكتها.

«أنت محموم!

– عبثية أصحاب الحزب لا تسبب الحمى فحسْب.

– أرسلان حبيبي.

– أنا خائف على مستقبل البلد، يا زليخة.

– لن تكون سوى مرحلة انتقالية.

– لست مطمئنا. قلبي يحدثني بما هو أسوأ.

– أنت تعرف أن بلدنا ليس وحده الذي مر بتجربة فترة ما بعد الاستقلال المضطربة»، قالت بلا وثوق.

ومسدت براحتها على ظاهر يدي في يدها الأخرى. وترجتني، بما في صوتها من تحنان، أن أحطّ عني ما ينوء به ظهري. فاختصرت لها، بين عطسة ورشفة، ما حصل لي مع مسؤول الحزب. وأخبرتها عن الضابط السابق زياد. فلم تنبس ببنت شفة، إلا زفرة أفلتت منها، نهضت على إثرها، لتعلن أن العشاء جاهز. فاعتذرت لها. والتحقت بغرفة النوم فاستلقيت في السرير خائر القوى أحس مطارق تدق في رأسي وأنيابا تقطع مفاصلي.

بعد حين، التحقت بي زليخة فنزعت عني ملابسي وغطتني. ثم سقتني كأس تيزانْ، منقوعة بالعسل والليمون، مع حبة كالْمينْ. فتعرّقتُ. وغفوت.

لم أذكر، إذ أفقت وبي رضوض، سوى أني تقلّبت كثيرا. كانت زليخة جالسة قربي على كرسي بجانب أباجورة الصوان الْمُنارة. سألتُها عن الساعة. فقالت إنها الرابعة صباحا. ووضعت راحتها على جبهتي فشعرت ببرودة تنهدتُ لها. وأدخلتِ المحرار تحت إبطي، طالبة منّي أن أضغط. ثم سحبتْه وعاينت الدرجة، هازة رأسها، منشرحة. وبمقياس ضغط الدم راقبت نبضي وضغطي.

ثمّ وشوشت في أذني.

«ألم أقل لك؟ لحبيبي مقاومة حصان!».

وضعت يدي على ركبتها. وسألتها إن كنت هذيت. وإن فعلت، فهل نطقت بحماقات. فلم تجب. وانتقلت قربي على طرف السرير. فمسحت دمعتيها بأطراف أصابعها الشِّمالية. وأخبرتني أني نمت خلال ساعتين نوما عميقا. فتحت لها عيني ما شاء لها أن تتسع. وعاتبتها على مُداراتها إياي. فمالت عليّ، حتّى لامست شفتاها الممسوحتان شفتي الباردتين. وهمست لي بأن ما انفلَت من لساني كان عبارات عادية من تلك التي كان يمكن أن أقولها في الاجتماعات.

«ذكرتُ مسؤول الحزب؟»، سألتها.

أكدتْ أني فعلت ذلك مرة واحدة.

«أعيدي ما نطقت به»، قلت.

فتمنعت، متذرعة ببذاءة العبارة. وقالت إنّها تظنّ أن مسؤول الحزب لا بد يكون أساء إلي.

«إنه يسيء، مثل حزبه، إلى شعب وبلد بأكملهما»، ردَدت بحنق.

وأسررت إليها أني اطلعت، في الوثيقة التي سلّمني إياها الضابط السابق زياد، على أن مسؤول الحزب نفسه هو من حوّل مساعدات إنسانية كانت موجهة إلى المحتاجين ليعيد بيعها عبر تاجر وسيط، وأنه هو من استولى على أشهر ڤيلا في المدينة باسم أخ له من ضباط الجيش، وهو الذي يهيئ لهدم كنيسة المدينة ليحوّل حجارتها المنحوتة.

ذهلت زليخة لذلك. تنهدتْ.

«الوصوليون!»، كان ذلك كلّ ما قالته.

ونزعت قميص نومها والتحمت بي، بحنين تلك الليلة المثلجة في الجبل.

في نهاية الأسبوع الأول من صيف تلك السنة، عدت، مرة أخرى، من اجتماع هيئة العمالة إلى البيت متأخرا، ولكن على حال غير مشقية كثيرا. فالذراع الحديدية بيني وبين مسؤول الحزب كانت فلّت تماما. وكنت نسيت وعكتي الصحية.

وكان من سعادتي أني وجدت زليخة في انتظاري واقفة بعتبة غرفة الجلوس، لا تبدو على قلق سافر؛ لا بد أنّ ذلك كان لِما لاحظتْه على وجهي من عافية. كانت على زينة خفيفة، مسرّحة شعرها الأسود الغزير إلى الخلف بمشبكين أخضرين عند صدغيها. وكانت ترتدي على الجلد قميص نوم أسود من الحرير يبدو أنّها خرجت به من الحمام، لأنها لم تكن تحمل حليها الخفيفة إلا خاتم الزواج.

لا أدري، كما قلت لها خلال العناق، كيف كانت ستكون حالي لو لم تكن هي رفيقتي، إذ أسندتني في لحظات إرهاقي وشكوكي. فلا شيء في هذه الحياة يُشعرك أنك موجود بصفتك الإنسانية مثلُ امرأة تحبك، لأنها وحدها، دون ما حولك وما في داخلك، مَن تلاقي بين روحك وجسدك المتباعدين عنك دوما، المؤلمين إياك أبدا.

وإذْ أفسحتْ إلي فتجاوزتها نحو الأريكة، استدارت وخلعت شبشبها الجلدي ذا اللون الوردي. وخطت نحوي على السجاد السميك كأنما هي على الماء تمشي. زليخة! كم ظلت تسحرني

بقوامها الأهيف الذي لا زائدة فيه كما تشبَّه لي دومًا، في لحظات تكشُّفنا لبعضنا، بواحدة من تماثيل متحف الآثار الذي لم يكن درْس الفلسفة فحسب يُلزمني بزيارته لمّا كنت لا أزال في الجامعة بل أيضا لأبحث في أقسامه عما كنت أتوقع أن يحتويه من منحوتات ومجسمات وآثار لإنسان هذا البلد، منذ احتلاله، غير تلك الرومانية والإغريقية والفرنسية!

ولكن، فيمَ تكون زليخة تفكر الآن خارج الرواية التي تطالعها في السرير؟ فقبل ساعة كانت، لما وضعت لي فنجان القهوة، قد مرّت بخدها على خدي مرّا لطيفا. ووشوشت لي في أذني «نبغيك!» فارتج جسدي كما الشأن لمّا ضغطتُ صدرها على صدري في ليلة الدخلة فهمست لي «حبيبي! أخيرا!».

لعله لمزاجي الرائق، على غير عادتي بعد رجوعي من اجتماعات البلدية أو غيرها التي تستمر لساعات طويلة، وقد ألقيت بظهري في الأريكة الجلدية ذات اللون البني الغامق، كنت اقترحتُ على زليخة أن نخرج إلى المزرعة لقضاء نهاية الأسبوع هناك، وكان ذلك ردا على سؤالها إياي عما أشتهي أن تحضره للعشاء. فدارت حول نفسها، كما في رقصة، دورة كاملة. وقالت:

«ولا أروع من هذا!».

فأمسكتُ بمعصمها وجذبتها إليّ. فطاوعتني فأقعدتها على فخذي، مستنشقا ما تضوّع من مزيج عطرها وأنفاسها. وهزهزتها من كتفيها فضحكت. وقرّبتُ جبهتي من جبينها فحككتُ أنفي على أنفها. ثم أغمضنا، في سهو، على قبلة طويلة ندية معسولة. ثم أجلستها على

شِمالي مثل طفلة. وأخذت ساقها اليسرى البيضاء العامرة فوضعتها على ركبتي. وطفقت أدْعك بقبضتَيّ قدمها البضة.

«وكأنها لم تتجمد من ثلج ولا التهبت من سير!

– لأن حبك كان بلسما لروحي أيضا»، ردت.

وألقت برأسها إلى الخلف تتذكر لي لحظةَ أنْ حملتها على ساعديّ، وقد اعتلقت برقبتي كصبية، لأضعها أول مرة في الفراش – ليلتها تلمّستُ أول ما تلمست ظاهر قدمي زليخة وباطنهما فاعتقدتْ لِما كانت فيه فرح وانفعال ورغبة أني لداعي ما كان سيحدث آثرتُ أن أثير جسدها من ثَم بما يرخي فيه كل تشنج آخذا قدمها الشِّمالية ممررا سبابتي اليمنى على مستطيل الحناء حول مشطها إلى عقبها أسفل العرقوب كأنّي أمسح على جوهرة لاثما الباطن متشمما مزيجا من أثر المادة العشبية وأنفاس البشرة وكذا فعلت بكفها فأسدلت رمشيهما.

وقالت:

«يا للسعادة!».

ثم فكتْ ثلاثة أزرار من قميصي الأبيض. وبراحة يمناها أخذت تحك بشكل دائري على صدري وهي صامتة، فتمددتُ، متوسدا فخذها يهدهدني حنين إلى حجْر جدتي عند نار الكانون على غنغنة القطة المكتومة قريبا؛ وقد أطبق صمْت ثلج ديسمبر منذ المغرب على كل حركة وصوت في الدرب.

«زليخة! إني أرى وجهها. جدتي!»، قلت ألاحق طيفها الآفل.

«سأكون جدتك وأمك وحبيبتك.

– يا لَكل ما يضيع منا!».

فوضعت سبابتها على شفتيَّ.

«شْششتْ! لا شيء يضيع مع الحب!».

ثم قمنا. ولم نكن قد شربنا غير فنجانَيْ قهوة سوداء في المطبخ لما هزتني من ركبتي تستعجلني، لأننا كنا سنقضي عطلة نهاية أسبوع أخرى هي من أسعد أوقاتنا وأجملها؛ للجو الاستثنائي هناك في باديتنا، نمشي حيث نبغي. ونفعل ما نشاء، متحررين، مثل طائرين.

كانت السماء في ألقها الغسقي، تتهيّأ لظهور القمر، لما غمرتنا ألوان الليل ونحن في سيارة الپوجو في طريقنا إلى المزرعة؛ على يميننا وشِمالنا حقولُ الحبوب النائمة تقطعها من حين إلى آخر غابات الفرنان والبلوط وحقول الزيتون والكروم في صمت مطبق أدخلنا في حال شبيهة بالخشوع، فلم ينطق أحدنا للآخر بكلمة حتى وصولنا.

وكما فعلنا بعد الاستحمام ولبسنا ثيابنا الريفية: العباية البيضاء لي والبدعية الوردية لها، كانت زليخة تحب أن نجلس على الزربية في حوش المزرعة بين البئر وكرْمات التين الثلاث التي كانت في أوج إثمارها، حيث قدمت لنا زوجة عثمان للعشاء، على مائدة دائرية فوقها فانوس من نوع الكانْكي، طبَقا من الكسكس بمرق لحم الحجل وحليب الماعز المغلى.

وفي سكون الليل، على عزف متناغم حينا منشز أحيانا من جوقة كائنات الظلمة حولنا من صراصير وجنادب، وفي جوار المزرعة من ذئاب وكلاب، وسّدتُ زليخة ساعدي. وحدثتها لأول مرة، مثل راوٍ يأتيها صوتُه من الغيب، عن أجدادي الذين توارثوا الأرض والشرف والفروسية

والجاه، وعن آلاف الهكتارات والمواشي التي سُلبت منهم، عقابا لهم على موالاتهم الأميرَ عبد القادر، وعن والدي الذي وضعه التاريخ -ولم أقل لها الصدفة- في مسار غير الذي كان سيأخذه لو لم يقع الاحتلال ولو لم تكن الحرب، وعن والدتي التي أخبرتني يوما أن والدي إنما قبِل مسؤولية «قايد»ليرد عن الأهالي غطرسة الكولون ويخفف عنهم ظلم إدارة فرنسية طالما رأيت بعيني وجودها مجسدا في الحقول والمباني والمزارع تحررا ورفاها وعلى حال الأهالي قهرا وفقرا من مدينة سعيدة إلى مدينة الجزائر في ذهابي وإيابي خلال أعوام الجامعة.

«أتخيل ذلك كله، يا حبيبي. أتخيله»، همست زليخة.

فأخذت يدها في يدي.

«انظري إلى هذا الطالع كأنّما ليحمّمنا بنوره.

- لم أره من قبل بهذا الضياء واللون!».

وحملتُ يدي فوضعتْها على صدرها. وخيّلت لي أنها ترى نفسها تجذبني خلفها، مرتفعين عن الأرض، صاعدين نحو القرص اللجيني. فحضنتُ بكفي نهدها والتحمنا.

على قصرها، كانت لحظة مثيرةً تلك التي وقفت خلالها، في يوم الجمعة الأولى من شهر سبتمبر، أمام صيدلية حاييم، مغمورا سعادةً لرؤيتي، مرة أخرى، لافتتها النحاسية اللامعة وواجهتها المزينة بملصقات إشهارية صيدلانية وأدوات طبية، حتى إذا دخلت وجدته خلف النُّضد يرد على الطلبات، وقد ملأت ناظريّ الرفوفُ عامرةً أدوية. وغزا مشمي، كما حصل ليلة دخلتها من بابها الخلفي قبل أربعة أعوام، مزيجٌ من روائح الڤيكس والكحول الطبيّة وحلوة الريحان.

«لم آت من أجل أدوية»، قلت مبتسما لما حان دوري.

فدعاني إلى الدخول، مشيرا نحو الباب المفضي إلى المخبر. فاعتذرت. وأضفت:

«تعافيت تماما.

– حتى من صداع مسؤول الحزب؟ لا أظن.

– أما ذاك فأدوية صيدليتك كلها لا تزيل آثار وجعه!»

وأعلنت له أني جئته مبعوثا خاصا من زليخة لدعوته إلى الغداء. فابتسم. وتحسر لي، مثل طفل، على أنه يشم عن بعد نكهة ما تحضّره يداها. ثم اعتذر. وقال إنه لا يمكن. وأجابني، إذ سألته عن السّبب، بأنه في انتظار دفعة جديدة من الأدوية تصل بين حين وآخر، بالإضافة إلى إنهاء بعض التحاليل ومستحضرات لمرضى ينتظرون. وترجاني أن أبلغ

زليخة اعتذاره وتشكراته. ثم شد على يدي يحرضني على أن آكل نصيبي ونصيبه. فطمأنته بأني لن أقصر.

وإذ بلّغت زليخة ذلك، قبل جلوسنا للغداء في المطبخ على كسكس بلحم الخروف والزبيب ومرق باللفت والجزر واليقطين والحمص، وفاكهة من عنب، تأسفتْ. ولم نكد نتحدث حتّى نهاية الغداء، عن غير حاييم الذي صار، حين لا يكون مسافرا أو مرتبطا لضرورة قصوى، لا يتغدى إلا معنا في البيت على الكسكس كل جمعة - أستعيد بحزن في هذه الليلة على بُعد دقائق من منتصف الليل أني لما فاتحت حاييم مرة في موضوع زواجه ولمته على تأخّره كثيرا رد قائلا: «أرسلان صديقي. وكيف لي بالسد الذي لا يقْدر على صدْعه سوى الإله!» فكتمت في نفسي أن أقول له إني أعرف أنه لن يبدل دينه الذي رضعه مثل حليبه من ثدي أمه من أجل أن يزوَّج بمسلمة لأنه كان كأي مسيحي أو مسلم على إيمان لا يتزعزع.

«يا لَنفسه الطيبه وصبْره الجميل!»، قالت زليخة في نهاية الحديث.

لقد ظلت، لِما لاقاه حاييم، تتوقع من يوم إلى آخر أن يغادر إلى مدينة كبيرة في الشمال أو يهاجر. لذلك كانت، من وقت إلى آخر تستخبرني عن حاله. وكانت تريد أن أطمئنها، بعد أن راجت شائعات حول رحيل القلة المتبقية من الأوروبيين المسيحيين في المدينة؛ كالأخوات البيض وأحد المعلمين ومصلح أجهزة الراديو والقيّم على الأبرشية، ومن اليهود معلمة الاختزال والرقن وحاييم نفسه.

لماذا أجّلتْ زليخة إلى ما بعد الغداء أن تقدم لي الرسالة التي كانت سحبتها من فوق أحد الصوانين؟ لم أسألها. وكان يمكنها أن تفعل

ذلك لما رجعتُ من صيدلية حاييم. أنا أعرف لباقتها اللطيفة وحدسها المتوتر. ثم إن الرسالة كانت عادية لا تحمل علامة مستعجل ولا مستعجل جدا، كما كانت تصلني بها أحيانا رسائل من إدارة العمالة أو من هيئة الحزب.

كانت جهة المرسل إليه تحمل ختم وزارة الإرشاد القومي* المكتوب بحروف سوداء كبيرة يعلوها اسمي ولقبي وعنواني بالفرنسية. وأنا أقلّبها، كان أول ما وقع بذهني وجه الصادق بصوته يوصيني يوم افتراقنا في الجامعة أن لا أحاول أن أكون بطلا لأن أمثالي سيحتاج إليهم البلد بعد نهاية الحرب - إني أتبسم الآن أيضا ولكن أسفا على ما تؤول إليه حال البلد.

قلت ذلك لزليخة بعد أن اطّلعتُ على موضوع الرسالة. ثم مدَدتها لها فقرأتها بلهفة اكتشاف. ونظرت إلي، بفرح غامر، قائلة:

«أستاذ في دار المعلمين!

- لم أكن أتوقع هذا!».

لأني شعرت، بغتة، أني سأكون في مواجهة مسؤولية ثقيلة؛ وبذهني تَمرّ طريق وهران أراني عبْرها على متن الحافلة مع حاييم قبل أعوام.

فبقدر ما كنا، أنا وزليخة، شعرنا بأننا دخلنا في بُعد زمني ونفسي جديدين وجدنا نفسينا، للغرابة، نداري عن بعضنا، لحين، تأثُّرَنا بما كانت تفرضه ضرورة الانتقال إلى مدينة مثل وهران من استعداد للرحيل وتحضير لمستلزماته قبل موعد الدخول المدرسي المقرر للأسبوع الأخير من شهر سبتمبر، إلى درجة أنّ مزيجا من الكآبة

* إلى عام 1964، كانت تسمى كذلك قبل أن تغير لاحقا إلى وزارة التربية.

والفرح شابَ صوتينا وملامحنا! ولم يكن ذلك يحتاج إلى دليل، لأن سلوكنا نفسه أصابه بعض التغير العابر حتى في سريرنا ذاته.

قبل اليوم، كنت عزوت ذلك لإحساسنا أننا سنفكّ فجأة روابطنا بأمكنة مدينتنا: بجوّها البارد إلى حدّ القسوة شتاء، فقد كان بردا لا يقاوَم ليلا إلا بنار حطب الكانون وفراش دافئ؛ وبثلجها الذي يرسل عليها ندفه المقدسة في كلّ ديسمبر من كل سنة فيُحدث بهجة لا مثيل لها ببهاء لونه الأبيض وجلال صمته؛ وبمناخها الجاف صيفا، تكسره كل مساء نسمات شمالية.

ثم إن كلَيْنا كان مسكونا بالحال التي كنا سنغادر عليها بيتنا «يا لكآبة أشيائه، كل أشيائه إذ تغدو لا تهش عليها أنفاسنا!» - كذلك كانت زليخة ستردد إذ أنهينا حزْم أمتعتنا.

أنا الآخر أحسست أني سأترك شيئا من جسدي وروحي في بيتنا. فقد وعَدتُ زليخة، أقل مما وعدت نفسي، بأننا سنعود إليه كل عطلة، لاستعادة رائحته. وطمْأنتُها بألاّ تنشغل كثيرا بالأثاث لأن الشقة التي سنقيم فيها -كما نحن الآن- ستكون مؤثثة مثلما هي عليه المساكن الوظيفية لأساتذة دار المعلمين.

واستحوذ على كلينا حنين إلى جلساتنا في الحوش، نسهر وننام في صحنه خلال أيام القيظ؛ وإلى ما كنا نتناوله، هناك في المزرعة، من أطعمة تقليدية ومن حليب ولبن ولبأ في موسم وضع النعاج والعنزات والبقرات؛ وما كنا نشربه ماءً منقوعا بالقطران من القربة المعلقة إلى فرع إحدى شجرات التين الثلاث؛ وما كنا نشويه من سنابل القمح طريةً لتحضير الفريك؛ وما نجنيه من البستان من مشمش وبرقوق وتين وعنب ورمان وسفرجل؛ ومن الأجباح

عند مدخل الغابة، مُشعلَيْن قضيبيْ كلخ متيبّسين لإبعاد النحل بدخانهما، ما كنا نقْطعه من شهد العسل الأبيض والأسود يحمله عثمان وزوجته في قصعتين خشبيتين كبيرتين؛ وما كنا نمشيه من مسافات في الأرض البور ربيعا وسط بساط أخضر نَمّقته أزهار البابونج والنعمان والأقحوان؛ وعلى الحصانين ما كان أحدنا يسابق الآخر فيه على الأرض الجرداء؛ وما كنا، حين نخرج إلى الغابة القريبة، نتناوب عليه من حجل وأرانب، رميا ببندقية الصيد!

وعلى الورق، راجعنا في أكثر من ليلة، ما ضبطناه باليوم والسّاعة والأسماء، عن زيارات المجاملة إلى المعارف واستضافة الأقارب، الأم غزالة خاصة. وكان حاييم على رأس قائمة المدعوين إلى غداء يكون «مشوي» في المزرعة. ومن الدكانين الشهيرين في المدينة، أُودُو ماگو وأُولوڤْرْ* لثياب النساء وألبسة الرجال على الترتيب، جهزنا خزانتنا الجديدة بما يناسب جو وهران الساحلي والذوق السائد فيها.

أثناء تلك الأيام كلها، كانت زليخة برزانتها وتحملها وانشراحها على حال مدهشة. فقد فاجأتني بألاّ يظهر عليها ما يوحي بتوتر أو انفعال. وظلت إلى جانبي بكل السخاء الذي يعمر روحها حتى آخر يوم في المزرعة حيث دعوت حاييم إلى الغداءِ الذي تناولناه، برعايتها هي شخصيا، تحت التينات الثلاث، مفترشيْن زربية حمراء. فاستعدنا من أعوامنا في الثانوية شغفنا بأساتذة طالما انجذبنا إليهم، لألبستهم وهيئاتهم وحلاقاتهم وتسريحاتهم وكبريائهم ولغتهم وأصواتهم وعمق ثقافتهم وسلاسة تعبيرهم، انجذابَ من مسّه سحر هُمْ وحدهم يمتلكون سره.

* Aux deux magots. Au Louvre

قلت لحاييم.

«أرأيت؟ ها هو يَحدث ما كنت أنت شخصيا تتمناه لي.

- ويبدو أنه لم يعد لك خيار غيره. أنا سعيد جدا لك يا أستاذ!»، رد ضاغطا على ركبتي متجلي الابتسامة.

وخلال شرب الشاي، لم نكد نتحدث سوى عن البلدية التي أبدى لي حاييم انشغاله عنها بعدي.

وقال.

«لأنها تتطلب مزيدا من الجهد والوقت من أجل إعادة بناء علاقتها مع مواطنيها لتكون في خدمتهم!

- لم نقصّر.

- لا أعتقد.

- تمنيت لو أننا كنا نستطيع مواصلة المهمة برغم شقاوتها.

- سيخلفنا من يضطلعون بها. لا بد».

وقبل أن ينهض، ليغادر، طلب إلي أن أزكي، لدى هيئة الحزب، رغبته في إعفائه هو أيضا من مسؤولية البلدية لأنه يرى نفسه غير قادر على البقاء بعدي فيها. فوعدته بأن يكون له ما يريد. وطمْأنته بأني سأرسل الطلبين معا. ثم رافقته حتى سيارته حيث شد على يدي بحرارة.

«توفيقا مكللا.

- رافقتك السلامة».

في الليل، وأنا مستلقٍ على الزربية نفسها، قبل أن تلتحق بي زليخة، استمعت إلى أرسلان ثانٍ حدثني من أعماقي.

«أجل! ستترك مسؤولية البلدية بقلب غير مطمئن على ما يمكن أن يؤول إليه وضعها. وكنتَ رضيت أن تسيّرها تلبية للواجب. وكان لا يمكنك أن ترفض تعيين سلطة فوقية لا تزال أوامرها عسكرية. وكنت تدرك أنك لن تستطيع أبدا وضع معارفك كلها على المحك الذي يناسبها لأنك ستكون في مواجهة الأوراق والسجلات والتقارير الصماء. وفوقها، ضغوط مسؤول الحزب. وأنك كنت خاضعا لضرورات الاجتماعات الدائرة في حلقات مغلقة، ومستهلكا أكبر قدر من وقتك لاستقبالات لا تنتهي تركت في نفسك أبلغ الأسى من الحالات التي يطرحها عليك المتظلمون من الأرامل والأيتام والمعطوبين ومن فقدوا كل شيء ومن يطلبون عملا وعونا ومساعدة وإغاثة، نتيجة ما خلّفته المواجهة المسلحة لسبع سنين! فكأن يد السماء رفعت، غداة الحرب، عن هذه الأرض الغطاءَ الأسود الذي كانت تجري تحته فصول ذلك الظلم التاريخي في حق شعب أعزل! وها أنت اليوم تُدعى إلى ما كان في لاوعيك ميل إليه: أن تكون أستاذا. ستكتفي بورقة تكتب عليها فقرة قصيرة إلى هيئة الحزب تطلب فيها إعفاءك من مسؤولية البلدية».

كانت زليخة قد استلقت بجانبي لما رحت أهمس لها وقد فرَشَت لي صمتها ممررة راحتها بحنان على صدري.

«وها أنا أتخيل كل طالب يجلس أمامي أرسلان الذي كنتُه أمام أولئك الأساتذة الأوروبيين ينتظر مني أن أُسمعه خطابا آخر مختلفا عما كنت أَسمعه طيلة مساري الدراسي. أقدم له تاريخا آخر، غير الذي عُلّمته، وأدبا مختلفا. وأثَمّن لديه الذكاء والمهارة وحب المهنة.

وأزحزح من ذاكرته، إلى زاوية منها، ذاك الحضور المؤلم لآخَر كان في وجوده على هذه الأرض غاصبا، عنيفا وقاسيا. وأتيح له فرصة أن يستعيد إلى وعيه مقاومة أجداده وأناشيد آلامهم. وأنشر له صورا كانت مجرد أحلام في بداية حرب التحرير».

فشبكتُ يدي بيدها.

«أراك بكامل قوامك الوسيم، في بدلاتك باللونين الأزرق والأسود والأبيض أيضا وأقمصتك وربطات عنقك وأحذيتك في تناسق وتزاوج لمجموع الألوان كما تشتهيها! وها قد أطللت بهيئتك الواثقة ووجهك الباسم على طلبتك فوجدوك أكثر جذبا لأرواحهم بسحر لغتك ومشاعرك وأفكارك كما أعرفها لك! وها قد عدت للغداء فاستقبلتك بقبلة أحرّ من تلك التي ودعتك بها صباحا. وها أنت خلال العشاء تحدثني عن يومك كيف قضيته مع طلبتك. إني أراني في صباح بداية كل أسبوع أناديك لأنك لا تزال في الحمام تنهي حلاقتك. أكرر لك أن الفطور جاهز وأنك ستتأخر. ويا لسعادتي وسعادتك!».

فمِلت نحوها بكامل جسدي وضممتها، على نسائم الليل الشمالية المحملة بأريج الغابة وصوت طائر ليلي يغني شجنا.

8

1965. بوجع الانكسار والفقد

غريبٌ أن ينتابني في هذه الليلة ما قبل الأخيرة من الليالي التي دأبت فيها على قضاء ساعتين في المكتبة بين العاشرة والثانية عشرة ليلا، إحساسٌ بأني سأفقد شيئا ارتبطتُ به طيلة ستة أشهر، في ما بين عطلتَي الشتاء والصيف؛ إحساس كان يقذف بي في حال، بقدر ما أجهدتني، لأني كنت أستنفر لها أعصابي، جعلتني أرمم من خلالها، كل ليلة، أعطابي النفسية جرّاء خساراتي في الأربع سنين الماضية!

وها أنا على وشك أن أؤول إلى الفراغ الذي سيعقب، فراغ أقدّره مهولا لا يكفي برنامج قراءة، مثلا، لسده. ولكنْ، لطمْأنة نفسي، أتوقع أني سأخفض الساعتين إلى ساعة، لمراجعة ما سجلته. فربما اشتريت آلة كاتبة وورقا، لنقل ذلك كله. من يدري؟ قد يشكل ذلك بدايةً لكتاب.

أما الآن فإني أذكر أن زليخة، قبل أكثر من سنة ونصف، ما إن دخلت شقتنا هذه التابعة لدار المعلمين في حي الكْميلْ، حتى وضّبتْها بما كانت تراه يناسب ذوقنا ويمنحني أنا راحة وسكينة -ولو أنْ لا سكينة لي إلا على صدر امرأة مثل زليخة- ولم يكن قد مرّ عليها سوى أسابيع قليلة حتى ضبطت ميقات حياتها الجديدة على إيقاع ما تفرضه علي وظيفتي من انصراف كلي، بتفكيري وجهدي، إلى صلب عملي مع طلبتي الذين كانوا جميعا، كما أخبرتها، من الجزائريين الحائزين على شهادة التعليم للدرجة الثانية من الطور الأول المتقيْنَ

بناءً على مناظرة. فلم أكن، لذلك، أتحرر من إعداد الدروس، مع ما يتبع من مطالعات ومن تصحيح للفروض والاختبارات، إلاّ وقت العَشاء وعشية السبت وصبيحة الأحد وخلال العطل القصيرة.

وكانت زليخة، بانقضاء الأشهر الأربعة الأخيرة من السنة، قد كيفت نفسها تماما مع جو وهران الرطب المتقلب. وكنت، في عطلة الشتاء، عرّفتها على شوارع المدينة الكبرى وأحيائها الشهيرة وعلى خطوط الترامواي. ودخلنا قاعات السينما الكبرى والمسرح. واشترينا ملابس لنا وحاجات للمطبخ من أشهر المحلات التجارية. ومن المكتبات، التي زرناها، اقتنيت كتبا لعملي وللمطالعة.

وفي اليوم الأخير من العطلة، ونحن نتناول غداءنا خارج الشقة في مطعم الكاردينال، الواقع وسطَ المدينة في المنعطف الأخير من شارع جورج كليمنصو إلى اليمين نزولا، وهو مطعم كان يشغل طاولاته الثنائية والرباعية والسداسية مزيجٌ من زبائن لا يخفى منهم مَن هم مِن ذوي أصول أوروبية، هاج في نفس زليخة حنينٌ مخملي إلى بيتنا هناك، إلى المزرعة وإلى ما ٢٠! نتقاسمه مع حاييم ويقاسمنا إياه. وقالت أخيرا إنها تحس كأن ظله ثالثُنا على الطاولة.

ذلك أن حاييم، عشية سفرنا إلى وهران، إذ جاء يودعنا، وقد جلسنا ثلاثتنا في الحوش، كان قدم لنا الحقيبة الصيدلانية. وقال إنه وضع فيها ما هو ضروري للسفر والإقامة في مدينة مرتفعة الرطوبة. وتوجه، مبتسما، إلى زليخة ينبهها إلى أن تُعدّ نفسها لمقاومة التعرّق، ثم إليّ ألاّ أرتدي كثيرا الياقات البيضاء. وسكت لحظةً تفرّسنا خلالها، ثم قام فشد سريعا على يدي وعلى يدها، وقد ثلم وجهَه خيط حزن.

«لا تنْسيا أن تطمْئناني على أحوالكما هناك!»، قال يسابق ما كان سيباغته في عينيه.

ونحن نتأهب للقيام عن طاولة الغداء، أطلعت زليخة على أن حاييم أصبح مثلي في حلٍّ من مسؤولية البلدية؛ فقد كنت تلقيت في الشأن برقية تسلمتُها من إدارة دار المعلمين.

«أتمنى ألاّ يعتذر عن زيارتنا في عطلة الربيع القادمة»، قالت زليخة بنبرة ملتبسة ردَدت عليها بحركة عفويّة من رأسي أنها أمنيتي أنا أيضا.

بعد أيام، بعثتُ إلى حاييم رسالة لأطمئنّ عليه، وصفت له فيها أحوالنا الجديدة، أنا وزليخة. ودعوته إلى زيارتنا. وانتظرت رده الذي لم يأت إلا بعد شهرين، يحمل اعتذاره بأنه أصبح وحده في الصيدلية، بعد مغادرة مساعدٍ له كان وظفه منذ أشهر، وأنه يمر ببعض المتاعب الصحية العابرة. وقال إنه مشتاق إلى رؤيتنا. وختم «تمتعا بعطلتكما فإنه ليس هناك أجمل من الربيع لإنعاش المحبة! صديقكما الوفي. حاييم».

سفَرْنا، أنا وزليخة، إلى العاصمة في عطلة الربيع بعد اعتذار حاييم، كان في جانب منه وفاء مني لوعد سابق. فقد قضينا، في فندق ألِيتّي، عشرة أيام عسلا لم يقدَّر لها غداة زواجنا، للأسبقيات الملحة حينها، أن تكون شهرا ولا أسبوعا أو يوما. أيام، على قصرها، مشيت خلالها بزليخة على آثارٍ مِن خطاي القديمة قبل سنين. وصعدت بها إلى حي القصبة، وبقدر ما أدهشها ترك في نفسي شعورا بكآبة على ما بدأ يختفي مما كنت ذات يوم شاهدته فيه وسمعته وشممته. وحدّثتها عن حسيبة، عن سخائها وحماسها؛ عن مناقشاتنا وجدالنا واجتماعاتنا السرية - أذكر أني كنت لما عدت بالأدوية من صيدلية حاييم إلى الجبل كلمت زليخة عن استشهاد حسيبة.

وقلت لها:

«وجدت فيك، منذ لقائنا الأول ضمن الخلية، شيئا من روحها وأناقتها وشجاعتها.

- عزيزي أنت. المجد لروحها!».

ونحن ندخل حديقة التجارب يدا في يد، اختلست لنفسي ابتسامة وأنا أتذكّر حاييم يخبرني عن قُبلته مع گولدا. وعند جذع شجرة حور، قبّلت زليخة لأول مرة في الفضاء الرحب. وفي يوم تالٍ زرنا ساحة الجنينة والبريد الكبير، قلب مدينة الجزائر العاصمة النابض، وقد شد زليخة فيه بنايتُه الهائلة الجذابة بطابع هندستها الموريسكية. وزرنا المسرح الجزائري الذي ذكَرت لها عنه أنه في يومنا ذاك كان قد مضى على تدشينه قرن وأحد عشر عاما بالضبط.

وفي الأحياء الأوروبية الراقية، كنت كلما دخلنا أحد المطاعم أو اقتنينا مشتريات من محلات مشهورة، مما كان منها لا يزال مفتوحا، أخبرت زليخة بأنها كانت محظورة على الأهالي.

وقبل نهاية إقامتنا بيوم، نزلت بها من أقصى شارع ميشلي الذي كانت كثير من محلاته مسدلة الستائر المعدنية واجمة اليافطات والظلات. وأمام بوابة الجامعة استعدت لها تذكارات مما لاقيناه، أنا وحاييم، خلال أشهرنا الأولى. وحدثتها عن الصادق. فسألتني أين يكون الآن. فأخبرتها أنه، حسب آخر رسالة بيننا، يعمل بأحد المستشفيات خارج مدينة الجزائر. فضغطتْ ساعدي أو يدي في يدها، أو تنهدت، أو حركت رأسها - أتخيل الآن دون أن يخونني اليقين أن زليخة كانت تُسقط ولكن بشكل أضخم ما تراه في مدينة كبرى كالجزائر على مدينة صغرى مثل سعيدة.

«أما وهران فإنها، لسحرها، لا تقارَن!».
كذلك قالت لي إذ عدنا.

وبنهاية العطلة، استأنفت عملي وانكبت زليخة على أشغال البيت، وكأننا في مقاولة مضبوطة بالتنظيم والتعاون الإلزاميين؛ إنْ تكفلتُ بالمطبخ، حين تَغرق هي في معمعة الغسيل والتنظيف، هيأت لي، حين أكون أنا تحت الضغط، الكتب التي أحتاجها لإعداد الدروس، أو أعادتها إلى رفوف المكتبة -هذه التي أجلس الآن وسطها- أو رتبت لي أوراق تقويم الطلبة.

وباقتراب نهاية السنة الدراسية، وجّهنا إلى حاييم دعوة لقضاء عطلته السنوية معنا على أحد شواطئ وهران. وأخبرناه في الرسالة أننا سنأتي إلى مدينة سعيدة، في بداية الأسبوع الثاني من شهر جويلية، لمدة خمسة عشر يوما؛ على أن يرافقنا بعد ذلك في العودة.

غير أن حاييم كان في نهاية شهر مايو، على بعد شهر من العطلة المدرسية، راسلنا ببرقية أشعرنا فيها أنه سيأتي إلى وهران لإجراء فحوص وتحاليل - يعتصر قلبي إذ أذكر أنه بقدر ما أفرحني ذلك لأني كنت سألتقي أخيرا صديق طفولة أيضا باعدت بيني وبينه المهنة والمسافة أصابني ببعض الارتباك لمعرفتي ظروف حاييم النفسية المؤلمة التي عاشها خلال الحرب وغداتها ولِما خلّفه في وجدانه من انكسارٍ إخفاقُ علاقته مع گولدا ولتكتمه غالبا على ما يصيبه من اعتلال عابر إذْ أثرته لزليخة اعتبرت ذلك منه كرامة نفس ثم أغلقنا باب التخمين عما يتصل بمرضه المحتمل.

وعلى الرغم من ذلك فقد شكّل وصول حاييم، يوم السبت الأول من شهر جوان، حدثا بالنسبة إلينا أنا وزليخة. فقد جعل حضورُه

فضاء شقتنا يبدو أكثر ابتهاجا. وكان كذلك فعلا لإحساسنا أن مدينة سعيدة ارتحلت بجميع ذكرياتها لتحلّ في وهران! وكان حاييم، كما عبّر لنا، وجد كأن ماضيه المشترك معنا ضغَط حاضرنا. فلم نتحدث إلا عن ذلك مدة ما استغرقه غداؤنا، على حَريرة وطبق من السمك والرز وتَحْلية من باكور التين والعنب، في جو عائلي مؤنس، من غير أن تنزل عن وجوهنا، درجةً واحدة، بهجةُ السعادة.

وكان حاييم، ونحن نشرب القهوة في غرفة الأكل على طاولة الغداء الدائرية نفسها، أثار ذكريات لنا في مدينة سعيدة هناك وأيامنا فيها. ثم شرد بنظره، قائلا:

«ما يؤلم النفس غالبا ليس فقط فقدان عزيز أو شيء ثمين لهما في قلبنا مكانة، ولكن أيضا ما يزول من حولنا مما كان لذاكرتنا علامات نهتدي بها إلى وجودنا وتاريخنا؛ آثارا كانت أم كلمات أم صورا»، مضيفا بنبرة منكسرة وعيناه علي وعلى زليخة تباعا: «إنها حال كنيسة القديسة جان دارك، كما عرفناها! فقد فُكك جسمها قرميدة قرميدة، حجرة حجرة، زجاجة زجاجة، خشبة خشبة، إطارا إطارا، وبابا بابا».

وأطبق قبضتيه على فنجان القهوة فيما تبادلنا أنا وزليخة نظرة دهشة.

«قبل شهر، كنت حين أتوجه إلى الصيدلية أو أعود منها فأمر قريبا من ورشة الهدم أتوقف للحظات أتأمل عاجزًا يدَ الحماقة تدمّر تحفة أخرى في المدينة. أمس، إذ مررت بالمكان لم يكن قد بقي غير الخراب والفراغ. لكأنه لم تكن ثَمّ كنيسة عرفناها يوما بمنارتها ذات الشكل الدائري، لا تختلف كثيرا عن مئذنة المسجد العتيق بهندسته الموريسكية الجميلة، وبنوافذها الطويلة المقوسة والإفريز الذي تنتهي به وكان يشبه تاجا!».

فلا زليخة صدرت منها حركة ولا أنا نبست كلمة. يحتل ذهني هيكل الكنيسة بواجهته المهيبة نحو الغرب.

ثم، وقد رشف من فنجانه، ففعلنا أنا وزليخة فعلَه.

«أما ناقوسها الكبير فقد تم نقله إلى فرنسا». - قرْعه للصلاة أو النعي يملأ سمعي الآن.

«أثر لحظة تاريخية كان شاهدا على التلاقي العنيف والدامي بين قوميتين وثقافتين هو الذي فُكك. إنها خسارة»، قلت.

وقالت زليخة.

«وها هي مدينتنا تفقد شيئا آخر من ذاكرتها. فكيف يعرف أبناؤنا غدا أن المحتلين مروا من هنا!».

وبنبرة تحسرٍ، قال حاييم إنه تمنى لو أن قدَره لم يقيّض له أن ترى عيناه ما رأتاه.

فقلت:

«كان ذلك متوقَّعا. كنت حدثتك عن تهافت مسؤول الحزب على هدمها.

- هو نفسه كان يراقب عملية شحن حجارتها في مقطورتين.

- لأي غرض إن لم يكن لنهبها من أجل أن تبنى بها ڤيلا!».

وقالت زليخة:

«ستظل كل حجرة منها تهمس له بالعار».

فتوجه إليها حاييم، على ابتسامة يتيمة:

«يجب أن تعلمي أن أحدهم حول الأرغن إلى داره يحسبه آلة پيانو!

- يا لك أنت يا حاييم!

- وآخر حوّل الشموع».

«ليوقدها ليلة المولد النبوي!»، قلت بشعور بعبثية ما جرى.

فضحكنا. وبسط حاييم يديه على ظاهريهما فاتحا وجهه لزليخة، على غبطة:

«طعامك يا سيدتي زليخة شهي. ولذيذ جدا! سلمت يداك. شكرا.

– هنيئا مريئا.

– ونكهة هذه القهوة الذكية تذكرني بقهوة أمي زَهيرة وخالتي ربيعة»، قال حاييم.

«في المرة القادمة نشربها عندك من يديك!»، قلت كأنّي أذكّره.

فرمقني من تحت حاجبيه.

«وقبلها طبق رشّتة من يديّ أيضا!

– لن تُخلف. أعرفك».

عند المساء، نزلنا في سيارتي إلى وسط المدينة. وفي الگاراج الكبير ركنتها. ثم ترجّلنا ماشين في الشارعين الرئيسيين: لا ري دارْزو وألزاس لورّين*، المتوازيين الغاصين اللذين ما مررنا في هذا أو ذاك منهما على محل للحلويات أو مقشدة أو مقهى إلاّ وجدناه ممتلئا، مثل دكاكين الألبسة التي خرجنا منها بمشتريات لفصل الصيف.

وعلى جادة جبهة البحر، حيث أخذ لنا أحد المصورين المتجولين صورا تذكارية فورية، اندمجنا وسط جماعات من الأزواج والعائلات بأطفالها؛ حركاتهم ومظاهرهم وأصواتهم، على الرصيف المحاذي للميناء، وأنوار الشارع والواجهات والسيارات، كلها كانت تضفي على الجو رونقا وسلاسة وتناغما لا يُعرف إلا في عشايا السبت.

* La rue d'Arzew. Rue Alzace Lorraine (حاليا، العربي بن مهيدي ومحمد خميستي).

«هذه النسمات تُنسي الشخصَ تعبه»، قال حاييم مستنشقا هواء البحر. فعبّرت له عن اعتقادي أن وهران تنزّل الإنسان في حاضره بكل زخمه! وقالت زليخة، مبتسمة: «لأنها مدينة مغرية حد الخطورة!».

لدى عودتنا، وكنا تعشينا على پاێلا في مطعم گونزليز الشهير ثم دخلنا قاعة سينما لوريجون لمشاهدة فيلم الوصايا العشر، أعدّت زليخة لحاييم غرفة الضيف حيث ينام ليلته. وكان حديثنا، أنا وإياها حول خرجتنا المسائية، لم يجنح في أي لحظة إلى التساؤل عن حالة ضيفنا الصحية أو عن طبيعة الفحوص والتحاليل التي كان سيجريها، ولا كنا في الغد أثرنا شيئا من ذلك معه خلال يومنا الذي قضيناه بين شواطئ الكورنيش حيث تناولنا غداءنا، من السمك، في أحد المطاعم المتخصصة.

فكل ما عرفناه، أنا وزليخة من حاييم، خلال العشاء الذي كان طبقا من الكسكس بلحم الخروف، أنه على موعد صباح الاثنين مع طبيب متخصص في أمراض الدم.

غير أن زليخة إذ التحقت بي، في سريرنا، لم تُخْف عنّي قلقها على حاييم. وصارحتني بظنّها أنه دارى عنا تعبه بجهد زائد في حركاته، وشحوبَه بابتساماته، وحُمّاه وصداعَ رأسه وأوجاعَ حلقه بردِّها إلى سفره المتعِب في الحافلة -حاييم كان أخبرني في اليوم الأول أنه باع سيارته في انتظار أن يشتري أخرى- بينما كان يجذب، بين حين وآخر، ياقة قميصه إلى أعلى لإخفاء بقع حمراء عند أسفل رقبته.

وأضافت مخدة تحت رأسها، قائلة، كأنها تحدث نفسها، إن الصيادلة أكثر قلقا على حياتهم من الأطباء أنفسهم. ثم أطفأت نور الأباجورة.

مر على تلك الزيارة أسبوع ولم يتصل حاييم خلاله بي، إلا مرة واحدة، برسالة أخبرني فيها أنه وجد في فحص الطبيب ما لا يطمْئن كثيرا، وأنه ينتظر نتائج التحاليل التي سترسل إليه. ورجاني أن أشكر زليخة وأن أبلغها مودته.

أثناء فترة اختبارات نهاية السنة الدراسية، خصصتُ جزءا من نهاري ونصف ليلي وعشية السبت ويوم الأحد للتصحيحات ورصد النتائج وملء الكشوف، قبل عقد المجالس التربوية. وقطعت الاستماع، من الراديو، للنشرات الإخبارية المحلية والدولية.

ولأني منذ الإعلان عن الانقلاب العسكري الذي أطاح برئيس الجمهورية الفتية في التاسع عشر من جوان -قبل أحد عشر شهرا من الآن- لم أعد أقرأ صحيفة واحدة، سألتني زليخة عن سبب عزوفي عنها؛ وكانت هي التي تشتري منها في تلك الفترة ما كنا نطالعه. فأجبتها أن كل شيء، منذ إعلان الاستقلال، بسبب الفوضى والغموض والتزعم، كان يؤشر على ما وقع يوم السبت الأسود. وعليه، فلا فائدة من إضاعة وقت مع تحليلات لا تجرؤ على قول حقيقة ما يترتب، عن الاستيلاء على السلطة بالقوة، من تبعات تضرب جوهر الحرية في الصميم.

«وكأنها مصادفة أن الرئيس كان في زيارة هنا إلى وهران!»، رمت زليخة بالتباس.

«لأنه يحب كرة القدم!»، ردَدت بابتذال.

«وماذا تتوقع؟

- لا بد من انتظار اتضاح الرؤية. ولو أني أعتقد أن العسكر لن يسلموا، منذ اليوم، السلطة لغيرهم.

– يا له من انكسار!

– سامحيني. الآن علي أن أهتم بواجبي الملحّ. لا تنسي أن تهيئي لي الأوراق المصححة حسب الترتيب الهجائيّ. شكرا».

وللتخفيف عني، كانت زليخة تولت أيضا قضاء حاجات البيت الضرورية؛ كأن تشتري الخبز والحليب من أقرب محلّ، أو تأخذ الترامواي إلى سوق ميشْلي للسمك والخضار واللحوم، أو توصل بعض الغسيل إلى الپريسينغ وتسترجعه. وكانت، في ما يتبقّى لها من وقت بعد ذلك، تقرأ – كما هي الآن في السرير قبل أن ألتحق بها – تقرأ كثيرا مما أشتريه من الكتب أو أستعيره؛ موجهة اهتمامها إلى الرواية وتاريخ وهران، إبان الغزو البرتغالي والإسپاني والدخول العثماني والاحتلال الفرنسي، أكثر مما توجّهه إلى غيرهما، حتى إذا عاتبتها يوما على أنها لا تنوع مطالعاتها، وكنت اقترحت عليها أن تهتم بقراءة الفلسفة، ردت قائلة: أمّا الرواية فنَعم! وأما الفلسفة فإنّها تحتاج إلى عقل يستوعب التجريد وهي لا صبر لها على محاصرة دلالات مفاهيمها. ومازحتني بأنها ستهتم بالتربية وعلم النفس تحسبا لنزول ضيفنا الأول في حياتنا – أعلم أنه قادم لأن زليخة أخبرتني أنها أحسته تحرك.

لا شك في أن ما سيبقى عالقا بذاكرتي، أكثر من غيره، مما أذكره في ساعتي الأخيرة لهذه الليلة من نهاية ربيع عام 1966، هما الحدثان المؤلمان: الانقلاب العسكري في العام الماضي، وعودتي في المساء متأخرا من أحد المجالس التربوية التي تعقد قبل حلول العطلة الصيفية. ليلتها، قدمت زليخة، على طاولة العشاء خلال

تناولنا القهوة، رسالة من حاييم فتحتُها بارتباك، لأنّي حدست مسبقا ما كنت سأقرأه فيها.

لا أذكر سوى أني أحسستني هويت في سديم قبل أن أفتح عينَيّ على من نظرت إلي عاضة على شفتها السفلى. وقلت:

«يبدو الأمر جديا».

ثم وضعت الرسالة على الطاولة فتلقفتها وقرأت ذاهلة العينين.

«لا أصدق! حالة حادة من سرطان الدم؟»، قالت مصعوقة الوجه.

شردتُ عنها، على شعور بأن ما يجري بيننا حوْل الرسالة مجرد كابوس عشته في رقادي. كنت أسمع صوتها قادما من لج ناضب.

«وهو منذ أسبوع يرقد في المستشفى غير بعيد عنا؟ يا لقسوة هذه الحياة!»، أضافت.

وكما لو أنها تخاطب غائبا، فيما انتبهت إليها:

«ويقول إنه لم يُرد إزعاجنا!».

كانت تبدو على حال قصوى من القلق والتشتت والحيرة، ذارعة غرفة الأكل، ذاهبة راجعة في المسافة بين كرسيها والنافذة، متجنبة النظر إلي.

«أخبِرْنا يا حاييم! نحن لسنا أصدقاءك وجيرانك فحسبْ! أوووه يا عزيزنا!».

ثم أمسكتْ بيديها معا على حافة كرسيها، كأنّها تخشى أن تفقد توازنها، وقد رمقتني بنظرة ذاهلة. فزفرتُ. وأومأت إليها برأسي أن تجلس.

«غدا. بمجرد عودتي من فترة المجالس الصباحية سنزوره»، قلت، فيما أغمضت هي على تفجُّع.

«يا إلهي!».

كانت الساعةُ الثانيةَ عشرة والربع لما رجعت من عملي في الغد ودخلت الشقة فقابلتني زليخة في البهو واقفة، على قلق؛ وبيدها برقية مدتها لي، صامتة. وأخذت من يدي محفظتي.

لا أدري إن كانت ستزول من ذهني يوما تلك الجمل المقطَّعة التي راحت عيناي تتلقيانها مثل أشواك تنغرز في قلبي.

«السيد أرسلان حنيفي. قف. مطلوب حضوركم إلى المستشفى عاجلا. قف. لأمر يخص أحد معارفكم. قف. مصلحة الطب الداخلي. قف. مستشفى وهران. قف».

لم أكلم زليخة، لا تزال تضغط بيديها معا على مقبض المحفظة مشوَّشة النظرة. وضعت البرقية على صوان البهو. وأومأت إليها، فحسْب، بحركة من رأسي أنِ اتبعيني.

وفي صمت مثقل بالتخمينات الأكثر سوْدَوية، ركبنا السيارة. وكذلك وصلنا المستشفى الذي استقبلنا فيه، إذ دخلنا مكتب مصلحة الطب الداخلي، من بدا هو رئيسه. ودعانا إلى الجلوس على كرسيين قبالته.

لم يفتني أن ألاحظ أن أمرا أكبر مما توقعته كان يثقل ملامح مسؤول المكتب. ولا فات زليخة أن تحس، كما قالت لي بعد أيام، أن نظرته إليها لم تكن عادية. فقد سحب من على يمينه ملفا وضعه بين يديه. وتوجه إلي فسألني إن كنت أعرف الدكتور حاييم بنميمون. فأجبت أنه صديق طفولة ورفيق دراسة وجار وأحد مقرَّبي العائلة. ففتح الملف على ظرفين أحدهما غير مغلق والآخر مختوم؛ إلى جانبهما في الدفة الثانية وثيقة. ومن غير أن يرفع عينيه، فيما تخاطفنا، أنا وزليخة، إلى بعضنا نظرة توجّس.

«السيد حاييم بنميمون هو الذي أوصانا بأن نتصل بكم»، قال بنبرة متحشرجة.

فأمسكت بيد زليخة إذ شهقتْ.

«هل يمكن أن نراه؟»، سألت مسؤول المكتب وكنت لا أقصد أن نزور حاييم.

فرد بحركة نفي من رأسه، خافضا عينيه. وسحب الظرف المفتوح فمده لي؛ بينما أخرجت زليخة منديلها من محفظتها اليدوية وكمشته.

لرؤيتي خط حاييم، لأني أستطيع تمييزه من سبعين خطا آخر، على الورقة التي أخرجتُها، مرت بذهني رسالته التي قرأها علي في الحافلة ذات يوم. كان هو الخط نفسه بقلم الريشة، من نوع پاركر ذاتِه كما بدا. قاومت قدْر ما استطعت أن لا تخنقني عَبرتي لما كنت سأقرأ، بصوت قريب من الهمس؛ فيما نقل المسؤول نظره إلى زليخة وقد وضعت منديلها على فمها تحبس زفرتها.

«صديقي العزيز الوفي أرسلان؛ اعذرني إن لم أخبرك قبل هذا الوقت بأني سأرحل قريبا عن هذه الدنيا وفي قلبي حب عظيم لك ولأهلنا وبلدنا. وسامحني على أني لم أكن أملك في جسدي ما أؤجل به صعقة هذا المرض القاضية حتى أراك مرة أخيرة. عجيب هذا القدر! إن لم يقتلنا بالحرب قتلنا بغيرها! أحببت، وأنا أثق في وفائك، أنت وزليخة، أن تسهر على أن يُنقل جثماني إلى مدينتنا. وعلى أن يُحفَر لي في مقبرتها قرب والديّ. كم أحببت سعيدة هذه! ويا لها من مدينة عجيبة على قدْر كبير من الأسرار الصغيرة! وداعا. حاييم».

مسحت ما نزل من عينَي بحركتين من سبابتي. ثم أدخلت الورقة في الظرف وأرجعته على سطح المكتب. ورميت ذراعي خلف ظهر زليخة، ضاما جنبها إلي. فشهقت، واضعة يدها بمنديلها على أنفها مبللا بدموعها، فيما أعاد المسؤول الظرف إلى الملف وأشهر الثاني المختوم.

«وصية حاييم بنميمون إلى السيد أرسلان حنيفي.»

ثم سحب الوثيقة من الدفة الثانية وأدارها في اتجاهنا.

«وهذه رخصة نقل الجثمان.»

وعلى صمتنا، أعاد ترتيبها مع الظرفين في الملف ثم أغلقه. ومن الدرج أخرج مفتاحين بحلْقين صغيرين علّقا بهما. كُتب على أحدهما مفتاح الدار - أتذكر برودته في يدي خريفَ العام الماضي. وعلى الآخر مفتاح الصيدلية. ثم وضع كل شيء في ظرف كبير سلمني إياه، قائلا إن ذلك ما أوصى به السيد حاييم بنميمون.

«أعدك بأني سأحرص على تنفيذ إرادته.

- أنا واثق»، رد

لم أتردد لحظة، لأن ذلك كان نابعا من قناعتي، لما استسمحت مسؤول المكتب في أن أعرف منه إن كان حاييم قد رحل مطمئنا على أن جسده سيعامل كما تقتضيه ديانته، لأنه كان مؤمنا.

«اطمئن يا أستاذ! فقد أخضرنا من طائفته من وقف عليه وغسّله وكفّنه وقرأ عليه.

- شكرا لكم»، قلت.

ثم استأذنت وقمت، ومعي زليخة. فقام مسؤول المكتب وصافحني.

«موريس پيرييه»، قال شادا على يدي لحظة أطول انتبهت خلالها إلى زليخة وهي تمسك ساعدها فتذكرتُ، كما كانت أخبرتني، حاييم واقفا على موريس پيرييه يرتق جرحها في تلك الليلة.

اعتبرتُها، مرة أخرى، صدفةً أنِ يكون حاييم، وهو الذي لم يقتنع يوما بالصدفة، هو من جمع، من عالمه الآخر، بيني وبين موريس پيرييه.

«سعيد بمعرفتك»، قلت مضيفا: «حدثني عنك الفقيد».

وكان موريس پيرييه أدى لي إيماءة احترام، قائلا إنه تشرف بلقائي أخيرا.

«وأنا بالمثل»، قلت.

وتأسفت له على أننا التقينا في ظروف أليمة.

«إنها الحياة. ولكننا سنلتقي في ظروف أخرى. أنا واثق»، رد.

وأدار وجهه نحو زليخة التي كانت لا تزال تمسك على ساعدها. وقال، كأنه يخاطبني، إنها كانت في تلك الليلة على شجاعة استثنائية. فمدت له يدها، تصافحه.

«أنا مَدينة لك. شكرا.

- العفو، سيدتي زليخة. أنا في الخدمة.»

ولاطفني بأنه سيكون سعيدا إذا زرناه. وقال إن المدام ستفرح لأنه حدثها عنا كثيرا. فردَدت بأن ذلك سيكون لنا شرفا كبيرا - قبل شهر كنا استضفناه هو وزوجته الممرضة السيدة دوليس سرْفاتي ردا على استضافتهما إيانا فسعدنا يومها أكثر لما علمنا أنهما تحصلا على الجنسية الجديدة.

ونظرتُ إليه، عينا في عين، على امتنان، مضيفا أني لن أنسى له جميله مع الوالدة.

«آه! تلك السيدة. فلتنعم روحها بالسلام! لم أعرف امرأة مؤمنة سخية مثلها!»، قال.

وصافحني مرة ثانية.

«إلى لقاء.

- شكرا. احتراماتنا للمدام».

بحزن ساحقٍ أيَّ حديث بيننا، أنا وزليخة، عدنا أدراجنا؛ وعلى ذاك الحزن دخلنا الشقة. ونحن متقابلان في قاعة الأكل، لم نلمس شيئا مما كان حُضر للغداء. فقد طوقتْنا رهبة جنائزية قطعتُها بأن أخرجت ظرف الوصية ففككت ختمه وسحبت منه وثيقة، من ورقة واحدة وعلى وجه واحد، مدَدتها لزليخة.

«أرجوكِ!»، قلت على زفرة.

ووضعت يدي على حنكي، ضاغطا عينَي بأصابعي أرى حاييم كما لم أرَه من قبل وضّاح الوجه يشرق سعادة يوم نجاحنا في البكالوريا؛ فيما صوت زليخة يبحُّه التأثر.

«مكتب الأستاذ العربي سْبايح. عقد وصية. أمامنا نحن الأستاذ ... وأنا السيد حاييم بنبميمون المعرّف أعلاه أوصي للسيد أرسلان حنيفي بما يلي: أولا، أن يضع تحت تصرفه مسكني في الدرب. ثانيا، أن يُحوِّل محتويات الصيدلية إلى الهلال الأحمر. ثالثا، أن يبيع القاعدة التجارية ويقتطع من مبلغها ديْنه علي ويرسل الباقي بحوالة بريدية باسمي إلى بيعة الجزائر باسم الحاخام أبراهام إسحاق. انتهى».

إنْ تجاوزتُ، ببعض الألم وكثير من الاحتمال، هاجس استرجاع هذا الذي استغرق مني ستة أشهر كاملة، من نهاية عطلة الشتاء إلى عشية عطلة الصيف، فإني لم أستقر على تفسيرٍ لِتلكُّئي، مرة ثانية، أمام مذكرة حاييم؛ إذ لم أسحبها معي قبل أن أخرج من داره وأدير المفتاح، في قفل بابها الخارجي، دورتين ثم أسحبه وأعيده إلى جيبي، متراجعا ثلاث خطوات إلى الخلف، وقد أثقل الحزن ناظري أن أرفعه إلى الواجهة، طالما ارتسمت لي، وأنا صغير، ببابها في وسطها ونافذتيها على جانبيها، مثل وجه يكاد ينطق!

فقد حرّرتُ زفرتي، فحسْب. ورجعت على أَثَري نحو سيارتي المركونة أمام باب داري، أعني دار جدتي في الدرب. فركبت وفي ذهني، ساعةَ أقلعت، طريق معلومة للوصول إلى وجهتي، غير أني وجدت نفسي، كأنّما تدفعني قوة خفية، أعبُر ذاك المسار الذي كان حاييم سلكه بي، أنا وزليخة، في سيارة الستروان يوم عرسنا، مارّا ببابَيْ معسكر وتْيارتْ قبل أن ينحرف عند المفترق شرقاً، متقدما الموكب.

عند المفترق نفسه، درت يمينا باتجاه حي الكاستور جنوبا. وفي المنحدر إليه، ضيّقت شِمالا وتوقفت عند مدخل «جبانة اليهود». هناك تذكرت أن ثلاثة أشهر كانت قد مرت على وصول حاييم الأخير إلى عالم صمته النهائي، وكأنها ثلاثة أيام أو ثلاث ساعات.

وتحتَ أول رذاذ للخريف، نزلت من السيارة. ومشيت حتى البابِ الحديدي المشبك الذي قابلني عنده حارس عشريني، يرتدي جلابة صوفية بنية اللون، حدق إلي على تهيّب لعلّه كان لهيئتي الشبيهة بصورة الرسميين؛ فقد كنت بشعر كثيف مسرح إلى الخلف حليق الوجه مشذّب الشارب أرتدي معطفا من نوع گاباردينْ من تلك التي يلبسها غالبا رجال المباحث مرفوعة الياقة، وقميصا أبيض بربطة عنق سوداء، وسروال ترگالْ رماديا من نوع بوعطفة، وحذاء جلديا أسود ملمّعا.

وسألني ماذا أريد فتحاشيت إجابته. وطلبت منه أن يفتح. فلم يتزحزح. واعتذر، مبررا لي أن الدخول ممنوع إلا على سلطة رسمية أو شخص يحمل رخصة مكتوبة تسلّمها المصالح المعنية بشؤون الجالية اليهودية وعقاراتهم. حينها، حدّقت فيه، مبتسما في داخلي، قائلا له إني أنا الذي أصدر تلك الأوامر. فامتثل، بلا تردد، جاذبا بشِماله أحد المصراعين إلى الداخل.

مررت. وعند القبر، أخرجت يدي من جيبي الگباردينْ فخللت إلى الخلف شعري المبلل برذاذ المطر، وقد ثبتتْ، من بين العشرات التي تتالت عابرة كشريط في ذهني، صورةٌ واحدة لحظةَ قرأت اسم حاييم بنميمون تحت النجمة السداسية محفورا بالحروف العبْرية: إنها وجهه الهادئ الباسم إذ قال لي: «نحن جميعا أبناء أبينا آدم»، تلك الجملة التي كتبها لي على كراسي، في عامنا الأخير، قبل انطفاء الأنوار في مرقد داخلية ثانوية معسكر، إثر نقاش بيننا حول السامية والحامية. وقال، سارحا عني، إن ذلك أجمل ما يمكن أن ينقش على حجرة لحد - أعددت لحاييم ذلك عند أشهَر صائغ لرخام القبور هنا في مدينة وهران وقد نُقلت الرخامة وثُبتت على قبره بعد دفنه بشهر.

خلال نقاشنا، تلك الليلة، تبادلنا حديثا عن الغرابة الطريفة في تشابه كتابة العربية والعبرية في الاتجاه نفسه من اليمين إلى الشِّمال وفي اشتراكهما في أصوات وكلمات بالدلالة نفسها. وكنت اعترفت له بأني أغار منه إذ أنّه يكاد لا يبذل جهدا في الانتقال من لغة والده وسط عائلته إلى لغة الجيران من المسلمين في الدرب؛ فوالدته، خالتي زَهيرة كما كنت أناديها منذ صغري، كانت، كما أخبرني هو نفسه، تكاد لا تتكلم العبْرية إلا لضرورة. وهي لا تتقنها إتقانَها اللهجة العربية.

وفي الليلة إياها، نكدني، مبتسما، بأني متخلف عنه مسافة لغوية لأني لا أتكلم العبْرية مثلما يتكلم هو العربية!

«لِيطِبْ مقامك في مثواك الأخير في بَيت عِلْمِينْ هذا!»، نطقت مسرحا ناظري إلى السرْو المخضر الذي يحيط به السور الحجري العتيق؛ وقد ثار في ذهني سؤال: أليست المقابر، كل المقابر، هي ممالك العدم؟

ولوهلة، توهمت حاييم بوجهه الحي الذي رأيته عليه آخر مرة في وهران، ممددا في لحده لم يزحف تحت التراب بجسده إلى القدس! فقد كان ذكر لي مرة أن كثيرا منهم في الشتات يؤمن بذلك. وعبّر لي عن اعتقاده أن روح الإنسان تخلد في سماء التربة التي نبت فيها جسده. ولمّا كنت دخلت معه في جدال من جدالاتنا إلى وقت متأخر من الليل حول الوجود والفناء والحياة والموت ومجيء الإنسان واحتمالات اختفاء سلالته بانفجار كوكب الأرض، قال لي إنه لا شيء في هذه الحياة مثل سطوة المقابر تذكّر الإنسان بأن هناك قوة غير طبيعية، أو سَمّها ما شئت، تتحدى العقل والإرادة هي التي أوجدته وهي التي تعيده إليها - بيني وبين نفسي طالما عجبت من باطنية حاييم ولاطفته غير ما مرة بأنه متصوف زمانه.

«إلى أن أرحل أنا مثلك من هذا العالم وأُدَلّى في قبري بوجهي إلى القِبْلة، فألتقيك أو لا ألتقيك، اطمئنّ على أنك في ذهني لم تعمّر في هذه الدنيا إلا لحظة تشبه تلك التي استغرقتها سباحتنا بين ضفتي الوادي يوم طاردَنا ألفونسو باتيست!»، قلت تحت وقع الحال غير العادية، متخيلا حاييم يسمعني.

بل اعتقدت أني سمعته فعلا قال:

«يا لَحياتنا! ما أقصرها في هذا الزمن اللانهائي!».

ابتسمت لطيفه؛ لكأني أسمعه إذ خاتلني مرة في مكتبة الجامعة:

«قل لي أنت! لماذا لا يؤمن الفلاسفة غالبا بوجود الله؟

– لأنهم غالبا ما يموتون قبل أن يكتشفوا الحقيقة!

– حقيقة أننا مخلوقون بإرادة وليس بصدفة. اقتنعت الآن أو لم تقتنع!».

تراجعت عن القبر خطوة.

«أخبرك أني ترددت في أخذ المذكرة»، نطقت جهرا.

وأصخيت فتناهى إلي حسيس. مجرد حسيس حسبتُ أني تبيّنت منه أمرا ما.

«أجل! أتركك في سلامك»، ردَدت.

ثم توليت، ساحبا ابتسامة زادت الحارس فضولا، بل ريبا في أن بي، أنا الذي يتقدم نحوه الآن، مسّا من الشيطان أو لعنة من روح أحد الموتى. فلا شكّ أنّه استرجع أنّه، لم ير، منذ مدة، أحدا زار المقبرة من أولئك الذين كانوا يأتون أحيانا في مجموعات برفقة أحد المسؤولين.

وكنت لا أنتظر أن يزيدني الحارس شجنا إذ سألني، عند باب الخروج، إن كنت أحد أقارب صاحب القبر. فتخلّصت من ذلك بأنْ سألته إن كان يذْكرني. فارتبك. فسألته:

«سي عامر مزاود كان والدك؟
- بالضبط، يا سيدي!
- كان جنديا شجاعا. توفي إثر جروح بليغة.
- آه يا سيدي!
- ولا بد أنك أنت بشير الذي أخبر يوما تلك السيدة صاحبة المسدس عمن كانوا يحاصرون بيت ذلك اليهودي في الدرب؟
- نعم يا سيدي. أنا هو بالذات!»
فأشرت خلفي بإبهامي فوق كتفي.
«من يرقد في ذاك القبر هو الصيدلي حاييم بنميمون نفسه. وهو الذي كان يرسل أدوية لعلاج المصابين من الجنود أمثال والدك».
فاستقام، كأنّه في استعداد لقائد أمامه.
«سامحني يا سيدي إن كنت لا أعلم هذا!
- ولا بد أنك تملك نسخة من قرار تعيينك حارسا في هذه المقبرة!»
عندها، هلّ وجهه كأنما كان لنور أضاء له.
«قلتها في نفسي، أنت هو إذًا السيد مفوَّض البلدية السابق!».
فكرت ماذا كان يجب أن أقول لمسلم يحرس مقبرة يهود؟ أن أعلن بأنّا كنا صديقين أنا وحاييم؟
لم أفعل سوى أنْ ربّتّ على كتفه لحظة.
ثم غادرت.

سعيدة - أدرار. مارس 2018

الفهرس

1944. من سعيدة إلى معسكر.......................... 9

ما أبعد جامعة الجزائر! 59

1954. ليلة عيد الأموات الحمراء 111

ليلة ثلج في الجبل.. 173

1962. نعم! لا! 211

كفرّحة عابرة 247

يوم للخيبة. يوم للرحيل.................................. 283

1965. بوجع الانكسار والفقد 309

مطبعة كدراتان 2018
e-mail : imprimeriecadratin@yahoo.fr

يبدو الروائيّ الجزائريّ، الحبيب السائح، في هذه الرواية مشغولاً كأشدّ ما يكون الانشغال، بهاجس الهويّة وقضايا وطنيّة عميقة صاغها في عالم روائيٍّ طافح برائحة الجزائر زمن الاستعمار الفرنسيّ وغداةَ الاستقلال، ناسجًا، بيد روائيّ بارع، خيوطَ حكاية تنقبض لها نفسك، حينًا، وهي تحدّثك بتفصيل مذهل عن أجواء الحرب وجرائم المستعمر والميز العنصريّ، وعن الفقد... وتنشرح لها، أحيانًا أخرى، وهي تحملك في أجواء عواطف الحبّ والصّداقة والحنين والتسامح الدينيّ، وعشق الوطن. وقد يلتقي الضدّان معًا فتولد حرارة الحبّ من رحم الحرب وبرد الثّلج! بين سعيدة ومعسكر ووهران والجزائر العاصمة رحلةٌ مليئةٌ بأحداث متشابكة بطلُها شابٌّ يتبعه آخر مثل ظلّه واقعًا وخيالاً، حتّى ازدحمت بحضورهما الرّواية وفاضت على العنوان: "أنا وحاييم"! شابّان لم يقامرا بالهويّة، على ما في المسالك إليها من معاناة ووجع! وقد تابعتهما عينٌ لا تُفلت شاردةً، منذ أن كانا طفلينْ حتّى إذا بلغا أشُدَّهما فرّق بينهما "هادم اللذّات".. هي عين الرّاوي تتنقّل بسلاسة بين زاوية وأخرى فتطوي، في غير تعسّف، مرحلةً ساخنةً من تاريخ الجزائر.

مكتبة نوميديا 175
Telegram: @Numidia_Library

ISBN:978-9931-585-51-0